2022

الطبعة الأولى

أفروديتْ

رواية

علي مكيه

أفروديتْ

رواية...

كتابة وتنسيق: د. علي مكيه

تدقيق: أ. أمين استانبولي أباظة

أفروديتْ..

الطبعة الأولى آذار / 2022

All rights reserved.

جميع الحقوق محفوظة لأصحابها.

تمهيد..

ماذا إذا أخبرتك أنّ في حياتك أسطورة تمثّل الحب؟ ووضعت نقطةَ آخر السطر بعد: إن لم تكن؛ فسوف تولد وسوف تجدها وتعيشها حتماً.

كنت أنظر في الأحداق، في الناس والأحجار والآفاق. في كل ما استطعت الوصول إليه بعيني. وقفت أيضاً مع الواقفين في أرتال الانتظار.. يا له من عمرٍ حزينٍ قضي على وقوف كهذا. شعرت فعلاً بأنّه؛ قلبي علينا!.

من هناك جئت أطرح عليك السؤال؛ ماذا إذا أخبرتك أنّ في حياتك أسطورة تمثّل الحب بألوهيةٍ حقيقيّةٍ وملموسةٍ!؟. لا أحدثك من محض خيال تراءى لي. أحياناً نعيش مع أساطيرنا دون علم بأنهم كذلك. التقينا أو نلتقي معهم. نكلّمهم. نعانقهم. نحبّهم. نفقدهم. المشكلة ليست بعدم وجودهم بل في معرفتنا. ولا بأس ببعض الحذر من التعظيم.

قارئي العزيز. اشرب فنجان قوّتك دائماً، احدى الرّشفات؛ ترتشفها مع أسطورتك. ثم كُنها. كن أنت أيضاً رشفة قوةٍ وأسطورة في حياة الغير لنصنع معاً رغيف خبز. فليس كل وداع قاتل؛ مهما تجلّل بألم.. لسنا ننجح دائماً وكما أنّ فشلنا مهما تنوّع لن يكون النهاية، أما الضجر؛ رغم ثقله يمضي.. قِس على ذلك..

الجميع في الصفحات التالية جلس على أطلاله وأطلال حكاياته.. هذا ما يلعب دور اللّمس. أقصد بصمات الوجع على الروح. انتبه، لأنّهم جلسوا على تلك الأطلال أثناء عيشهم لمراحل حياتهم الجديدة. أي أنّ حياتهم لم تتوقف.

قارئي العزيز؛ الآن وإلى أن نلتقي... أترك لك بَيان والرفاق.
لكَ كل الحب..

الكاتب..

إلى من قال لي يوماً: أنت فاشل في التعبير.
إليك أفروديتْ.

علي مكيه

(١)

نيسان ٢٠١٥

يا إلهي بأيّ غباوةٍ تابعت طريقي!!.
قلتُ في نفسي حينها : "لو أنَّ امرأةً مثلها تكونُ معي، لتغيّرتْ معالمُ الحياةِ كلّها"، ثمّ التفتُّ إلى طريقي وأكملت.
اليوم، يكون قد مضى على تلكَ الحادثةِ زمنٌ لا بأس به.. لكنَّ اللّقطةَ لاتزال في ذاكرتي صامدة؛ كأنّها أخذت للتّو، وحتى الأن لا أعرفُ بأيّ مبررٍ غادرتُ ذلك المشهد.

هلْ صادفتَ في حياتكَ ما يسمّى بالعامّية "سيخَ النّار"؟ هو الموصوف طبيّاً لحرقةِ الصّدرِ (أثناءَ الارتدادِ المَعدِي المريئي)، التي تبدأُ في المعدة، وتمرّ عبرَ المري إلى الحلْقِ، (إذا شعرتَ بألمٍ في الصّدرِ، يرافقهُ ضيقُ تنفسٍ، أو ألمٌ في الفكّ أو الذّراعِ، فاطلبْ العنايةَ الطّبيّةَ فوراً، قد يكونُ ذلك أعراضاً لأزمةٍ قلبيّةٍ.)، أمّا معاينتي لها أثناءَ اللّقطةِ المذكورةِ أعلاهُ، فقدْ كانت حقاً "سيخَ نارٍ" شعرتُ بهِ بعدما أكملتُ المشيَ بعدّةِ خطواتٍ، لكنّهُ مرَّ من قدميّ حتى منابتِ الشّعرِ في رأسي، فوقفتُ مجدداً وشزرتُ وجنتيها أُشهدها بذلك.

في البيتِ، كتبتُ على الجدار: الآن أنا بخيرْ.
وعلى الشفاهِ السّاكناتِ سؤالٌ، من أخبرَ أحلام مستغانمي أنّ الرّجالَ يَنسون بسرعةٍ وسهولةٍ، حتّى كتبتْ (أحبّيهِ كما تحبُّ امرأةٌ، وانسيهِ كما ينسى الرّجال.)؟؟.. بعض الاناث أكبر بكثير من النسيان.

ثمّ أتممتُ كتابتي، لو أنّها لم تلتفتْ إليّ لمررتُ بجوارها كأيّ عابرٍ آخرَ، رُبما ضحكتْ مصادفةً، فبعضُ الضّحكاتِ تُولدُ عن غيرِ قصدٍ، (إنّها إحدى اللّعناتِ التي يُعاني منها أصحابُ الوجوهِ المألوفةِ، يرون الناسَ يضحكونَ لهم بلا إعجابٍ..)، لكنّها تُفهمُ بطرقٍ مختلفةٍ، حسبَ مكانها وزمانها، إنّها الأقدارُ التي تجمعنا معاً، وقدْ شاءَ القدرُ أن أمرَّ في تلكَ اللّحظةِ تماماً، عندما استدارتْ وابتسمتْ.. يا لغبائي، لماذا تلعثمتْ عيناي!.

جلستُ على مقعدي، في ركنيَ المفضّلِ بجانبِ جداري الأسودِ، هناكْ حيثُ كنتُ ألملمُ نفسي دائماً، وأعيشُ طقوسيَ الخاصةَ، ثم أثرثرُ معي، محاولاً جمعَ الأجزاءِ المتناثرةِ منّي، هُنا وهُناك. فمنذُ زمنٍ بعيدٍ وأنا أعدُّ الأيامَ، والشّهورَ والسّنواتَ، على هيئةِ أشلاءٍ، اجتمعتْ بمحضِ الصّدفةِ لا أكثرَ، كأنّما يدي ليستْ يدي، كأنّني أتركُ وجهي كلَّ مرَّة في فِناءٍ غيرِ الفِناء، ونتقابلُ أنا وقلبي وروحي ودماغي كالمعتوهينَ والأغبياءِ.

نويت النّومَ لولا أنَّ شيطاني دفعني إلى المطبخِ، فصنعتُ فنجانَ قهوّتي والذي لم أكن أعرف قبل الآن أنه سيغدو فنجان قوّتي، وجلسنا معاً، لكنْ قبلَ الرّشفةِ الأولى شَمَمْتُها، وشعرتُ برائحتها تعبرني، أنا الذي لمْ أرتشفْ رشفةً واحدةً من فنجانِ قهوةٍ. لطالما كنتُ قاسياً معَها على مرور الأيامِ، لا شيءَ جعلني أفكّرُ بها الآن سوى مرورِ ذاكَ المشهدِ في خاطري..

(إن كنت تحبها فاشرب فنجاناً لأجلي.)

صحوتُ في اليوم التالي، كأنّني لمْ أنمْ، لا أذكرُ كيفَ اتّجهتُ نحوَ فراشيَ، أو كيفَ غفوتُ. لكنّني عندما غادرتُه متوجّهاً لأغسلَ وجهيَ،

مررتُ بجانبِ ذلكَ الجدارِ الذي كتبتُ عليهِ في اللّيلةِ الماضيةِ، وقرأتُ المكتوبَ... فأضفْتُ تحتَهُ: صباحُ الخيرِ.. كيفَ حالكِ سيّدتي؟

رنَّ هاتفي. لا أحدَ يتصلُ بي في هذهِ الأوقاتِ المبكرةِ أو حتّى المتأخرة منها إلا يَسار، يَسار الصديقةُ، الحبيبةُ، الأختُ، يَسار التي استطاعت لعبَ كلِّ الأدوارِ في حياتي.

لطالما أخبرتُها أنّني أعتبرُها حوّاءَ، لأنّني أشعرُ أنّها أمُّ كلِّ الإناثِ، لا شيء يواسي قلبيَ أكثرُ مِنْ زُرقة عينيها، ووجهها الساطعِ البياضِ بتفاصيلهِ الناعمةِ، والحلق المتشبّثِ بجناحِ أنفِها.. رغمَ اندماجنا الكبيرِ، وعلاقتنا الممتدّةِ لسنواتٍ كثيرة، إلّا أنّنا نعلمُ جيداً أنّنا لا نصلحُ لأنْ نكونَ زوجينِ، فاخترنا الحريّةَ معاً..

- .. نَعمْ.
- هكذا علّموك الردَّ على الهاتفِ يا صديقي.
- هههه، صباحُ الخيرِ يا يَسارْ.
- صباحُ الخيرِ، كيفَ حالكَ، وماذا تفعل؟.
- لا شيءَ، استيقظتُ منذُ دقائقَ فقطْ، أريدُ تناولَ شيءٍ ما.
- ما رأيكَ أنْ نتناولهُ معاً.
- لِمَ لا؟ لكنْ أحتاجُ بعضَ الوقتِ.
- أنتظرُكَ يا بَيان، حاولْ ألّا تتأخرَ.
- سأحاولُ حتماً.
- إلى اللقاءِ.
- إلى اللقاءِ.

(عام 2005 كنّا نحن الأربعة معاً. أصدقاء في صفٍ دراسي واحد. جمعتنا تحت سقفه الهندسة. نحن الثلاثة؛ أنا ويارا ويَسار.. ننتمي لعوائل متوسطة في مستواها المعيشي. أو ربما يَسار تفوقنا بعض الشيء. بينما يفوقنا آدم بمسافات طويلة.)

هذهِ الصّباحاتُ كانتْ رائعةً، لا شيءَ أروعَ مِن صديقٍ يكونُ شريكَ حياةِ. قدْ عرفنا الحياةَ معاً، مُذْ كنّا زملاءَ دراسةٍ، خضنا كلَّ علاقتنا العاطفيةَ كتفاً لكتفٍ، تبادلْنا أسرارَ الجنسينِ، فاستطعنا إصلاحَ ما أفسدناهُ في عقولِ وقلوبِ الشركاءِ. عشنا النهاياتِ معاً، فبكينا حتّى جفَّتِ المدامعُ، وكانت الشمس كعادتها؛ تشرق مجدداً على احتضانِ الصّدرينِ لبعضهما...

تشابهنا في المضمونِ، أمّا في الشكلِ والحلاوةِ فقد غلبَتني كثيراً.. كذلكَ في النّشاطِ، والمعدّلِ الجامعيّ العام، لكنْ كلانا وضعَ شهادتَهُ الجامعيّةَ على الحائطِ، وجلسَ يتأمّلها وقتاً طويلاً منْ ريعانِ الشبابِ..

وجدتُ في حضرتِها الرّاحةَ التي لمْ أجدْها في غيرها، كانتْ المحطّةُ التي أستريحُ فيها منْ عبثيّةِ الأيّامِ والأيام التي تمرّ عبثاً، وأظنُّها كانتْ كذلكَ ممّا دفعَها لعدمِ مغادرتي رغمَ السّنينِ...

يَسارُ بالنّسبةِ لي، ذلك النوع من الفتيات اللواتي يشبهْن المكتبةَ، أقفُ أمامَها فأسحبُ أيّ كتابٍ أريدُهُ، أقلّبُ صفحاتِهِ، وأضعُ تحتَ أسطرهِ خطوطَ أقلامِ الرّصاصِ، التي تعني أنّني وقفتُ هنا أثناءَ القراءةِ، ثمَّ أُعيدهُ لمكانهِ بعدَ ترتيبهِ وتنظيفهِ. هكذا هيَ الأنُثى، فنحنُ لسنَا بحاجةِ لأعضائِها التّناسليّة فقطْ، قدْ نحتاجُ حدْسها، نحتاجُ أحياناً صدرَها، أو صوتَها والكلماتِ، ورُبّما الابتساماتِ، خوفَ العيونِ، وتمايلَ الخصرِ..

لكنّ هذا لا يتوفرُ في معشرِ الرّجالِ جميعهم، بلْ يُؤخذُ على هيئةِ دروسٍ تُعطيها أُستاذة.

(عام 2005 لا أذكر كيف التممنا على بعضنا. لكن كنا نضحك كثيراً. هذا يثير الرغبة بالحياة.)

***

ووقفنا على أرضٍ من دُخانٍ، ألقيْنا التّحيّةَ على الأحلامِ، وصافحنا الطّموحاتِ التي أصبحتْ رُكاماً، ثمَّ رفعنا راياتِ السّلامِ، وكتبنا عليها: دَعنا يا أَرَقُ نَنامُ، فلا ثأرَ الآنَ بيننا وبينَ الأيّامِ.

وقفنا نحاورُ الموتَ، ونفاوضهُ، لعلّنَا نسلكهُ أو يُعتِقنا، ونقرأُ لهُ أوراقَ التورّطِ في الحياةِ. لسنا نحنُ الذينَ أخذنَا القرارَ في الحياةِ، لم يكنْ لدينا الخَيارُ، نحنُ فقطْ تورّطْنا هُنا، اجتمعنا كالحشراتِ حولَ بقعةِ ضوءٍ، بِلا سببٍ وبلا أهدافَ، كنّا نتيجةً حتميةً للتّزاوجِ والولوجِ... نحنُ فقطْ تورّطنا هُنا، ونحنُ الجيلُ الذي قد قضي عليه..

اقتربَتْ يدُها، تحاولُ التّغلغلَ في أصابعي، ضحكتْ بأعلى صوتٍ ممكنٍ للضحكاتِ، وسألتْني: أينَ كنّا؟ فأجبتُها: كيفَ أقولُ لكِ أنّنا كنّا

هناكَ، حيثُ أثرُ الدماءِ من كسرِ قلبينا مازال حيّاً، حبّاً بالتجربةِ. هناكَ حيثُ ظننا أنّ الحبَّ استأصلَ الألمَ من أحشاءِنا، وذبحَ جرثومَ الحزنِ المزروعِ في الأعماقِ. هناكَ يا يَسار، حيثُ تركنَا محبّتنا، فوضعوها على صدورهم، خِشيةَ ملامسةِ فُتاتِ لحمنا لملابسهمِ.

سقطَ رأسُها على كتفي، وأمسكتْ يديَ بشدةٍ كأنّها تُقاطعني، ثمَّ رمحَ قلبها على أثرِ سؤالِ الدّخانِ لنا: لماذا مِن هناكَ جئتُما؟ فنزلتْ الدّمعةُ الأولى مِن عينها، تضربُني، قائلةً: حقاً لماذا مِن هناكَ جئتُما؟.

وقفنا وحولنا العيونُ والأسئلةُ، وإشاراتُ التعجّبِ التي كادتْ أنْ تضاجعَ أسماءَنا. وقفنا، ونحنُ أبناءُ ما مضى، لا ابتساماتٍ لنا، لا أضواءَ لنا، لا أسرّةَ لأجسادنا، لا جدرانَ لأسرارِنَا، الأصواتُ بُحَّتْ، الملامحُ تغيّرتْ، الأظافرُ تكسّرتْ، حتّى القلوبُ التهبتْ، خلفَنا الأبوابُ أُغلقتْ، وأمامنا الأبوابُ أُغلقتْ. نحنُ أصحابُ نعتِ النّجاةِ، نحنُ النّاجونَ، والمتعبونَ على أملٍ.

(عام 2005 كل همومنا كانت من يرسم أولاً. من يستطيع فرد دماغه على الدنيا كي يبدع ويتميّز بهندسته. كان سباق رائعاً.)

فلتغفري لهمُ يا يَسار، اغفري ظنونَهم بكِ، واتّهاماتِهم المبطنةِ لكِ، والصفاتِ التي ألقتْها ألسنتُهم على أكتافكِ، لا تَنفي لهمُ العُهرَ، ولا تنفي لهمُ الذنبَ، ولا تحدّثيهم عَنِ الحرّياتِ إنّهم لا يعلمونَ. ولأنهم لا يعلمونَ، لا تغفري لهمُ النظراتِ.. اغفري لهمُ الدموعَ والدّعواتِ، والرّكوعَ، والسّجودَ، وترتيلَ الآياتِ، إنهم لا يعرفونَ من الأديانِ إلّا الآياتِ، فكيفَ تحدّثينهمْ عنِ الحرّياتِ؟ اغفري لهمُ، كما سائرُ بناتِ الشّرقِ المتّهماتِ، واحملي نهديكِ كما يحملُ الليلُ النّجماتِ، لكنْ لا تغفري الريب في النّظراتِ. وبالغي، بالغي في التّصديقِ، وفي الفرحِ

والحزنِ، بالغي في التعبيرِ، وفي الآهاتِ.. فنحنُ في الآهاتِ أبرياءٌ، وأمامَ الحلماتِ أعلّاءٌ... فلتغفري، ولتفعلي ما شئتِ، إن أصبحَ الحديثُ فقط، شذا الحلمات..

لا تخبريهم عنِ السّببِ، لكنْ لا تغفري لهم كونَهم أحدَ الأسبابِ، واعلمي أنّهُ لا يوجدُ أيُّ كائنٍ حيٍّ، يَفهمكِ، أو يستطيعُ إيجادَ المبرّرِ لأجلكِ، مهما كانَ سهلاً، أو حتّى يقتنعُ بهِ. نحنُ يا يَسارُ لا نعرفُ اليُتمَ إلّا بعدَ مراسمِ الدّفنِ، ولا نشعرُ بآلامِ بعضِنا إلّا عندَ اصطدامٍ قاسٍ للغايةِ أو بعدَهُ.

لا أعرفُ يا عزيزتي لماذا نحنُ هكذا، وأسألُ نفسيَ دائماً عندما أفكرُ بذلكَ، هلْ كلَ شعوبِ الأرضِ مثلنا؟. يمكنُنا إيجادُ ألفِ تفسيرٍ لِقطّةٍ شاردةٍ تقتلُ عصفوراً لتأكلَهُ، وحتّى لإنسانٍ أضعفهُ فقرُهُ فبحثَ في القمامةِ عمّا يسدُّ

(عام 2005 مضت الأيام؛ والأيام غذاء التعلّق.)

... رمَقهُ، وربّما نغضُّ البصرَ عنهُ. لكنّنا أمامَ بنطالكِ الممزّقِ وماكياجكِ، وحريّةِ جسدكِ نشعر بالعجز..! فننظرُ إليكِ باشمئزازٍ كبيرٍ، أو بعينِ الشّهوةِ أو الغيرةِ، نحنُ يمكننا الالتفافَ على كلّ شيءٍ؛ المبادئُ والقواعدُ في الحياةِ والنحوِ، اللحمُ الأبيضُ أو الأحمرُ في المطبخِ، الصّومُ والزكاةُ في الأيامِ الميمونات، غيمٌ رسا على ميناءٍ، وردٌ سقطَ على نافذةٍ، طفلٌ وُلدَ عبرَ خطأٍ... لكنْ عندما نرى ضفائركِ الطّويلةَ، وقبلَ أنْ نُخبركِ عن جمالِها، سنذكّركِ أنّها تحوي الكثيرَ منَ الأوساخِ، أو أنّها تُبطلُ الصلاةَ، ورُبما نُهديكِ تعبيراً وجهياً، أو نظرةَ استغرابٍ، هكذا بالمجّانِ.. فهلْ عَرفتِ منْ نحنُ يا يَسار؟.

- لقد طالَ انتظاري لكَ يا بيانْ، على غيرِ عاداتِكَ.
- لقدْ غيّرتِ الخيباتُ عاداتي.
- لنْ ترحلَ الخيباتُ عنكَ، فلا تحزن يا صديقي.
- أصبحتُ مقتنعاً بذلكَ، كيفَ حالكِ؟.
- الحمد لله، شكراً. وأنتَ ماذا عنكَ؟.
- لا بأسْ، لقدْ أنقذنَا عملَنا الأخيرَ، لنعيشَ هذهِ الأيامَ الصعبةَ برخاءٍ.
- فعلاً، لولاهُ لكنّا الآنَ في مأزقٍ كبيرٍ.
- أخبريني، لماذا لنْ ترحلِ الخيباتُ عنّي؟.
- لأني الرّفيقةُ يا بَيان.
- مممم، أنتِ إذاً خلفَ الخرابِ الذي أعيشهُ على أطلالِ علاقاتيَ.
- هههه، أتتوقعُ هذا؟ لا، أنا لستُ خلفَ الخرابِ، أنا الخرابُ بحدِّ ذاتهِ يا عزيزي.

لا تصدّقوها، لأنّي لا أصدّقُها. وإنْ كانتْ يسار الخرابَ حقاً، فيا مرحباً بالخرابِ. خدشٌ صغيرٌ على ظهرِ إبهامكَ، يجعلكَ تكرهُ الدنيا، الدنيا التي لا يَسارَ فيها..

وأمّا الأملُ، فقد كانَ وجهُها مصلَ شفاءٍ أبديّ، وترياقَ قلبٍ يُؤخذُ على لحمِ البطنِ.. كانَ حقاً أحلى اللّمحاتِ التي كتبها اللهُ لي في لوحيَ المحفوظِ، وفي قدري. وردةٌ تدلّتْ منْ غصنِ الوطنِ بخجلٍ، وأمامَ شوكِ أيّامي تحرّكتْ، فتجمّلتْ الأيامُ بكحلتها، وأحمرِ شفاهِها الخاصّ.

(عام 2005 القلوب تهوى من يضحكها. جميعناً كنا صيداً للعشق.)

كنتُ هكذا، في عبثيةِ الزّمرّدِ وحلاوتِهِ، تضيعُ الحكاياتُ منّي، والأشخاصُ، والنسيانُ.. أُخطئُ في بدايةِ العزفِ على آلةِ الوقتِ، يُغريني الخطأُ، ويُعرّيني، فأبدعُ فيهِ، كما لا أفعلُ في الرزانةِ..

تستوقفني السّاعة التاسعةُ صباحاً: الآن عليكَ الاحترامُ. تصفعني الساعةُ السادسةُ مساءً؛ والآن عليكَ الاحترامُ. تخبرني الساعةُ العاشرةُ ليلاً: والآن عليكَ الموتُ. فأقومُ أركضُ خلفَ الكلماتِ، يحاولُ الليلُ استدراجيَ بلباقةٍ: الآن عليكَ الموتُ..

يا ليلُ؛ اجلسْ على النّافذةِ قليلاً وانتظرْ، انتظرْني كي ألملمَ مِن حوليَ جسدي، وأرتّبَ حقيبةَ السّفرِ، أضعُ في الجيبِ العُلويّ خيباتيَ، وفي الجيبِ السّفليّ ما بقي عنديَ من آمالٍ، وأسقيورديَ كأسَ وداعٍ، فيقومُ يركضُ إليَّ دونَ تأخيرٍ.. هلْ أحملُ معي قصائدي؟ لألقيَها هناكَ، أمْ أنّي لنْ أجدَ السّامعينَ والسّامعاتِ الذينَ انتظرتُهم طوالَ حياتي. يا ليلُ، كمْ مرّةً سأموتُ؟ كمْ ساعةً سأموتُ؟ هلْ سيلتقي اللهُ بي! ونتحدّثُ مَعاً؟ فأسألَهُ: لماذا كنّا نعيشُ هكذا؟! وأطلبَ منهُ أنْ يبثَّ صوتيَ منْ سماواتِهِ على الدّنيا، لأغيّرَ بهِ هَذي النّقطةَ الصّغيرةَ مِن بينِ الكواكبِ، انتظرني لآخذَ قلبيَ، وربطةَ عُنقيَ، وأُغيّرَ عينيَ؛ إنّ عينيَ لا تصلُحُ للقاءِ الرّبِ، بعد ما رأتهُ في الدّنيا... أخبرني يا ليلُ، هلْ سيلتقي اللهُ بي؟ لأحضّرَ كلماتيَ وأسئلتي، وأجمعَ اشتياقي، وأستردَّ مِن أَصحابِها محبّتي فلا أحدَ يستحقُّها سواهُ.. هل تعلمُ ما سأقولُهُ لَهُ؟ بالتّأكيد لا تعلمُ؛ وأنا لنْ أخبركَ كي لا تتراجعَ عن استدراجيَ..

استدرجني أيُّها الليلُ، تعالَ إليَّ لتستدرَّ عاطفتي وحناني، ونسمعَ آخرَ قصيدةِ شعرٍ بلهجةِ أهلِ الرّافدينِ التي أعشقُ سماعَها...

ونذهبَ معاً في رحلةٍ، عبرَ وطننا العربيِ الذي حُرمنا من زيارتِهِ، بذنبِ أنّنا عربٌ!. فنزورَ القدسَ التي بكيناها طويلاً، نلقي التحيّةَ على أهلِها، لعلَّهم يصبّونا في حرفِ النونِ أيضاً، ثمَّ نذهبَ لرؤيةِ دبي، إنهم يقولونَ عنها أنَّها تشبهُ لندنَ! ولا ضيرَ في أن نركبَ متوجهينَ إلى قسطنطينَ في بلادِ الشهداءِ، ونخبرَهُم عمّا جرى بعدَ استشهادِهِم، ثمَّ نجلسَ قليلاً على طرفِ النّيلِ، نلوّحُ لأهلِ مِصرَ، نخبرهمْ أنّهمُ الأكثرُ طيبةً على الإطلاقِ، ونأخذ صورةً معَ الأهراماتِ، ومن ثمّت نمضي إلى أهلَ الرّياضِ، نسألهم لماذا كانوا دائماً غُرباءَ، وأخيراً نختمُ رحلتَنا في بيروتَ المتّهمةِ بقتلِ بلقيسَ، بيروتُ التي ما عرفناهَا إلّا حزينةً مشتّتةً دائماً، لنُخبرَهَا أنَّها الأكثرُ أنوثةً بينَنَا، قبلَ أنْ نتوجّهَ إلى الجامعِ الكبيرِ في حلبَ العتيقةِ لأداءِ الصّلاةِ الأخيرةِ هناكَ، ونكتبَ بالطّربِ والقدودِ رسالةَ حبٍّ لدمشقَ وللعالمِ، توقّعُها حجارةُ القلعةِ. أوَليسَ الضادُ يجمعُنا؟؟

استدرجْني أو اخطفْني، افعلْ ما شئتَ، إنّي هكذا، مجرّدٌ من أسلحتي، مصابٌ في صمّاماتِ أوردتي، معفيّ منَ الحياةِ. لستُ إلّا حجراً منْ أحجارِ مسبحةٍ يسبّحُ فيها شيخٌ كريمٌ ويدعو لغيري، أو درساً من دروسِ الرَّقص الشّرقيّ للصّدرِ أو الخصرِ.. يُعطَى فقطْ لصاحباتِ المؤهّلاتِ.

أنا قُبلةٌ مهملةٌ على شفةٍ يابسةٍ. عصفورٌ تمشّى قليلاً على الشّاطئِ فاتُّهمَ بملوحةِ البحرِ!. اخطفني لكنْ أعطِني بعضَ الوقتِ لأكتبَ على جداريَ الأسودِ رسالةَ وداعٍ، أخبرُ فيها القادمينَ أنّكَ قدْ جئتَ، لعلّهمْ يعلمونَ مكاني فيما بعد.

مساءُ الخيرِ سيّدتي، أريدُ إخبارَكِ، أنَّهم قدْ جاؤوا، فأرجوكِ لا تظهري في خياليَ، وإنْ استطعتِ أخبري يَسارَ.. لقدْ جاؤوا ليأخذوكِ منّي،

ليُصادروا منّي ما بقيَ منّي، وتلكَ اللقطةَ التي بقيتْ في ذاكرتي، لا أعرفُ هلْ يقصدونكِ أم يقصدونَ يَسارَ! أمْ أنّهم يريدونَ نصفيَ الأيسرَ بالكاملِ أيضاً، لا أعرفُ بالضّبطِ، لكنّهم بالتأكيدِ يريدونني أنْ أكتبَ السّيناريو، وأمنحهم دورَ البطولةِ جهراً... لقد جاءَ الليلُ معهم، يُخبرني أنّي سألعبُ دورَ الخادمِ، أيَّتُها السّيدةُ، التي لا أعلمُ تماماً ما اسمُها.. وما أدركتُ مِنها إلّا ضِحكتها... إلى اللقاءِ.

(عام 2005 أنا أحببتُ يارا الحلوة ببساطتها. أما آدم أشعل فتيل تألّق جديد في يَسار فأحبّته بعدما تناولت فؤاده.)

أخذني الليلُ، رفيقَ رحلتهِ في المدى البعيدِ، كسحابتينِ مشينا بخطواتٍ ثقيلات.

أبتسمُ للشّرفاتِ، ألوّحُ بالطّرقاتِ. البعضُ يصفّقُ للتّجربةِ، البعضُ الآخرُ يشتِمني. نسيتُ ذاكرتي قبلَ الخروجِ، الآنَ لا ذاكرةَ لي، لأعرفَ من هؤلاءِ جميعَهم...

مررْنا بشارعِ السّوقِ القديمِ، شارعِ الحُبِّ، شارعِ الموتِ، شارعِ الحياةِ، وشارعِ الحلويّاتِ، وهكذا دواليكَ بلا توقّفٍ، هكذا أخبرني الليلُ، فأنا لا ذاكرةَ لي، لأذكرَ كلَّ هذهِ الشوارعِ. والبعضُ يصفّقُ للتّجربةِ، البعضُ الآخرُ يشتِمُني...

طلبتُ منَ اللّيلِ التّوقُّفَ عندَ نافذةِ يَسار، ليتسنّى لي أنْ أطلبَ منها الانتظارَ، رغمَ أنَّها الموجةُ الوحيدةُ التي أثقُ بها منْ بينِ أمواجِ البحارِ.. لكنْ عليَّ أنْ أطلبَ مِنها الانتظارَ، فالنّساءُ مهما كبُرنَ، ومهما فعلنَ، يحببنَ أنْ نطلبَ منهنَّ الانتظارَ. والبعضُ يصفّقُ للتّجربةِ، البعضُ الآخرُ يشتِمُني.

استدارَ اللّيلُ إليَّ جاحِداً في كلماتي، حلّقَ بيَ، وصوتُ قهقهتِهِ يهزُّ في رأسي فكرتَهُ: أنِ اصمتْ يا فتىً، لا كلام على جناحيَّ، اللّيلُ يأخذُكَ حيثُ يشاءُ، ألا تعرفُ ما يفعلُ اللّيلُ بالغرباءِ؟ ألا تعرفُ التشتّتَ والتمزّقَ والسّقوطَ والعذابَ والجنونَ في التّوحّدِ مع ليلةٍ سوداءَ؟.

حَطّ الليلُ فجأةً على نافذةٍ غريبةٍ، لا ذاكرةَ لي فأعرفَها أو أعرفَ صاحبَ صوتِ الضّحكةِ المألوفةِ، التي تصدحُ خلفَها. طلبَ منّي النّظرَ والتأمّلَ، فحدّقتُ إلى الشبّاكِ، مصوّباً لهُ نظرةً برفعِ الحاجبِ، ثمَّ فقدتُ الوعيَ وفقدني.. يا ويلَ قلبي، سيدتي ها أنا الآنَ ألتقيكِ مجدّداً، هلْ تسمعينَ صوتي، كيفَ حالكِ؟ لقد اشتقتكِ، لا أعرفُ بأيّ غباوةٍ التفتّ إلى طريقي وأكملتهُ، لا أعرفُ بأيّ مبرّرٍ غادرتُ ذلك المشهدَ. والبعضُ يصفّقُ للتجربةِ، البعضُ الآخرُ يشتِمُني.

مِنْ قميصيَ الداخلي، حملني اللّيلُ مجدّداً، وطارَ بي في المدى البعيدِ، لا سيدتي مَعي، ولا وجهَ يَسارَ، لا وجوهَ الآنَ، قالَ لي وأكملَ: سنشاهدُ فيلماً سينمائيّاً، فابقَ معي حتّى تؤمنَ بي.

على دويّ صاخبٍ افتُتحَ العرضُ: الآنْ نكشفُ السّتارَ عنْ حياتكَ يا بَيانُ، نقلّبُ صفحاتِ كتبكَ، نتلوا عليكَ الآياتِ، نعزفكَ لحناً حزيناً كجدرانِ منزلكَ السوداءِ، اليومَ نحاسبكَ، نكوي فيكَ الألمَ، والجراحَ كلّها، لعلّكَ تعودُ، ونصدمُ قلبكَ بالذّكرياتِ، حتّى نضخَّ فيهِ الحياةَ..

المشهدُ الأولُ: ميمنةَ المشهدِ فتاةٌ مِن مقاعدِ الثّانويةِ، خرجَتْ، لوّحتْ لكَ مِن الأفقِ، روحُها بَتولٌ، تفاصيلُها ناعمةٌ، طلبتكَ بجرأةٍ فخجلتَ، وجاءَ الجوابُ بالرّفضِ، واختفتْ في ميسرة المشهدِ.

المشهدُ الثّاني: ميمنةَ المشهدِ فتاةٌ مِن ملعبِ كرةِ السّلّةِ، خرجتْ، لوّحتْ لكَ مِن الأفقِ، شعرُها أشقرٌ مجعّدٌ، تحرّشتْ بكَ، فخجلتَ وجاءَ الجوابُ بالبُعدِ، واختفتْ في ميسرة المشهدِ.

المشهدُ الثالثُ: ميمنةَ المشهدِ فتاةٌ مِن أسوارِ كلّيةِ الآدابِ، خرجتْ، لوّحتْ لكَ من الأفقِ، عباءتُها سوداءُ، كحلتها سوداءُ، نادتكَ بلطفٍ، فخجلتَ، وجاءَ الجوابُ بالصّمتِ، واختفت في ميسرة المشهدِ.

المشهدُ الرابعُ: ميمنةَ المشهدِ فتاةٌ مِنَ الحظِّ العاثرِ، خرجتْ، لوّحتْ لكَ منَ الأفقِ، وجهُها أبيضٌ، قلبُها أبيضٌ، جسدها ممسّدٌ، نظرتْ إليك بحبّ، فخجلتَ، وجاءَ الجوابُ بالرّحيلِ، واختفت في ميسرة المشهد.

المشهدُ الخامسُ: ميمنةَ المشهدِ فتاةٌ مِن فتنةِ ما خلقَ اللهُ في الدّنيا، خرجتْ، لوّحتْ لكَ مِن الأفقِ، وجهُها أبيضٌ، روحُها بتولٌ، شعرُها أشقرٌ، كحلتُها سوداءُ، جسدها ممسّدٌ، أمسكتكَ مِن كلِ أطرافِكَ، فخجلتَ، وجاءَ الجوابُ بالخطيئةِ، واختفتْ في ميسرة المشهدِ.

المشهدُ السادسُ: ميمنةَ المشهد فتاةٌ مِن رَحمِ الجمالِ، خرجتْ، لوّحتْ لكَ مِن الأفقِ، عيونُها غجريةٌ، شعرُها غجريٌ، ثغرُها جذّابٌ، بتلتكَ عَن بعضكَ، امسكتْ قلبكَ؛ صبّتْ فيهِ الهوى، وصبَّتهُ في الهوى، فخجلتَ، وجاءَ الجوابُ كذلكّ بالهوى، واختفتْ في ميسرة المشهدِ.

المشهدُ السابعُ: ميمنةَ المشهدِ فتاةٌ مِنَ العشقِ، خرجتْ، هامتْ بكَ، لوّحتْ لكَ مِن الأفقِ، قبّلتْ روحكَ، انتظرتكَ تتحرّكُ، صبرُها طويلٌ، خلقُها حسنٌ، دعتْكَ، فخجلتَ، وجاءَ الجوابُ بالرّفضِ، واختفتْ في ميسرة المشهدِ.

المشهدُ الثّامنُ: ميمنةَ المشهدِ فتاةٌ منَ الحلمِ المراهِقِ، خرجتْ، لوّحتْ لكَ منَ الأفقِ، بالنّدى مبلّلةٌ، قلبُها طِفلٌ، حاولَتْ توريطَكَ ببراءة، فخجلتَ، وجاءَ الجوابُ بالبعدِ، واختفتْ في ميسرة المشهدِ.

المشهدُ التاسعُ: ميمنةَ المشهدِ فتاةٌ مِن قاعةِ المحاضراتِ الكبيرةِ، خرجتْ، تفاصيلُها هادئةٌ، أرادتكَ رفيقاً لها، فخجلتَ، وجاءَ الجوابُ بالرّحيلِ، واختفتْ في ميسرة المشهدِ.

المشهدُ العاشرُ: ميمنةَ المشهدِ: الآنَ أنتَ تمرّ على المشاهدِ المذكورةِ سلفاً، وغيرِها مِن مثيلاتِها التي لمْ تُذكرَ، تسلّمُ على أصحابِها وتختفي، ثمَّ تظهرُ ثمَّ تختفي، ثمَّ تظهرُ ثمَّ تختفي. عبرَ المشهدِ الخامسِ ولدتَ، ولا تزالُ تُولدُ هناكَ، منذُ سنينٍ، هناكَ تركتَ الجسدَ. في المشهدِ السّادسِ وقفتَ، لاتزالُ تقفُ هناكَ منذُ سنينٍ، هناكَ تركتَ القلبُ. وبقيتْ لديكَ الرّوحُ تُعاني الألَمَ واليُتمَ والعذاباتِ. والبعضُ يصفّقُ للتّجربةِ، البعضُ الآخرُ يشتمكَ...

وما بين النّهدينِ أحببتَ البقاءَ، لا نشعرُ أنّكَ على خطأٍ، فكلَّ ما في الحياةِ أصلُهَ النّساءُ، والشّعرُ إنْ لمْ يصفِ الأظفار الطّويلةَ، تنتحرُ قافيتُهُ، والشّارعُ إنْ لمْ يكن فيهِ الجدائلُ، تموتُ أبنيتُه، والياسمينُ إنْ لمْ يلفَّ بعطرهِ عُنقاً، تروحُ رائحتُهُ، والسّريرُ إنْ لم يحتضنِ البشرةَ المخمليّةَ، تختفي راحتُهُ... ارجعْ إلى دُنياكَ يا بَيان، سيبقى البعضُ يصفّقُ للتّجربةِ طويلاً، وسيبقى البعضُ الآخرُ يشتمكَ طَويلاً.

****

(٢)

٢٠١٥

على موسيقايَ رقصتْ، مخلخلةَ القدمِ حافيةً.. وفي الرّقصِ قد تهوّرتْ، فوقَ طاولةِ النّبيذِ، على أرضِ البيانو، في محاذاةِ جسدي.. وفي مسامعي ألقتْ جملةً: أحبُّ وجودَكَ. فانتظرُتها..

على وجعي مرّرَتْ شعرَها الطويلَ، وتركتْهُ يرقدُ على كتفيَّ، يحدّثُني عنِ الشّوقِ.. وفي صدري زرعَتْ وردةً لتبقى مِن بَعدها، وتبقى مِن بَعدي. فانتظرْتُها..

لم تحاولْ الإغراءَ بماكياجِها، حتّى أظنُّ أنّها الآنَ نَجتْ مِن فِراشِها. فظننتُها نجت من فراشها كما أرادت، واعتنقتُ مسيحَها.. وفي جواري جَلسَتْ، تناولَتْ كأسَها وهمسَتْ: الصّبرَ.. الصّبرَ. فاعتنقْتُ مسيحَها، وانتظرتُها..

وعلى الشّفتينِ كتبتُ، على الوجنتينِ كتبتُ، على الكعبينِ كتبتُ، بعينيَّ ووجهي ووجهها كتبتُ. واعتنقتُ مسيحَها وانتظرتْها..

السّاقُ للسّاقِ قالتْ؛ بعدَ التّحيةِ والسّلامِ: عفوك. وأحمرُ الشّفتينِ سالَ، يوثّقُ الجريمةَ.. والجريمةُ تصرخُ: عجباً أينَ الجريمةُ!؟.

(عام 2005 كنا ندعى بأصدقاء يَسار. وغادر آخر أفراد عائلتها من دمشق.
نحن أبناء الأحياء الشعبية، نبتسم دائماً.)

كانَتْ تقطَعُ عليّ انسيابَ أحزاني، وفي حضرتِها أُفلتُ من صراعِ الأمكنةِ والأزمانِ. أغدو في العابرينَ كبواقي أثر، وللباقينَ تبقى دمائي..

ونحنُ في المأساةِ، تراها تضحكُ كالأمنياتِ.. بجانبِ الجدارِ الأسودِ، والكلماتِ، تضحكُ كالأمنياتِ.. في السّوقِ القديمِ، في الحبِّ، في الموتِ، في الحياةِ، تضحكُ كالأمنياتِ.. ومنَ السّماءِ تتدلّى نجمةٌ، تقولُ في آذاننا: إنّنا كالترّهاتِ، وهيَ تضحكُ كالأمنياتِ..

في الجهدِ، في التعبِ، على رفوفِ الإهمالِ، أمامَ الكؤوسِ الفارغاتِ، تضحكُ كالأمنياتِ.. في المقهى الصغيرِ، تشدُّ انتباهَ الأُخرياتِ، إذْ تضحكُ كالأمنياتِ، حتّى والمقلُ متعبات، تضحكُ كالأمنياتِ.. وتبكي وهيَ تضحكُ كالأمنياتِ.

هلْ تعلمُ ما المعنى في أنْ تضحكَ كالأمنياتِ؟ يعني أنْ تشاهدَ أمنيةً لها وجهٌ وجذعٌ وأطرافٌ، تمشي وتقفُ، وتقومُ أو تقعدُ، وتعبسُ أو تضحكُ، حتّى يغارَ عليها الأملُ، وتغارُ منها العاشقات.. هيَ تضحكُ هكذا كالأمنياتِ، ويا ويلَ روحي إذا ضحكتْ ضحكةَ اليافعاتِ.

(عام 2005 تدفعني يَسار إلى صناعة فرحة يارا. أحذّرها من غرور حبيبها.)

كنّا نكتبُ على الأيّامِ، أنّنا أولئكَ الهاربونَ منْ تكّاتِ الساعةِ.. منَ المواعيدِ الدّقيقةِ، والحياةِ المنظّمةِ.. والمظاهرِ الأنيقةِ. الهروبُ هوَ الوصفُ الأدقُّ لنا، مِن وجهةِ النّظرِ الخاصّةِ بي.. رغمَ أنّنا كنّا نتأنّقُ كثيراً في مشاويرِنا الصّغيرةِ، ربما كانَ دافعنا ألّا أحدَ ينتظرنا في مشاوير كبيرةٍ..

نحنُ أبناءُ عائلاتٍ بسيطةٍ، مليئةٍ بالقصصِ المدهشةِ سلباً وإيجاباً على حدٍ سواء... عندما تكونُ صغيراً، تشعرُ بمحبةٍ كبيرةٍ تجاهَ عائلتكَ، تجمعكَ المحبةُ بكبارِها، والنّقاءُ بصغارِها.. يجمعكَ اللهوُ والمزاحُ، وكلُّ ما يمكنُ عيشهُ معَ العائلةِ. وفي مرورِ الأيامِ ستفهمُ الحياةَ أكثرَ، والحياةُ بدورِها تفتحُ لكَ بقيّةَ الأوراقِ في دفاترِها، ليفاجئكَ أنّكَ كنتَ في كابوسٍ غريبٍ! وليسَ في وسعكَ الاعتراض..

تخرجُ من كابوسكَ هذا، تركضُ في أحدِ الشّوارعِ المذكورةِ أعلاهُ، السّوقُ القديمُ، الحبُّ، الموتُ، الحياةُ. تستقلُّ أوّلَ وسيلةِ نقلٍ تصادفكَ، يسألكَ السّائقُ أو معاونُهُ: إلى أينَ تودُّ الذّهابَ يا سيدي؟ فتقولُ: أينما تريدُ، إلى أبعدِ مكانٍ يمكنُ الوصولُ إليهِ.

(عام 2005 الجميلة الاستاذة تضحك لنا على تجمّعنا أو فرديتنا. يصعقنا زوجها بعلاماتنا!.)

في أبعدِ مكانٍ يمكنُ الوصولُ إليهِ، تختارُ لكَ الأقدارُ والصّدفُ، صديقاً أو صديقةً، يكونُ هو الشريك لتلكَ الأحاديثِ الطويلةِ التي ستُلقيها، يسمعكُ جيداً في البدايةِ، يشعرُ بكَ ويبتسمُ لكَ، ثمَّ تتبادلُ معهُ الأدوارَ ويلقي عليكَ أيضاً أحاديثهُ الطويلةَ، فتكتشفُ أنَّ القصصَ متشابهةٌ جداً، كإقياءٍ واحدٍ منْ معدةٍ واحدةٍ.. وتمضي الأيامُ...

وعندما تمضي الأيامُ، وبغضِّ النّظرِ عن مدى العمقِ الذي عشتماهُ تتفرّقُ أنتَ والشّريكُ، (ليس منَ الضروريّ أبداً أنْ يكونَ الخلافُ سبباً، بلْ إنّنا نعيشُ الحياةَ مغمّسةً بالفراقِ.)، ويتحوّلُ إلى ملفٍ تخزّنهُ الذاكرةُ بأرشيفهِ الكاملِ خلفَ إحدى الأيقوناتِ المرئيةِ على سطحِ مكتبِ الدّماغِ، حسبَ التّرتيبِ الأبجديّ..

ثمَّ تباعاً تتجدّدُ الأشياءُ وتتطوّرُ.. فهمكَ للحياةِ ودورها، الكابوسُ، وسيلةُ النّقلِ، الشّريكُ والأحاديثُ وتشابهُ الاقياءِ، حفظُ الذّاكرةِ للملفاتِ، وهكذا... وليسَ بوسعي الكتابةُ أكثر، فالبيوتُ أسرارٌ، لكنْ يتوجّبُ علينا انتقاءَ الملفّاتِ الأجمل على الإطلاقِ، تلكَ التي تستطيعُ الإبقاءَ على سطحِ مكتبِ أدمغتنا بحالةِ إنعاشٍ دائمٍ، رغمَ كونِها مجرّدَ ملفاتٍ محفوظةٍ لا أكثرَ، نعودُ إليها بينَ الحينِ والآخرِ.

(عام 2005 بدأت الفوارق الدراسيّة تظهر، يارا في المقدمة. تلاحقها يَسار. آدم متأخر دائماً.)

كنّا نكتبُ على الأيّامِ أنّنا أولئكَ الهاربونَ من كوابيسهم الحياتيّةِ، مِن ملفّاتهم المخزّنةِ، مِن أدمغتهم ككل، هربنا دونَ أنْ نصادفَ وسيلةً للنّقلِ نستقلّها، فوطئنا الأرضَ بأقدامنا ومشينا، من تاريخِ حياتنا، من جغرافيّتها، وإنسانيّتها، مِن كيميائها وفيزيائها، أخذنا ما نريدُ في حقائبنا. إنّ أكثرَ ما يغرينا في فيزيائها هوَ السّقوطُ الحرّ..

- بَيان، مازلتَ متعباً؟.
- شيءٌ ما يؤلمني، لكنّي لا أستطيعُ تحديدهُ.
- لا بأسَ، ستكونُ على ما يرام.
- شكراً يَسار...
- على ماذا تشكرُني! لقد فعلتَ الكثيرَ لأجلي.
- لا، ما فعلتُه كانَ منَ الواجبِ فقطْ لا أكثرَ.
- لم يكنْ إحساسكَ حقيقيّاً إذاً، أيّها الأحمق.
- هههه، لستُ أحمقاً، بالطبعِ كانَ إحساسي حقيقياً جداً.

– لقد جعلتَني أشعرُ بالخداعِ كعادتكَ الفظيعةِ يا بَيان، بالمناسبةِ، أخبرني أينَ كنتَ ليلةَ الأمسِ؟.
– كنتُ مسافراً.
– في الحلمِ يا عزيزي؟.
– لا، في الليل...
– وكيفَ تسافرُ في الليلِ بدونِ أيسركَ؟
– طلبتُ منهُ أنْ يتوقفَ لديكِ لنأخذكِ معنا، لكنّهُ ما استجابَ.
– من هوَ؟.
– الليلُ!.
– تباً لكَ أيّها الأحمقُ.
– بالعربيّةِ أم بالإنكليزيةِ؟.
– لا، بالعربيةِ حتماً.
– الحمدُ للهِ.
– الحمدُ للهِ كثيراً، الحمدُ للهِ لأنّني عرفتُ بأنَّ لكَ سيدةً.
– لي سيدة!؟.
– نعم، لكَ سيدة، لِمَ كلُّ هذا الاستغرابُ؟.
– لأنّني ما كنتُ أعلمُ بذلكَ. أتقصدين يارا؟.
– لا تعلم!.
– نعم، لا أعلمُ!.
– أنا أيضاً لا أعرفُ اسمها، فاسمها لمْ يُكتبْ على الجدارِ.
– آه، الجدار.
– نعم، الجدارُ يا عزيزي، لمْ أشاهدْ في حياتي أحداً يكتبُ حياتهُ على الجدارِ.
– إذاً لمْ تشاهديني في حياتكِ!.
– يا إلهي، لا أستطيعُ مجاراتكَ في الكلامِ، أخبرني من هي؟.

– سأخبركِ لاحقاً.

للهِ الحمدُ أنَّها وصلتْ إليِ، لمستِ الغبارَ، تنهدّتْ معَ المقاعدِ، أخرجتْ صوتاً يرافقُ صوتَ الرّيحِ في العراءِ، آنستِ الكتبَ في مشاعرهم ووحدتهم، ونظرتْ في المرآةِ قليلاً فأضحكتها رغمَ الكآبةِ. يبدو أنّ الليل قد استغنى عني.

وضاعَ الحرفُ منَ القلمِ أثناءَ كتابة، أصبحتِ الدنيا قطعةَ جوى، وقطعةَ صبابة. هكذا نستطيعُ الحياةَ أكثرَ.. هكذا نصبحُ أكثرَ توقّعاً وأكثَر غرابة..

والبنفسجُ المقدّسُ تحرّكَ مرحّباً، موجةُ فرحٍ عبرتِ البابَ الخشبيّ المتشقّقَ، ثمَّ خدوشَ الرّخامِ الأبيضِ، واستقرتْ.. حسُّ الفناجينِ عادَ، حماسُ الفناجينِ عادَ.. والسّتارُ السّمعمعُ يدخلُ مع الجدارِ في معمعةِ مَن ينظرُ أكثرَ...

استرقتُ السّمعَ لحديثِ الكراسي حولَ طاولةِ عشاءٍ حضّرتْها العيونُ، كانوا يتساءلونَ: أيَّ طعامٍ في حضرتها!! مَن يستطيعُ الأكلَ في حضرةِ تلكَ العيونِ؟!

وفي دهشةِ الشّيطانِ الذي دفعني إلى المطبخِ ذاتَ مساءٍ، أنا ممدّدٌ على فراشِ الأملِ، أتابعُ مشهدَ غزلٍ طالَ إحدى النساءِ، بيني وبينها دمعةُ حزنٍ، كتفُ نجاةٍ، وطلبُ الفؤادِ كيفما جاءَ.. بيننا تُهمٌ شرقيّةٌ، وذاكرةٌ طويلةُ الأمدِ مِن دعواتٍ وجفاءٍ.. بيننا نقطةُ التحوّلِ مِن البشريّ الطينيّ إلى هباء.

قالوا عنّا: لا تحيّةَ ولا سلامَ. قالوا عنّا: إنّنا وُضعاءُ، سفهاءُ، وبؤساء. نحنُ العُنَّسُ الصامتونَ، أيا ليتهم كانوا يعلمونَ.. كمْ مرّةً حلمنا بالحبِّ، وقلنا: أننا جيّدون... كم مرّةً فُقدنا وفَقدنا، وقلنا عن حالنا: نحنُ جيّدون. كم مرّةً نامَ الخوفُ على فراشنا، وقلنا: نحنُ جيّدون.

تغلغلَ الكرهُ في لحمنا، ونحنُ جيّدون، جفَّ الدّمعُ في عيوننا، ونحنُ جيّدون، رُسمَ الجرحُ من عيوبنا، ونحنُ جيّدون، أطفالُنا، أطفالُ المهنِ والحجارةِ، ونحنُ جيّدون، لا أعرفُ إلى متى سنبقى نقولُ: إنّنا على أحسنِ ما يكونُ، أو.. "نحنُ جيّدون".

أصبحنا نسافرُ في الحلمِ، في اللّيلِ، في الطرقِ المُتعبةِ، ونحنُ جيّدون. موتانا الأحياءُ أكثرُ منَ الأحياءِ والأمواتِ، ونحنُ جيّدون. أصبحنا مجرّدَ أجسادٍ تتحرّكُ في الظلِّ واللّا ظلِّ، ونحنُ جيّدون. نخافُ المشاعرَ والحديثَ، والخلود؛ فكرةٌ مرعبةٌ تبدو في ملامحنا، ونحنُ جيّدون. قالوا عنّا أكثرَ مما قرأوهُ في كتبهم، لم نُسأل مرّةً: هلْ حقاً نحنُ جيّدون؟. صدقتَ أيّها الكرسي، لا أحدَ يستطيعُ الأكلَ في حضرةِ تلكَ العيونِ.

انتهى المشهدُ، وما انتهى التّعبُ.. هذهِ عاداتُ المشاهدِ العربيةِ.. لبسنا لحمَنا نخفي بهِ تشوّهاتِنا، وخرجنا في شارعِ السّوقِ القديمِ، لا لنتسوّقَ بلْ لنعترفَ أنَّ المحبّةَ أقوى من أجهزةِ الطبِّ، وأقوى مِن صياحِ التردّدِ..

مررنا بجانبِ عرباتِ الفولِ، وقفنا أمامَ المحالِ التّجاريةِ، سألنا عَن ثمنِ بعضِ الذّكرياتِ.. شممنا رائحةَ الفطائرِ والقهوةِ التي لا تحبُّ هي؛ أخذها هناكَ في الطريقِ، رغمَ تنغّمها الدائمِ برائحتها، وكعادتها قالتْ: إذا لم أصنعها بيدي لا أستطيعُ الاستمتاع بها.

أمسكتْ يدي بشدّةٍ حينَ أصبحنا بجانبِ المطعمِ، كي لا أحاولَ إقناعها بسرقةِ بعضِ الوقتِ هناكَ، وسرقةِ بعضِ الدخانِ هناكَ، وقالتْ: حتّى لو كانَ الجمرُ على أحسنِ ما يكونُ، أحوالنا لا تسمحُ لنا فعلَ هذا كلّما أردنا.

بجوارِ روائحِ العطورِ وقفتْ، بدتْ وكأنَّها تشمُّ رائحةَ العطرِ للمرّةِ الأولى في حياتها. أخبرتُها ألّا تشتري العطورَ الثقيلةَ فهيَ ليست بحاجةٍ لها، ثمَّ أردفت: إذا كانَ لا بدَّ لكِ أن تشتري، فاشتري العطورَ الرّخيصةَ، التي لا تدومُ إلا دقائقَ معدوداتٍ. إنّنا نحبُّ التعطّرَ بمعانقةِ الرّوحِ لا العطرِ.

(عام 2005 وجود الأصدقاء. يجعلنا نحبّ الأمكنة والتواجد فيها.)

في شارعِ الحبِّ، بدونا كعاشقينِ متلذّذينِ بأثرِ قواريرِ الخمرِ المفرغةِ على ثغرينا، ضحكنا وضحكنا حتّى الغشاوةِ، والدّمعُ يضفي السّحرَ على العيون والأجفان. ونظراتُ الحسدِ مِن حولِنا، ومِن فوقِنا، ومِن تحتنا، حتّى القمرُ رمانا بنظرةٍ غاضبةٍ.

- لمْ تخبرني بعدٌ يا بيان.
- بماذا لمْ أخبركِ حتّى الآنَ؟.
- أيّها الشقيُّ، كأنّكَ لا تعلمُ بماذا لمْ تخبرني.
- لا واللهِ لا أعلمُ، بماذا لمْ أخبركِ؟.
- بسيّدتكَ المكتوبةِ هناكَ على الجدارِ الأسودِ يا عزيزي.
- يا لغبائي، كيفَ كتبتُها على الجدارِ الأسودِ!.
- نعم: أنتَ غبيٌّ يا صديقي العزيزِ.

– لماذا؟.
– لأنّكَ لمْ تخبرني حتّى الآن، وربما لأنّكَ لم تتزوجْ رغمَ كلِّ الفرصِ التي أتيحتْ أمامكَ حبَّاً فيكَ.
– كأنّكِ تريدينَ التخلّصَ مني؟.
– مممم، لا أظنُّ، لكنْ لا تغيّرِ الحديثَ الآنَ وأخبرني من هيَ؟.
– من المؤسفِ أنني لا أملكُ أيَّ شيءٍ أخبركِ بهِ!.
– كيفَ ذلكَ؟.
– لا أعرفها.
– لا تعرفُها!.
– نعم، لا أعرفُها، لكنّ بعضُ الغرباءِ تلتصقُ ملامحهم في صورِ الذّاكرةِ، على أثرِ ابتسامةٍ ولدتْ عن غيرِ قصدٍ أثناءَ التقاطِ العيونِ للصّورةِ.
– ابتسامةٍ وُلدتْ عَن غيرِ قصدٍ!؟.
– نعم، هذا كلُّ ما في الأمرِ!.
– لقد احتفظت بتلك الصّورة أياماً طوالَ، رغمَ أنّها عَن غيرِ قصدٍ. فكيفَ لو كانت مقصودةً حقاً؟.
– لا أعلمُ، لكنّي حينها قلتُ في نفسي: لو أنَّ امرأةً مثلها تكونُ معي، لتغيّرتْ معالمُ الحياةِ كلّها، ثمَّ التفتُّ إلى طريقي وأكملتُه...
– يا إلهي.. بيان، ليسَ منَ الضّروريِ أنْ تخبرني كلَّ شيءٍ، حتّى لو كنّا فيما نحن فيهِ، فنحنُ النساءُ لا نستطيعُ ألّا نغارَ أبداً، إمّا نغارُ مِن أو نغارُ على، لكنْ لا يمكنُ ألّا نغارَ أبداً.
– ليسَ من الضروري أنْ تتساءلي عَن كلّ شيءٍ، لكنْ اعذريني هذا كلُّ ما أملكهُ عَن تلكَ السيّدةِ، الصّورةُ التي احتفظتُ بها، والجملةُ التي قلتها، أحببتُ أنْ ألقيهِ عليكِ.

- ممم، عليكَ ألّا تجزمَ في أنَّ تلكَ الابتسامةِ كانتْ عَن غيرِ قصدٍ، فالنّساءُ الشّرقياتُ لا يبتسمنَ أبداً عَن غيرِ قصدٍ.
- لا شيءَ في الشّرقِ كلّهِ؛ يبتسمُ عَن غيرِ قصدٍ، كلُّ عواصمِنا حزينةٌ، كلُّ مقدّساتِنا حزينةٌ، كلُّ حيطانِنا حزينةٌ، كلُّ شيءٍ بكلِّ ما للكلمةِ من معنى.

(عام 2005 نحن دائماً في الصفّ الاول. عندما يكون المحاضر فينا هو الاستاذة جميلة.)

****

(٣)

٢٠١٥

كنتُ أتصالحُ مع قلبي، وكأنّنا كنّا معظمَ الوقتِ على حافةِ فراقٍ، ثمَّ أخرجُ مِن نفسي، أنظرُ في محيطي، أرى الوجوهَ لا أصحابَها، وأعترفُ لهم بأنّني أعلمُ أنّهم سيرحلونَ، وأنّي بدأتُ أحضّرُ نفسي للرّحيلِ عنّي.

في حياتي الشّخصيةِ، عرفتُ الكثيرَ منَ الحبِّ، عشتُ فيهِ ومعهُ كثيراً، جرّبتُ أغلبَ تعاريفهِ التي اطّلعتُ عليها، دافعتُ عنهُ حتّى خسرتُ ثقةَ الأجيالِ التي تكبُرني، وأصبحتْ نظراتُ رفاقي نظراتِ اشمئزازٍ فقط، تمسّكتُ فيهِ جدّاً حتّى أدمى تمسّكي هذا أطرافَ أصابعي..

فأصبحتُ هشّاً وقاسياً في نفسِ الوقت، واضحاً وغامضاً، قوياً وضعيفاً، وكأنَّني جزءان، كلٌّ منهما يناقضُ الآخرَ. وما الدّنيا إلا بضعةُ متناقضاتٍ تعيشُ معَ بعضِها البعضِ بسلام مرتجلٍ.. هكذا نولدُ منَ المحبّةِ، بلا أقنعةٍ، هكذا تُعيدنا المحبّةُ حقيقيينَ أكثرَ... عندما أتكلّمُ عنِ المحبّةِ أتذكّرُ قولَ أحمد شوقي: "مضناكَ جفاهُ مرقدهُ"

لكنّي لا أعرفُ إلى أيِّ حضنٍ أنسبهُ بعدَ كلِّ هذهِ السّنواتِ.. حتّى يَسار تحبُّ هذهِ المقولةُ، وأيضاً لا تعرفُ لِمن تنسبها.

(عام 2005 انتهى العام الدراسي الأول لنا. جميعناً انتقلنا إلى السنة الثانية. وبدأت العطلة الصيفية.)

كلُّ هذهِ السنواتِ مرّتْ ونحنُ نخوضُ صراعَ الحبِّ في الظلِّ، بعدَ صراعِ البقاءِ، نحنُ أتعسُ الأجيالِ في وطننا على الإطلاقِ، نحنُ أولئكَ الذينَ كبروا على صوتِ الرصاصِ، والمدافعِ، والصّواريخِ، والخوفِ، كبروا في رهبةِ الموتِ الدّائمِ التي تحيطُ بهم من كلِّ جانب، بَدونا كشخصٍ يرى نقطةَ القنّاصةِ الحمراءَ على صدرهِ، فيتحرّكُ محاولاً تفاديها ولا يعلمُ لماذا! نحنُ النّاجونَ من الحربِ، تُركنا لنعيشَ عمرنا كلّهُ في حروبٍ من أنواعٍ أُخرى، كحربنا مع أنفسنا...

كلُّ هذهِ السّنواتُ مضت دونَ أيِّ عراكٍ يثبتُ لنا قوّتنا أو ضعفنا، كلُّ الأشياءِ كانت قدراً...

(عام 2006 إذا وجّه القدر لأحدنا دعوة لتناول وجبة وجع؛ نلبّي جميعاً دعوته.)

(عام 2006 لم تنتهي اللقاءات برغم عطلتنا. وتشهد على دعسات أقدامنا الشوارع.)

جميعنا كتّاب، لا أعرفُ مَن هم الذينَ يقرؤونَ. جميعنا نحلفُ بالإله وكتبهِ السماويّةِ وأديانهِ وأنبيائهِ، لا أعرفُ مَن همِ الذينَ ينافقونَ... جميعنا أطباءُ وأساتذةٌ ومهندسونَ. فالبسي كعبكِ العالي، ولا تقبلي أقلَّ مِن علوٍّ يساوي تسعةَ سنتيمتراتٍ.. لأنّنا نستاءُ مِن صاحباتِ الكعاب العاليةِ، ونتمنّاهنَّ في آنٍ معاً..

البسي كعبكِ... ثم تعالي إليَّ، فقدْ تركتُ بابَ حجرتي مفتوحاً، وازمهرّتْ حواشي الليلِ إحياءً لِذكراكِ.. أنا رغمَ البردِ المشتدِّ في

أضلعي، ألتحفُ نفسي، لأراكِ، لا لأنامَ ولا لأنساكِ.. فيكِ يلحدُ القلبُ عن الأحيحِ والإرباكِ، وما يرضي القلبَ يا يَسار إلا رضاكِ..

هلمّي إلى ليلي، لنشربَ نخبَ قبيلتِنا، ونكتبَ رسالةً للقادمينَ والقادماتِ. بظنّنا أنّ العالمَ سيقرأُ رسائلنا كلّها، حتّى المقدّماتِ. فيعرفُ بنا، ويقدّرُ أحوالنا، ونحنُ نعلمُ أنْ لا أحدَ قبلَ الآن قرأَ رسائلنا. اقدمي إلى ليلي، أحياناً تكونُ أجملُ من الحقيقةِ... بعضُ الجملِ الكاذباتِ...

وحبن تأتين إليّ اسكبي لي كأساً منَ الحليبِ المهملِ، فقد ملَّ منّا الانتظارُ..
غداً يَسألني الأستاذُ: لماذا تأخرتَ عنِ الحضورِ؟. فأتعثّرُ بالكلماتِ، ولا أعرفُ ماذا أقولُ. ثمَّ يوبّخُ قلبي وروحي ووجهي، فأجرّبُ إجابةً مثلَ: كنتُ متعباً، أو كانَ الطريقُ كلّما مشيتهُ يطولُ..

ويعودُ ليوبّخُ قلبي وروحي ووجهي، فأمسحُ رذاذَ التوبيخِ عن وجهي وأهمسُ في أذنيهِ: لقدْ أتيتُ رغمَ التأخّرِ، رغمَ الصّعوباتِ، رغمَ أنّ الحليبَ قد أخذَ موضِعاً على ثغري المبلولِ.. إنّي بشريٌّ، لستُ بأطرافٍ كأطرافِ الخيولِ.

اسكبي لي كأساً منَ الحليبِ المهملِ، فقدْ ملَّ منّا الانتظارُ.. أما آنَ لي أنْ ألتقيَ بالنّهدِ المدلّلِ؟ وأغفو.. لا بأسَ عليَّ، لكنْ دونما انتظارٍ..

غداً يقولُ لي الصديقُ: أنتَ ثقيلٌ، موهومٌ، مغرورٌ، مخبول.. فأردُّ: أنا أبسطُ من كأسِ ماءٍ منسيةٍ بجوارِ أسفلِ الجدارِ، لكنني لا أعرفُ كيفَ تُطربُ الآذانُ بالكلامِ المعسول، ولا أجدُ فرقاً بينَ الدّالِّ والمدلول. فيقولُ لي: أنتَ صعبٌ، وتفتقدُ الإحساسَ. ثم يولّي وجههُ عنّي، فأكملُ:

سامحني إنْ كنتَ تراني صعباً، أو مزاجياً، فأنتَ لا تعلمُ كم أبذلُ منَ الجهدِ لأبدو أمامكَ طبيعياً، ولا تعلمُ كيفَ أعبرُ الليلَ أو كيفَ أتركهُ يعبرني، ولا تعلمُ كم مرّةً مشيتُ إليكَ لأقولَ ما جال في خاطري وما يجول، ثمَّ أتراجعُ في اللحظةِ الأخيرةِ، فالكلمةُ التي ربما على لسانكَ تقالُ، تبقى في حلقي أياماً طوال... ولا تعلمُ شيئاً عنِ الطريقِ الذي كلّما مشيتهُ أراه يطول.

اسكبي لي كأساً منَ الحليبِ المهملِ، قدْ ملّ منّا الانتظار.. وصارَ لا بدَّ لي منَ السكْرِ، فأنا لا أشبهُ جائزةَ الأوسكارِ. غداً يوقفني أحدُ المارّةِ، ليحكي لي قصّةَ التضخّمِ، والتغيّرِ، والدّيونِ، والأسعار.

ثمَّ يسألني: من أنتَ؟. فأقول: نحنُ القادمونَ منَ المجهول.

ويوقفني الآباءُ، بذريعةِ القبلِ، أو الفشلِ، أو الخجلِ، أو الأملِ، بذريعةِ الغرابةِ والغربةِ والجنونِ، يحاسبونني على الماضي والحاضرِ وعلى مستقبلي المجهول.

ويوقفني الزمانُ، لأنّي ثالثُ الثّلاثةِ، لأنّي كتبتُ محاولةَ موتي الأخيرةِ، على ظهرِ وردةٍ؛ فظنّتْ أنَّ الوقتَ انتهى، والوقتُ كالطّريقِ كلّما مضى يطول..

اسكبي لي كأساً منَ الحليبِ المهملِ، او اسكبي ما شئتِ إنّي الآنَ شاربهُ، مهما بلغَ في المرارِ. قد طردني الأستاذُ، غادرني الصّديقُ، وتقيّأ عليّ المارّةُ والآباءُ، والزّمانُ... أصبحتُ أكرهُ كوني إنساناً، كما أكرهُ الأفقَ المحدودَ.. كما أكرهُ كلَّ مَن قالَ لي يوماً أنَّ بُرازَ الطّيورِ رِزقٌ! أصبحتُ أكرهُ معلّمي الذي سخرَ منّي حينَ قلتُ لهُ: ربما أكونُ مثلكَ. لا لا أريدُ أنْ أكونَ مثلهُ أبداً، ولا أقوى أن أكونَ مثلهُ، وهو

يمشي كالطّاووسِ بيننا، متناسياً أنهُ لولانا نحنُ الذينَ كنّا تلامذتهُ آنذاكَ، وزملاءَهُ اليومَ، ما كانَ بكلّ هذا الوقارِ...

(عام 2006 بدأت المشكلات تظهر بيننا. والزملاء يمرّون فجوات من بُعدنا.)

اسكبي لي لتراً منَ الكحولِ، وامزجيهِ بترياقكِ، فقد أصبحَ كلُّ ما في داخلي يحتاجُ المطهّراتِ والمعقّماتِ والمسكّناتِ والمسْكراتِ. أحتاجُ شيئاً يكونُ بكلّ هذهِ الأفعالِ؛ لذا اتركي لي ترياقكِ لوحدهِ... حتى أستطيعَ إخباركِ كمْ كنتُ أحتاجكِ، وارتمي عليكِ، في الأحضانِ.. لأخبركِ كمْ غفوتُ منتحراً بوساوسي، كم بلّلتُ وسائدي وملابسي، كم عانيتُ مع أمراضي وزلّاتي، كم رجوتُ اللهَ إنقاذي، كم كتبتُ لكِ منَ الرسائلِ وأحرقتها، لأنّي ما استطعتُ إرسالها، وكم رتّبتُ لكِ منَ الكلماتِ التي أحرقتني، لأنَّي ما استطعت قولها، وكم نظرَ إليَّ الغرباءُ بشفقةٍ، وكم سخروا مني، وألقوا عليَّ ما لا أطيقهُ منَ الصفاتِ، كم آلموا كبريائي وحاولوا تمزيقَ حبّي لنفسي، كم حاولوا امتلاكي، وداسوا على خرابي..

فأنا إنْ بقيتُ بعقلي لا أستطيعُ التحدّثَ عن هذهِ الأشياءِ. لأنّني رجلٌ، وفي حياتنا لا يمكنُ للرّجالِ فعلُ هذا، لا يمكنُ لنا أن ننتظرَ قبلةً، فتعالي إليَّ لأنامَ نومَ الأطفالِ الأشقياءِ، وأستيقظَ استيقاظَ الذينَ أراحتهم السماءُ. قدِ افتقدتُ هذا الشعورَ بعدَ ولادتي مباشرةً.

(عام 2006 لا أملك الوسائل اللازمة لفرش طريق حبيبتي بالورد. كما يفعل القرين.)

– لماذا لم تتزوج بَيان؟.
– لا أشعرُ أنّني زوجٌ جيدٌ.
– لكنّ الكثيراتِ أحببنكَ.
– الحبُّ على اختلافِ أنواعهِ أجملُ من أيّ شيءٍ آخرَ، منَ الممكنِ أن نعيشهُ ونعيشَ فيهِ، لكنهُ لا يغني عن الخبزِ.
– ولكن أنتَ قادرٌ على جلبِ الخبزِ!.
– لا أريدهُ خبزاً عادياً، أريدهُ بأفخرِ أنواعِ الشوكولا.
– يبدو أنّكَ تأثرتَ بالفتياتِ، إذا جلبتَ الخبزَ بالشوكولا ستكونُ زوجاً جيّداً؟.
– لا، ليسَ لي، إنّهُ لها، ولا أقصدُ بهِ الخبزَ بحدّ ذاتهِ.
– هاا، حسناً.
– عشتُ حالاتٍ كثيرةً جداً معهنَّ، لكنّي لم أشعر بشيءٍ يدفعني لخطواتٍ كالزواجِ، كنّا دائماً ننتهي ببساطةِ ماءٍ مسكوبٍ على الأرضِ.
– لا بدَّ من أنَّ بعضَ الأحاسيسِ التي وُجهتْ إليكَ كانت حقيقيةً.
– ربّما، لكنّي لم أشعر يوماً أنّني أريدُ تلكَ الفتاةِ دائماً!.
– لازلتَ تستمتعُ بالوحدةِ؟.
– مهما كانت آلامُ الوحدةِ، إلّا أنّها ممتعةٌ، ككلِّ الأشياءِ الأخرى التي نعيشها، الحبُّ، النسيانُ، وهكذا.
– لكنّكَ..
– لكنّني ماذا؟ أنا نتيجةُ حبٍّ قتلتهُ الأقدارُ، لا أدّعي التضحيةَ، ولا أصفُ نفسي بالضحيّةِ، وأنتِ على علمٍ كاملٍ بذلكَ.
– أعلمُ جيداً، لكنْ عليكَ أن تكسرَ هذا الحاجزَ.

– إنّنا نقضي أعمارنا في كسرِ الحواجزِ، لكن في الحبِّ، على الحواجزِ أنْ تُكسرَ بقلوبٍ أخرى، لا بقلوبنا الضّامرةِ.
– هل تشعرُ بالنّدمِ لأنّكَ أحببتَ؟.
– كنتُ محظوظاً لأنّني قُتلتُ بأوائلِ تجاربِ الحبِّ الخاصّةِ بي، فأصبحتْ إعادتي إلى الحياةِ صعبةً جداً.
– كيفَ نجحتَ في حياتكَ، أمامَ كلِّ هذهِ المعاناةِ؟.
– فصلتُ المشاعرَ والأحاسيسَ الشخصيّةَ عن كلِّ شيءٍ، عشتُها وحدي، وأكملتُ الطّريقَ بفكرةِ أنّنا لا يمكنُ أن نمتنعَ عن شيءٍ لأنّنا فشلنا في شيءٍ آخرَ.
– لكنكَ لم تفشلْ، لا أعرفُ أنّكَ فشلتَ سابقاً بأيِّ شيءٍ.
– فشلتُ خلفَ الكواليسِ.
– ما هوَ الحبُّ بيان؟.
– الحبُّ هوَ تلكَ اللحظةُ الفاصلةُ بينَ الحياةِ والموتِ. لكن لا يوجدُ تعريفٌ واحدٌ للحبِّ، للحبِّ تعاريفٌ بعددِ الأحياءِ الذينَ يعيشونَ على هذهِ الأرضِ. كلُّ واحدٍ منّا يعرّفُ الحبَّ على طريقتهِ وبأسلوبهِ، وكلُّ التّعاريفِ تنتهي.
– ولكنّ الحبّ.....
– لا شيءَ لا ينتهي يا يَسار، ليسَ هناكَ شيءٌ أبديٌ يبقى طوالَ العمرِ إلّا السّماء وما خلفها، حتّى إصبعُ قدمكِ الأصغرِ يتغيرُ ظفرهُ.
– صحيح.
– لكن البشرَ في الحبِّ، وبطبيعتهم لا يكتفون.
– الحبّ إدمانٌ!.
– حتى مدمنو المخدراتِ، لا يبقون على سيرومِ مخدّرٍ طوالَ الوقتِ.

على جدارِ خواطري الأسودِ، كتبتُ: لقد حرّكتْ يسارُ كلَّ براثنِ حزني، حرّكت مفاصلي التي لم أستعملها منذُ زمنٍ ولم تستعملني. عموماً، لا أتمنّى أن يكونَ تحريكها هذا، مقدّمةَ فقدان.

اتركيني على كتفكِ، لا أريدُ الرّحيلَ، عن شامةِ البطنِ، عن شامةِ النّهدِ وشامة الفخذِ. لا أريدُ الصّهيلَ، لا صوتَ لي، ولا أجيدُ منطقَ الموسيقى لأصرخَ بهِ، ولا أعرفُ موعدَ الموتِ لأتفاداهُ، أو ألحقَ بركبِ الحياةِ قبل أنْ يمضي..

اتركيني هكذا مُعلّقاً بينَ الشفتينِ اللتين أحبّهما الآنَ، لا أودُّ الدّخولَ إلى العمقِ كي لا تطحنني الطّواحنُ، ولا أريدُ الخروجَ فأضيعَ معَ الغبارِ، ربّما لا أحبّهما غداً، ربّما لا أكونُ حيّاً أو يحلُّ عليهما الجفافُ، فأموتَ عطشاً، قبلَ أن ينقلاني إلى شفتينِ لا جفافَ فيهما...

اتركيني على أطلالِ الراحلاتِ أكتب ألّا شيءَ أنجدني كالتّاءِ، ولا شيءَ دمّرني كالتّاءِ، وما كانَ التّأنيثُ ساكناً يوماً إلّا في حُججِ الإعرابِ، فإن كانَ لابدَّ لنا منَ التّسليمِ بحُجّةِ الإعرابِ، سنسألُ المُعربينَ أنّى لساكنٍ يحرّكُ كلَّ الأشياءِ السّاكنات؟

لقد أخذَ العشقُ لُبّي، ثمَّ جلسَ علَيَّ، وجّهَ قدميهِ على ركبتَيّ، وركبتيهِ على راحتَي، ثبّتَ بيديهِ رأسي، ومنذُ ذلكَ الحينِ وحتّى الآن، مازالتْ أنيابُ قُبلهِ متشبثةً على شفتيّ..

(عام 2006 أحبّيني لأنضج أكثر. كي أنبت من بين صخرتين. لكن لا تقصي لي أجنحتي بعدها.)

لا أعرفُ كيفَ تُجرى قيصريّةُ الكلماتِ التي تولدُ في حضرةِ اغتصابٍ، لذلكَ لا ولن تولدَ الكلماتُ كلها، ولا أستطيعُ الاستعانةَ بأحدِ أصحابِ الاختصاصِ لأنّهم سيسخرونَ منّي "حتماً"، وبعيداً عنهم، هذي إحدى طبائعنا العربيةِ غالباً، التي احتراماً لا أستطيعُ الجزمَ فيها أو التعميمَ..

ها أنا الآنَ للبيعِ مُغتصَباً، لكن لا ندوبَ لديّ، والمشتري.. أحدُ الكواكبِ فقط، حتّى وإن كانَ أكبرها، سيبقى أحدَ الكواكبِ لديّ. فمن هو ذا الّذي يشتري خبزاً يابساً ويطفئُ بالإسفنجِ لهباً!؟ من هو ذا الّذي يشتمُ لأجلي العشقَ والأحلامَ، ويقتلعُ الأنيابَ من على شفتيّ..

أو ينقلُ عنّي كتابي لمن أخبرني ذاتَ يومٍ بفشلي في التّعبير.. ينقلهُ لأولئكَ الذينَ ضحكوا كثيراً على تلعثمي بالكلماتَ. ثمَّ يصبُّ على ترابِ خرابي صدمتهم، فأقومَ من التّابوتِ، أنا الغريبُ الحبيبُ الحزينُ، صاحبُ قلبِ الأرنبِ ناقصِ النّبضاتِ، والخيالُ المريضُ مُرهقُ اللحظاتِ... (المعذرة، لقد طلبتْ منّي أمّي أن أنظّفَ لها السجادَ، لذلكَ سأتوقّفُ هنا وأذهبَ الآن.)..

حقاً، أعمالهنّ في المنازلِ متعبةٌ.. ولا تملّ الأمهات من التوصيات. ولا نملّ نحن "البنين" من التذمر. لا بأسَ لقد انتهيتُ.

اتركيني أنظّفُ السجّادَ لأمّي حينَ ألتقيها، فأنا لا ألتقي بها كثيراً.. أو دعيني أقضي ليلي على فراشِ التذمّرِ، مع آهاتِ ولوجِ الحسراتِ بي.

– حتى مدمنو المخدّراتِ، لا يبقون على سيرومٍ مخدّرٍ طوالَ الوقتِ، ما الذي جعلكِ تنفصلينَ عن زوجكِ؟.
– الحبُّ.
– كيف؟.
– لا أعرفُ كيفَ.. تحوّلنا إلى طرفينِ باردينِ، مملّينِ.
– أنا أعرفُ.
– أخبرني!.
– الحبُّ شيءٌ تطوعيٌ، لا يمكنُ أن يكونَ قسرياً، وهذا لا يمكنُ في العلاقةِ الزّوجيةِ، ثمَّ إنّهُ وجهانِ لعملةٍ واحدةٍ، ولا يمكنُ لأوراقنا النّقديةِ أن تبقى طوالَ حياتها على وجهٍ واحدٍ، إلا عندما تكونُ في أحدِ الجيوبِ التي لا نستخدمها إطلاقاً.
– بالّضبطِ.
– في الزّواجِ، عليكِ أن تكوني محبّةً دائماً، لا يمكنكُ رفضُ الطرفِ الآخرِ ولا لأيّ سببٍ، ممنوعةٌ أنتِ من النّظرِ، أو الابتسامِ، أو التّحدّثِ، أو الإعجابِ، وأحياناً حتى إبداءُ الرأي، وخاصةً في الشّرقِ، كلُّ ما تفعلينهُ لهُ سببٌ، ودائماً ما يسألونكِ: ما السبب؟. إذا كانَ لكِ إجابةٌ أو لم يكنْ لا فرقَ لديهم، فالنتيجةُ واحدةٌ.
– وما هي؟.
– هيّ أنّكِ خرجتِ عن العاداتِ وعن التّقاليدِ، وبالتّالي أنتِ خائنةٌ.. هي أنّ العيبَ أصبحَ يلبسكِ بالكاملِ، لا أعرفُ العلاقةَ الوطيدةَ التي يصنعها المتكلّمُ بين ذاكَ الخروجِ وتلكَ الخيانةِ، لكنّهُ (المتكلّمُ) لن يتوقّفَ إلّا عندما يربطهما بالعيبِ.
– لكنّنا نتغنّى كثيراً بالحبِّ.
– إنّ العملَ الذي تقدّمهُ الكلماتُ، هو إكمالُ ما نشعرُ بنقصانهِ، أو التعبيرُ الذي لا نستطيعُ قولهُ، أو الشعورُ الذي لا نعيشهُ وهكذا.

- ههه ذكّرتني بالمتمماتِ الغذائية.
- هي تشبهها تماماً.
- ولكن بَيان هذهِ أفكارٌ شخصيةٌ، أنتَ بهذهِ الأفكارِ لن تتزوّجَ أبداً.
- لكنّها حقيقيةٌ، وبالرّغمِ من وجودها، سأتزوّجُ يوماً ما فلا تقلقي.
- لماذا تريدُ الزواجَ بَيان؟.
- يَساااار!.

الخيانةُ! أو الشّكُّ أو الشّكُّ بالخيانةِ!! تلكَ الأحاديثُ هي طعامنا، وشرابنا، والرائعُ فيها، أنّها تُختمُ دائماً ب "واللهُ أعلمُ"، يا إلهي، كم نحنُ مؤمنونَ. في كلِّ الأحوالِ لا تحزن..

تصالحْ مع قلبكَ دائماً، حتّى لو كنتَ على حافّةِ فراقٍ.. واخرجْ من نفسكَ، لتنظرَ في محيطكَ، وتكتشفَ أنّك ترى الوجوهَ لا أصحابها، ثمَّ اعترفْ لهم أنّك تعلمُ برحيلهم، وأخبرهم أنّكَ بدأتَ بالتّحضيرِ أيضاً لترحلَ معهم..

(عام 2006 المقارنة تجعلنا أقل مما نحن. كم هي مؤلمة!.)

أمّا الحبُّ، فلا تعتقد مهما عشتَ فيهِ، أنّكَ تعرفهُ..
ما نعرفهُ، هو النّتيجةُ لإسقاطِ الحبِّ علينا كأشخاصٍ، أو على حياتنا، أو علاقاتنا، انظرْ في التّاريخِ، وابحثْ عمّا قالتهُ القاماتُ الكبارُ في الفلسفةِ أو الأدبِ، سترى اختلافاً فظيعاً وأحياناً يضيّعكَ تناقضهم..

ولا تنسى، سَكِينةُ الساعةِ الرابعةِ فجراً، تدخلُ مِن صدركَ... من ظهركَ، ومن تحتِ إبطيكَ... من تحتِ قدمكَ اليُسرى ومن أعلى كتفكَ الأيسرْ، إلى قلبكَ.. لا أعرفُ بأيّةِ قدرةٍ كانت تفعلُ هذا!! لكنّني كتبتها لأذكّرك بها.

(عام 2006 تجفّفني فكرة أن نفترق.)

****

(٤)

أيلول ٢٠١٥

افتحوا البابَ، لقد وصلَ أيلولُ..
جاءَ متناسياً أنَّني أكرههُ، وأحبُّ فيهِ تلكَ الرّوحُ التي تفيضُ على البشريّةِ كاملةً دونَ تمييزٍ أو استثناءٍ.. أيلولُ العادلُ الكئيبُ الذي لا يعرفُ المقاومةَ أبداً. أيلولُ، ورقٌ أصفرُ اللّونِ بينَ الأقدامِ، تقيّؤاتِ الذّكرياتِ علينا وعلى الرّوحِ.. سربُ غيمٍ مستفزٌّ جدّاً، كالغيثِ الدّامعِ في صدرِ السّماءِ المختنِق باقٍ..

كنتُ أنامُ كثيراً لأنقذَ نفسي منَ الحياةِ! لا شيءَ يُعجبني، لا شيءَ يدفعُني.. ركودي طغى على كلِّ شيءٍ، واللّامبالاةُ أصبحتْ أساسَ تعاملي مع كلِّ شيءٍ.. حتّى جداري الأسود بدأ سواده آنذاكَ.. وكعادةِ السّنواتِ لا شيءَ يستطيعُ إيقاظي بعدَ أيلولَ إلّا اتّفاقُ كوانينَ على إمراضي...

(عام 2006 أحس بأنّها بعيدة. بُعد الموت عن البشر.)

"أحبّكَ" قالتْ لي، ثمَّ سكتتْ! في مشهدٍ صادمٍ للغايةِ!

نحنُ ندفعُ أثماناً باهظةً جدّاً، للقراراتِ التي لم تكنْ صحيحةً لكنّها في حياتنا، لا يهمُّ أنْ نكونَ نحنُ أصحابُ القرارِ، لكنّنا بالتّأكيدِ أحدُ أجزائه بشكلٍ أو بآخر. لذلك علينا أن ندفع.

أجبتها بصمتٍ تامٍّ يفوقُ صمتَ المقابرِ، لا كلماتٍ الآنَ لأقولها، توقّفَ دمي عن الجريانِ، ووقفتُ أنا بجمودٍ كاملٍ، ثمَّ سقطَ جسدي على مقعدٍ من صرخاتٍ.. والهديةُ في يدي، مِن حبيبتي، أو منَ الفتاةِ التي أكونُ حبيبَها الآنَ.

المشهدُ الرابعُ: ميمنةَ المشهدِ: فتاةٌ مِنَ الحظِّ العاثرِ، خرجتْ، لوّحتْ لكَ منَ الأفقِ، وجهُها أبيضٌ، قلبُها أبيضٌ، جسدها ممسّدٌ، نظرتْ إليك بحبّ، فخجلتَ، وجاءَ الجوابُ بالرّحيلِ، واختفت في ميسرةِ المشهد.

مرّتِ الدّقائقُ هكذا، أنا أنظرُ في كلِّ شيءٍ، في الأرضِ والسقفِ والجدرانِ والمقاعدِ والطاولاتِ والتّلفازِ والحلوى والكؤوسِ، وهي تحدّقُ بي حتّى ظننتُها تعدُّ لي الأهدابَ..

كانتْ تطالبني كثيراً أنْ أمنحَ نفسي فرصةً للحبِّ أو للعيشِ، وكنتُ أجيبُها دائماً أنّني فكّرتُ أيضاً في الانتحارِ، لطالما قلتُ لها: الآن أفكّرُ جدّياً في الانتحارِ. لا أنا فهمتُ أنَّ فرصةَ الحبِّ أو العيشِ هيَ فرصتها أو قلبها، ولا هيَ فهمتْ أنَّ تلكَ الفرصةَ تعني لي الانتحارَ.

وتقولُ لي دائماً: لا بدَّ أنْ تجدَ حضناً يستطيعُ حملَ طفلٍ بجسدٍ طولهُ مئة وخمسة وسبعين سنتمتراً، فأقولُ لها: الكثيرونَ يتمنّونَ نظرةً أو ابتسامةً من وجهكِ "نتالي". لا أنا عرفتُ أنَّ الحضنَ المذكورَ هوَ حضنها هيَ بالذّاتِ، ولا هيَ عرفتْ أنَّني أدلُّها على الطّريقِ الأفضلِ لها..

"فاجأتكَ؟" سألتْني، ثمَّ ضحكتْ، ليستِ المشكلةُ في أنَّها ضحكتْ، فضحكتها تهمُّني، بل وتعنيني، في ذلك لا تهمُّ الصّفةُ، حتّى لو جعلتُ

من نفسي أضحوكةً لها. يجبُ أنْ نسعى جميعاً لنرى كلَّ الوجوهِ ضاحكةً، ولو تكاتفنا لتحقيّقِ هذا الحلمُ..

(عام 2006 شمس الأندلس أشرقت على وجهي. لا أحد ينادي اللّيل.)

المشكلةُ كانتْ أنَّ ضحكتَها تعني تحوّلي، من بَيان الرقيقِ الهادئِ إلى بَيان الذي لا يشعرُ ولا يملكُ إحساساً، بالمختصرِ كانت تعني تحوّلي إلى بَيان المجرمِ أو بَيان الحجرِ الأصمّ حتّى!. ثمّةَ تحوّلٌ شخصيٌ لا يمكنُ السيطرةُ عليهِ، نحنُ لا نتحوّلُ على المستوى الشّخصي فقط، بلْ نتحوّلُ في أذهانِ الأشخاصِ الآخرين كلَّ يومٍ، وبغضِّ النّظرِ عن فكرةِ التحوّلِ هذه إذا كانت ايجابيةً أو سلبيةً، ففي كلتا الحالتينِ علينا أنْ ندفعَ أيضاً؛ ثمنَ التحوّلِ.

ماذا أفعلُ الآن؟. كانَ هذا السؤالُ هوَ الشّيءُ الوحيدُ الذي يتردّدُ في ذهني، كيفَ أشرحُ لها أنّني لا أشعرُ بما تشعرُ بهِ، دونَ أن أخدشَ قلبَها أو إحساسَها؟. كيفَ أقولُ لها أنّني لا أصلحُ لأيّ علاقةِ عشقٍ حينَ يظنُّ الطرفُ الآخرُ أنَّ العشقَ شيءٌ أبديٌّ؟ هل فعلاً يمكنُ للعشقِ أنْ يكونَ أبديّاً!. ولا يمكنني وضعُ يدي لتلفّها قيودُ الحبِّ، وليسَ في الشّرقِ حبٌّ يعيش بلا قيودٍ.

كانَ لصمتي وقعٌ صادمٌ عليها! لم أستطعْ إخبارَها بأيّ شيءٍ. أحياناً تضعنا الحياةُ في زاويةٍ قاسيةٍ جدّاً، نبدو فيها بصفاتٍ مختلفةٍ عن صفاتنا الحقيقيةِ التي لا تظهرُ دائماً.. كتلكَ الأحاديثِ التي قلتُ عنها سابقاً أنَّها طعامنا وشرابنا، معَ اختلافٍ بسيطٍ للغايةِ هو أنَّها تنتهي بـ "لا أعرفُ لماذا"، نحنُ متّهمونَ دائماً وأنا أيضاً لا أعرفُ لماذا!.

(عام 2006 لكمات الهوى تدمينا!. لاكَني آدم. أنقذتني يَسار. ثم يارا.)

ثمَّ سألْتني؛ "لنْ تقولَ شيئاً؟"، لكنّها لمْ تضحكْ ولم تبتسمْ، باتتْ تشعرُ بالخطرِ أكثرَ. وأمامَ إجابتي: "لا أملكُ شيئاً لأقولَهُ"، رحلتْ نتالي عن المكانِ وهي تقولُ؛ "لمْ أكنْ أتوقّعكَ هكذا"، ولازلتُ حتّى اليوم أسألُ نفسي: كيفَ توقّعتني؟ أو كيفَ كانتْ تتوقّعُني؟.

همَمتُ أيضاً بالرّحيلِ، خرجتُ من ذلكَ المقهى أمشي على أعصابي، لا على أقدامي، على أحزاني، وعلى أيلولي؛ لأخبرَ أوراقَهُ الصّفراءَ أنَّها ازدادتْ شخصاً هوَ بالتّحديدِ نتالي.. وأخبرهُ أيضاً كمْ أكرههُ رغمَ محبّتي لهُ..

نتالي الرّائعة، الشفّافةُ، النّقيّةُ، الجريئةُ. نتالي الجميلةُ التي لم تدخلْ أسوارَ الحبِّ بعد، وحينَ فكّرتْ باقتحامِ أسوارهِ كانَ قدرها سيّئاً، ولا أعرفُ إن كانَ حظي قبيحاً أم جميلاً مثلها، كلُّ ما أعرفهُ أنَّني كنتُ أنا قدرَها السّيءَ..

- يَسار، أينَ أنتِ؟.
- ما بكَ، بيان؟.
- لا شيء، أشعرُ بكلِّ شيءٍ!.
- ما هذهِ الإجابةُ! لماذا؟.
- لا أعرفُ، أخبريني أينَ أنتِ؟.
- في البيتِ، تعالَ إليَّ، سأنتظركَ.
- رُبّما أتأخّرُ قليلاً.
- لا بأسَ، سأنتظركَ في كلِّ الأحوالِ.

- شكراً.
- لكن إذا غيّرتَ رأيكَ أخبرني، لا أريدُ أنْ أقلقَ عليكَ.
- بالتّأكيدِ، إلى اللقاءِ.
- كُن بخيرٍ بيان...

لا يمكنني أنْ أكونَ حبيبكِ يا نتالي، لا يمكنني الدّخولُ بتجربةِ عشقٍ معكِ أنتِ تحديداً، لأنّ فشلها يعني لي خسارتَكِ، وخسارةَ عائلتكِ أيضاً، عائلتكِ التي أعتبرها كعائلتي بعدما فقدتها. ولا أحبُّ الحبَّ البريءَ، لا يغريني أبداً، ولا يستطيعُ تحريكَ بواطني..

ماذا سأقولُ لأمّكِ لو سألتني: لماذا تركتَ بصماتِكَ على أكتافِها؟ ماذا لو دَعتني إليها وهيَ لا تعرفُ أنَّني أحدُ الفصولِ الحزينةِ لديكِ؟ وماذا لو التقينا مجدّداً؟ هل يمكنُ أن نكونَ أصدقاءَ؟. لا أظنُّ يا نتالي أنّنا نستطيعُ..

(عام 2006 لازلنا نضحك في بعض الأحيان. لكن بنضج يخيّم على حياتنا.)

أنا لا أضحكُ فقط يا عزيزتي، خلفَ ضحكاتي يوجدُ خرابٌ كبيرٌ لا تعرفينهُ ولا أودُّ إظهارَهُ. وإن كنتُ أقضي أغلبَ الأوقاتِ ضاحكاً، فإنَّني أحاولُ الصّمودَ فقط كي لا أُقحمَ غيري منَ الأبرياءِ في ظلامي وظلمتي. لقد خدعَتكِ ضحكاتي يا صديقتي..

وأنتِ أيضاً، لا يمكنكِ خوضُ تجربتِكِ الأولى على هذا النّحو، فالقلبُ الذي لم يحملِ السّلاحَ يوماً؛ ولم يسبقْ لهُ إطلاقُ رصاصةٍ واحدةٍ.. لا يمكنهُ استخدامُ المدافعِ مباشرة سعياً للعيشِ بسلامٍ.. إنَّنا هكذا، هذهِ حقيقتُنا، وهذا واقعنا.. مهما كانَ لدينا من أحلامٍ وأمنياتٍ..

ليسَ شأنُكِ أنَّي كنتُ فاشلاً في الحبِّ قبلكِ، ولكن ليسَ شأني أيضاً أن تحبّيني هكذا. لم أصمتْ أمامكِ إلّا خوفاً عليكِ، خفتُ من أنّ أيّ جملةٍ أقولها ستنزلُ عندكِ في مكانِ عقدةٍ، وتبقى إلى الأبدِ في حياتكِ..

(عام 2006 انتهى عامنا الثاني في الكلية. أتمنى ألا ننتهي معه.)

ثمَّ ما الذي جعلكِ تحبّينني؟!هل هي موسيقايَ الحزينةُ التي يرقصُ قلبي عليها أكثرَ من أيّ موسيقى أخرى؟ أم هو اتّهامُ غيري لي، بالحزنِ واليأسِ والغرورِ والخوفِ؟ سيبكيكِ الحبُّ كثيراً يا صغيرتي، إلى أنْ تصلي بمحضِ إرادتكِ إلى شاطئِ الدّمعِ الذي سوف يكون حينها جافاً، ولا أريدُ أنْ أكونَ سبباً في البكاءِ. هكذا ببساطةٍ، فأهلُ القلوبِ أدرى بدمائِها..

الحبُّ لم يكن قراراً يوماً، على اختلافهِ ورغمَ تعدّدِ أفكارهِ وتعاريفهِ لن يكونَ. لسنا نحنُ بقوّةِ وهيبةِ اللّيمونِ، بل على العكسِ نصبحُ بعدَ مرورِ الوقتِ والحبِّ أشبهَ بحبّاتِ الزّيتونِ..

سمعتُكِ في إحدى المرّاتِ تتكلّمينَ عن يارا، أحزنني جداً حديثُكِ عنها بهذهِ القسوةِ.

يارا أجملُ من أيّ فتاةٍ يمكنُ أنْ ألتقي بها يوماً، لا أحدَ يستطيعُ رؤيةَ ما أراهُ فيها. وما أحزنني أنَّني رُبّما نقلتُ الصّورةَ الخطأَ عنها للقادماتِ والقادمينَ بعدَها، لا أعرفُ كيفَ حصلَ هذا! فعلى الرّغمِ من كلِّ معاناتي معها أو بعدَها، ورغمَ أنَّ الجميعَ يراني ملطّخاً بها ويراها فيَّ كرُقعةِ دمٍ على جسدِ قتيلٍ... لكنّني حاولت جاهداً ألا أبدوَ يوماً هكذا،

وإن بدوتُ فهوَ حتماً عن غيرِ قصدٍ، الحبُّ والمحبّةُ وكلُّ ما يخصُّ الأفئدةَ هوَ أخلاقٌ قبلَ كلِّ شيءٍ..

يا نتالي، ما حدثَ مع يارا، وتِلكَ القصّةُ التي كانَ لها الأثرُ الأكبرُ في حياتي وحياتِها، كانَ سببَهُ المجتمعُ وأفكارُهُ وتقاليدُهُ، فالشرقُ لا يقبلُ أن ترفض فتاةٌ قرار قرانٍ فقط لأنَّها لا تشعرُ بالسّعادةِ.. ولا يقبلُ من أيِّ امرأةٍ شرقيّةٍ أن تتحدّثَ عن الحبِّ أو الحبيبِ بطلاقةٍ..

وهذا المجتمع، هو بالضّبطِ ما يمنعنا من العيشِ سويةً، ويمنعني حتّى من إطالةِ النّظرِ إليكِ في حضورِ الحاضرينَ هناكَ، ويمنعكِ من التفّكيرِ بي، إلّا في الرّسماتِ المتعدّدةِ لفستانِ الزّفافِ الأبيضِ، عندما تجلسينَ لاختيارهِ. فلا تتكلّمي عنها واعذريها، إنَّكما في نظرِ المجتمعِ متساويتين تماماً..

أنا لستُ العريسَ المنشودَ الذي تتمنّينهُ، هل تعرفينَ كم مرّةً ذكرتِ لي ذاكَ الفتى الذي تحلمينَ بهِ؟ لطالما ضحكتُ بيني وبينَ نفسي، لأنَّني لا أعرفُ أنْ أكونَ هكذا، رغمَ كلِّ تقديري ومحبّتي واحترامي لكِ ولكلَّ الأمنياتِ التي على جدائل الفتياتِ. لكنّني لستُ ذلكَ الفتى، ولستُ العريسَ المنشودَ أبداً..

(عام 2006 كل العواصم العربية التي أتمنى زياراتها تتألم.)

لَطالما قلتُ إنَّني لن أقومَ بحفلِ زفافٍ ضخمٍ كعاداتِنا، ولَطالما انتقدني السّامعونَ لهذهِ الأفكارِ. لا أنا سمحتُ لنفسي يوماً بالتّنازلِ عن الفكرةِ، ولا هم فهِموا يوماً أنَّهم السببُ الرئيسُ والمباشرُ لَها..

الحبُّ جنونٌ؟ نعم، يا نتالي؛ خُلقَ الحبُّ فقط للمجانينِ، وأنا أكثرُ الفتية حبَّاً بالحبِّ والعبثِ والجنونِ... لقد خُلقتُ شقيّاً، أملكُ جيناتِ الشّقاءِ والشّقاوةِ التي لا حدودَ لَها ولا ضوابطَ ولا قواعدَ، ولا تعرفها القواميسُ. لكن ثمّةَ جنونٌ لا نستطيعُ إكرامَهُ بالدّفنِ ولا نستطيعُ دفعَ فواتيرِهِ. إذا خُضناهُ ونحنُ في تلكَ الحالةِ، يبقى يحكمنا ويُحكمُ علينا من خلالِهِ كلَّ العمرِ، وما يزالُ في عمركِ الكثيرُ منَ الأشياءِ والمعاركِ لخوضِها..

أمّا أنا، فقد دفعتُ كلَّ فواتيرِ جنوني، وحدةً وغُربةً وألماً وبُعداً وابتعاداً وهجراناً... وليسَ لديَّ مشكلةٌ أبداً في أنْ أُضرمَ النّارَ في جسدي كامِلاً وفي قلبي، أيْ أنَّني لم أعدْ أخشى غلاءَ الثّمنِ، ولا أنظرُ في تفاصيلِهِ. فقط أدفعهُ وأكملُ الطّريقَ...

أعرفُ أنّكِ لن تغفري لي صمتي أبداً، ولستُ أتوسّلُ لكِ للغفرانِ.. لكنّكِ يوماً ما ستفهمينَ هذا الصمتَ، عندما تصمتينَ أنتِ أمامَ ابنتِكِ حينَ تسألُكِ عن حبيبكِ، حينها فقطْ ستعرفينَ ماذا فعلَ بيان، ولماذا فعلَ بيان..

وأعرفُ أنَّ كلَّ هذا لا يهمّكِ، ولن يكونَ في أجندةِ أفكاركِ إلّا عندمَا تعجنُكِ الحياةُ وتخبزكِ في أفرانِها، ورُبّما تنساكِ هناكَ حتى تصبحي جلدةً سوداءَ لا نفعَ لها، لا تُؤكلُ ولا تُطحنُ ولا يمكنُ إرجاعها. وستبقينَ هكذا حتّى الوصولِ إلى مثواكِ..

- بيان هذا الخوفُ الكبيرُ عليها، لا يَعني أنّكَ أحببتَها؟.
- أُحبّها، بالطّبعِ أُحبّها، لكنّني لا أعشقُها، ولا أستطيعُ أيضاً أن أكونَ غيري.

– نحنُ الفتياتُ عندما نشعرُ بالأمانِ، نعشقُ ونُغرمُ حتّى يصلَ الغرامُ العِظامَ!. ماذا حصلَ بعدَ ذلكَ؟.
– لماذا أوجدُ في حياتها، إذا لم يكنْ باستطاعتي أنْ أُعطيها الأمانَ، تحادثنا عدّةَ مراتٍ، كانت تُخبرني بكلِّ ما يجري في حياتِها، كُنّا نلتقي ونمازحُ بعضنا البعض، ولكنْ كانت تنظرُ إليَّ دائماً بحسرةٍ وأنظرُ إليها بحزنٍ. لم نعدْ كما كنّا، ورُبّما لن نعودَ!.
– هذه هي مشكلتنا، عندما يستعمرُ الحبُّ قلوبنا، لا يتركُها، لكن لماذا تركتَها تحادثكَ لطالما أنّكَ لا تعشقُها، وأنتَ على علمٍ بأنَّها تُريدكَ؟.
– عندما أحببتُ يارا، كانَ ظرفُها يمنعني منَ التّحدثِ معها في كثيرٍ منَ الأوقاتِ.
– أعلمُ ذلكَ.
– مازالتْ هذهِ الأوقاتُ عالقةً في دماغي حتّى الآن، ولن أنساها أبداً.
– لماذا؟!.
– لم أبكِ بحرقةٍ كما بكيتُ حينَها، لم يُطبقْ صدري أبداً بعدَها، لم أشعرْ بألمٍ يطوفُ في كلِّ تضاريس جسدي مثلَ ذلكَ الألمِ.... منذُ ذلكَ الحينِ يا يَسار وأنا لا أجرؤُ على إنهاءِ أيِّ حديثٍ أو أيِّ شيءٍ يجمعني بشخصٍ آخر، أحاولُ الصّبرَ لا حتّى ينفذَ صبري فحسبْ، بل حتّى أنفذَ أنا، ولا يبقى منّي حتّى بعضُ البقايا.
– لذلكَ تركتَها تأتيكَ عندما تريدُ؟.
– نعم.
– لكنّكَ غفلتَ عن ألمِ هذهِ الأحاديثِ!.

- لا لم أغفلْ، ولكن ألمها أخف من ذلكَ الألمِ. حينَ تجدني ولو لم أكنْ كما تريدُني، سوفَ تلقي اللّومَ عليَّ لا على الحياةِ، وهذا أفضلُ، من وجهةِ نظري على الأقلِّ.
- أريدُ سؤالكَ بيان.
- اسألي يا عزيزتي؟.
- هل تفعلُ هذا مَعي؟.
- ما هذا؟.
- هل تتركني أتحدّثُ إليكَ، حينَ لا ترغبُ في مُحادثتي؟.
- أتسألينني يا يَسار! بعدَ كلِّ هذهِ السنواتِ!.
- نحنُ النّساءَ لا يهمّنا الوقتُ، رُبما نبقى سويّةً حتّى الموتِ، وأنا على فراشِ الموتِ أسألَكَ؛ هل كنتَ تتركني أتحدّثُ إليكَ حينَ لا ترغبُ في محادثتي؟.
- هههه لا بأسَ عليكِ يَساري، على فراشِ الموتِ أُجيبكِ.
- تباً لكَ. لا أشكركَ، وأسامحكَ بالجوابِ فاسترحْ.
- شكراً لكِ.
- أصبحتَ تعرفُ كيفَ تتصرّفُ معَ النّساءِ يا بيان.
- أولستُ تلميذكِ!.
- وستبقى كذلكَ لا تقلق، نحنُ دائماً لدينا ما يمكنُ للرّجالِ تعلّمُهُ.

(عام 2007 بدأنا السنة الثالثة بحماس سرعان ما خفت بريقه.
عادات!.
نحن على قيود الحبّ نعاني. أيضاً عادات!.)

اغفري لي صمتي يا نتالي.

****

(٥)

كانون ٢٠١٥

بشعرِها الأشقرِ الطّويلِ شنقَتْ حزنَ ذِكرياتي وذَاكرتي، لا أعرفُ بالضّبطِ متى وأينَ التقينا! لقدِ التقينا لأوّلِ مرّةٍ، أكثرَ مِن مرّةٍ..

كانتْ تخافُ على أظافِرِها أكثرَ من خوفِها عليَّ، أسعدني ذلك. أحبُّ تلكَ التّفاصيلَ، بَل إنَّنا جميعاً، نَحنُ معشرَ الرّجالِ نُحبُّها لكنّ أغلبَنا يشعرُ بالخجلِ من اعترافٍ كهذا. لا أعرفُ متى يمكنُنا أن نقولَ الحبّ دونَ أن نشعرَ بارتكابِ جريمةٍ في الخفاءِ. كنتُ أضعُ نفسي تحتَ سُلطةِ أظفارِها المُنمَّقةِ المَطليّةِ بالألوانِ، كانتْ تبتسمُ لي، ثمَّ تُخرمِشُ فيَّ بعضَ الأجزاءِ من رُوحي وجَسدي..

كالصّغيراتِ المُشاغباتِ اللّاتي لا يطمئنُّ لهنَّ قلبٌ بسهولةٍ، توقِظُ غَفوتي، لتَغفوَ على يَقظتي، في الطّرفِ الأيسرِ منَ الصّدرِ، والكتفِ والزّندِ، ثمَّ تَشتمُّ قلبي لأنّهُ لا يَهدأُ! تُبقي يَدَها اليُسرى على صَدري وتشكُو لي شَعرَ صَدري المُتسلّقَ على أصابِعِها فأقولُ: "لا شيءَ تلمَسُهُ يَدُكِ، ولا يحاولُ السّفرَ مَعَها."..

كالقَتْلى ترتمي مُمدّدةً على ذِراعي وتئنُّ مُغمضةَ العينينِ باكيةً، والدّمعُ على جلدِ الصّدغِ؛ خطٌّ كحلٍ أسودُ انسابَ. وضعتُ أعلى النّهدينِ بينَهما، سُبّابةَ يدي والسُبابَ، أتحسّسُ حَشرجةَ القلبِ لأطمئنَّ وأشهدَ على احتراقِهِ، كانَ قلبُ يبابَ.

(عام 2007 يَسار تترنّح. إشارات استفهام وفيرة تحيط بنا. تحديداً آدم.)

أصبحَ عُمرُها أكثرَ مِن ثلاثينَ قصّةَ حبٍّ، وخيبةٍ، أكثرَ مِن ثلاثينَ نوبةَ يأسٍ على أملِ الخلاصِ، أكثرَ من ثلاثينَ محاولةً للبقاءِ، ونهايةً كانتْ نقطةَ بدايةٍ، أكثرَ من ثلاثينَ حلماً نبتَ على هيئةِ شَوكةٍ في غُصنِ وردةٍ واحدةٍ، عُمرُها أكثرُ مِن ثلاثينَ عمليّةَ تجميلٍ أَجرتْها على رُوحِها لترمِّمَ فُتوقَها.. ثمَّ يقولونَ عنها "عانِس"، واللهِ لا عنوسةَ إلَّا في قلوبِهم وعقولِهم وأَرواحِهم...

ولِأنَّني من هُواةِ الألمِ، كنتُ أعدُّ لها دمعاتِها وأُسمِّيها لَها بأسماءِ خَيباتِها، فتجهشُ بالبُكاءِ أكثرَ.. ثمَّ أصبُّ عليها حمضَ قلبي، حتَّى تطلبَ الموتَ بالرّجاءِ. لا أستطيعُ تخيّلَ قسْوَتي عليها، لكنَّها كَانتْ تقوُم كَكلِّ مرَّةٍ بعدَ انتهاءِ الدّموعِ لترقُصَ حافيةً؛ كما لمْ ترقصْ في حياتِها كلِّها، كَما لو كانتْ عاريةً تماماً في ممارسةِ الرّفضِ والخُضوعِ.

(عام 2007 ابنة الاستاذة تجلس بجانبي في بعض الدروس.
الغريب أنها لا ترافق الاستاذ!.)

"لقدْ أحبَبتُهُ كَثيراً" تقوُلها مَع كلِّ هزّةِ خَصرٍ، مَع كلِّ تلويحةِ شعرٍ، كانَ جسدُها الرّاقصُ يَنزفُ مِن أصابِعِ الأيدي والأقدامِ، ثمَّ ترتَمي على أَريكتِها مُنهكةً كأنَّها كانَتْ في حربٍ مع نيسان، وتنامُ..

"لا أعرفُ كيفَ انتهى كلُّ شيءٍ" تتحدَّثُ في نَومِها! أنا أيضاً لا أعرفُ إن كانَتْ صاحيةً أمْ نامَتْ حقّاً، لكنَّني أظلُّ أُمشِّدُ شعرَها وأتحَسَّسُ وَجهَها حتّى يَغلِبني النّومُ أيضاً، هناكَ بجوارِ الأنينِ الفاضِحِ للوجعِ.. أظنُّها رَحلتْ في رحلةٍ برفقةِ اللّيلِ، تشبهُ رِحلتي.

المشهدُ الخامسُ: ميمنةَ المشهدِ، فتاةٌ من فِتنةِ ما خلقَ اللهُ في الدّنيا، خَرجتْ، لوَّحتْ لكَ من الأفقِ، وجهُها أبيضُ، رُوحُها بَتولٌ، شعرُها أشقرٌ، كحلُها أسودٌ، جَسدُها مُمسّدٌ، أمسكتكَ من كلِّ أطرافِكَ فخجِلتَ وجاءَ الجوابُ بالخطيئةِ، واختفت في ميسرةِ المشهدِ.

أحبُّ الصّليبَ الّذي يعانقُ جيدَها، وحِفظها لبعضِ آياتِ القرآنِ. المذهلُ فيها إيمانُها بكلِّ الأديانِ مَعاً، تزورُ الكنيسةَ على الدّوامِ، وتُصلّي المغربَ لتدعو!! في مشهدٍ يتغنّى بهِ المُجتمعُ في الظّاهرِ، ويُرفَضُ من أناسٍ كُثَرَ في العَلنِ والخفاءِ.

كانتْ تصرخُ في وجهي دائماً: نحنُ ننتمي للسّماءِ لا للأرضِ.

لم نكن نعيشُ أطوارَ النّهايةِ كثيراً، على عكسِ المعتادِ في علاقاتِنا الأُخرى، كانَ هذا مُميّزاً جدّاً، لكنَّ النّهاياتِ كانتْ تعيشُ معنا دائِماً، لمْ تُفارقْنا كعادةِ كلِّ أشيائِنا، كنّا نَحنُ الفَصلَ الثّابتَ في حياةِ بعضِنا، لذلكَ كنّا نشعُرُ بالرّاحةِ أكثرَ، وبتعبيرٍ أثقلَ، كنّا نشعُرُ بالأمانِ.

***

طُعنتِ يا يسارُ، لأنّكِ جميلةٌ وهذا حظُّ الجميلاتِ، لأنّكِ بريئةٌ وهذا حظُّ البريئاتِ، لأنّكِ غريبةٌ وهذا قدرُ الغريباتِ. لأنَّ الحَلقَ في غيرِ موضعِهِ المعتادِ يشيرُ إلى العَيبِ في مجتمعنا حتّى لو كانَ في الأذنِ نفسِها، اثنانِ فقط منَ السنتمتراتِ، تغيّرُكِ من امرأةٍ طاهرةٍ إلى مُومس.. فتَخيّلي...

طُعنتِ لأنّ موجَ عينيكِ الأزرقَ لا يشفعُ لكِ، لا تشفعُ العيونُ لأصحابِها مهما كانتْ ألوانُها، وحتّى أنوثتُكِ الطّاغيةُ لا تغفرُ قسوةَ فكرةِ أنّكِ من الضّلوعِ القاصرةِ. ثمَّ من هوَ الذي سمّاكنَّ ضِلعاً قاصِراً؟؟ وأنتنَّ قوّةٌ ما بعدَها قوّةٌ إلّا في السّماءِ.

(عام 2007 أنا أيضاً يؤلمني فتورها. لكن أحبّ نفسي.)

أَخرجِيني من نفسي، ومن ثَوبي، حرّريني من كلِّ العاداتِ والممنوعاتِ، لأكتبَ الحقيقةَ التي لا يجرُؤُ على قولِها أحدٌ مِنّا.. ورُبّما لَن يَجرُؤَ على النَّظرِ إليها حينما تتوسّدُها الكلماتُ.. لِتكنْ حُدودي هي حُدودُ الدّائرةِ التي تُحيطُ بحلمةِ النّهدينِ، لا أتخطّاها أبداً ولا أخرجُ مِنها أبداً.. فأُعانقُ المجدَ في الخدّينِ وأتركُ أيسرَ النّهدِ الأيسرِ من رقصنا، بعضَ البصماتِ..

ثمَّ أُساقُ كمتتاليةٍ حسابيةٍ إلى قَفصِ الاتّهامِ، بعدَ أنْ تَنفّستُ لبضعةِ كلماتٍ أو أيّامٍ، لأنّي نزعتُ عن وجوهِ الرّجالِ قِناعَ الحَمامِ، وأُشنقُ بعدَ التّحقيقِ بجُرمِ كتابةِ كلامٍ ليسَ ككلِّ الكلامِ..

يتلُونَ على عُنقي في حبلِ المشنقةِ آخرَ كتاباتي؛ أنَّ رغيفَ الخُبزِ لا يفرّقُ بينَ الموائدِ، لا يعرفُ لا الغنيَ ولا الفقيرَ، يبقى رغيفَ خبزٍ بينَ كلِّ الأسنانِ حتّى لو صُنعتْ من ذَهبٍ، يبقى رغيفَ خبزٍ أمامَ شعرٍ منسدلٍ أو ضفيرةٍ.

هكذا تركَ معنى "رغيفُ الخبزِ" في قلبي، فأنا الآنَ المجرمُ المشنوقُ بِلا معنى، والكاتبُ الذي بقيَ في قلبهِ المَعنى.

تنفّسي لأبقى حيّاً يا يَسارُ، لا أريدُ الانهيارَ، ما كذبَ البحرُ على البحّارِ.. ولا شيءَ جمعني في حياتي مِثلَ رحمِ أُمّي إلّا دفءُ يديكِ، وعلى يديكِ سوف أحاولُ الانتحارَ، رغمَ عِلمي أنَّ البحرَ لا يكذبُ على البحّارِ..

أتذكرين السؤال؟ حينَ احتضنني سؤالُك؛ "ماذا تفعل وحدكَ هنا؟."

ظنّوا أنّني قُتلتُ في التّفاصيلِ وأصداءِ الأصواتِ، وأنَّني تُركتُ من كلِّ الحبيباتِ السّابقاتِ. سؤالُكِ قطعَ الحبلَ وأخرجني، عدتُ إلى النّاسِ غريباً. وعَبثاً، استمرّت ذكرياتي في استنزافي..

ما عرفوا أنَّ امرأةً مثلكِ، تنزعني من حياتي، وتجمعُ القرآنَ والإنجيلَ والتّوراةَ، في سؤالٍ واحدٍ يتحرّى مجرى أحزاني..
تكتبُ تاريخي مُجدّداً، تستفزُّ ببراءةٍ كلَّ الأزمانِ، وتقولُ: لا بأسَ، حتّى لو عَانى القلبُ منَ الذّوبانِ..
أردُّ: لا شيءَ يحرّكُ فيَّ نسياني!. فتقومُ تصبُّ عليَّ شهداً سالَ مِن مختصرِ شفتينِ.
ومِن نَدى الجدائلِ الذّهبيةِ فقط تمرّدُ خصلتينِ، أنّي امرأةٌ، وحزنُكَ تجرّأَ عليَّ وتَحدّاني..
يطفو على وجهِها خَمرٌ يشبهُ خمرةَ الرمّانِ، رائحتهُ تجعلني عربيداً، أضربُ الاتّزانَ بالحيطانِ..
تقيمُ على صدري المرهقِ بعضاً من الصّلواتِ، ألّا بأسَ عليكَ إنْ كنتَ مُسلماً أو كنتَ نَصراني..

احمل نهديَّ عنّي واتركهما عليكَ يتقيآنِ، وعِشْ مَعنا جنوناً يُحرّكُ نسيانكَ ونسياني.

يا لجينَ قلبي، يا حُمرةَ خدّين، ابتسمي أرجوكِ، لا أستطيعُ وحدي تغييرَ ألوانِ الشطآنِ..
ولا أريدُ من غَدي، تجربةً أُخرى بصبغةِ الهذيانِ، يكفيني منَ الحياةِ أنتِ، كأنّي ركبتُ على الطّوفانِ..
قد كانَ مُخمليّاً حظّي، حينَ جلستُ على هاويةِ الطّريقِ، أنطوي على نَفسي، انطواءَ الكتمانِ..
لازالتْ على كتفي مواضعُ أصابعِكِ، كشهودٍ عيانِ، وصورتُكِ يومَ حوّلني بللُ النّهدِ من بَشريٍ إلى جُمانِ.

سأسألُ اللهَ عنكِ يا يسارُ، سأسألهُ عنِ الحكمةِ مِن أنْ تذرفَ عيناكِ الدّمعَ بعدَ أنْ دوّخَتْ كلَّ الرّجالِ، وأستفسرُ عن حزنٍ أبيضَ، يعيشُ على جلدِكِ كالمُحالِ.. كأنّهُ العوَضُ عَن كلِّ الرّاحلينَ، كأنّهُ وفاءُ الزّوالِ.

(عام 2007 بعض ما في الحياة؛ ممتع.
نحن الأربعة في غياب متقطع. أتكّئ على أيهم القديم.)

أعرفُ أنّكِ أحببتهِ بشدّةٍ، وأعرفُ صِدقَهُ معكِ، لكنّ المشكلةَ تكمنُ في الاستمرارِ، في حياتِنا دائِماً توجدُ نهايةٌ، في الأشخاصِ والشّوارعِ والصّلاةِ والدّعواتِ والنّياتِ، في كلِّ ما يخطرُ ببالكِ مِن التّفاصيلِ، في كلِّ الأشياءِ.. ورغمَ عِلمِنَا وإيمانِنا بالنّهاياتِ.

عِندما نَدخلُ إلى الحبِّ، أوّلُ ما نفكّرُ فيهِ هوَ الأبديّةُ، فنسألُ بَعضَنَا ونسألُ الحبَّ ويسألُنا: إلى متى البقاءُ؟. وتأتي الأجوبةُ بالتّأكيدِ والوَعيدِ، نحنُ نبقى حتّى آخرِ العمرِ، حتّى الفَناءِ، فنخسرُ لحظةَ حُبّنا الرّاهنةِ مع مستقبلِهِ، ونبقى حتّى آخرِ العُمرِ نعيشُ فيهِ كَماضٍ مَضى، وليسَ فيهِ أيُّ شيءٍ، إلّا تبادلُ الاتّهاماتِ عندَ كلِّ مساءٍ.
يا يسارُ، إنَّنا شعبٌ غريبُ الأطوارِ.

(عام ٢٠٠٧ اتساع أحلام الحبيب؛ ثوب فضفاض نرتديه، يشير إلى النهاية.)

على مقعدٍ من مقاعدِ الكنيسةِ، أنهتْ شُرودي بهمسةٍ: "لا تكُنْ مِثلَ آدمَ."، كأنَّها أمسكَتني بيدٍ حجمُها حجمُ رأسي، ووَضعتْ الأُخرى في أَعماقي، رفعَتني عنِ الأرضِ حتّى ما عدتُ ألمَسُها ولا بأطرافِ أصابِعي، ثم هزّتْني.. أو نفضتْني..

رأيتُ شظايا عظامِ جُمجمتي تسقطُ أمامي، بعدَ أن حطّمَها دِماغي المهتّزُ داخلَها.. ثمَّ سقطَ الدّماغُ كلُّهُ قطعةً واحدةً، يتبعُهُ الوجدانُ، مُحمّلاً بصورٍ لها حجمُ معرفَتي لكلِّ الذينَ عرفتُهم في حياتي.. ثمَّ بلعومي، عليهِ كلُّ الكلماتِ التي كنتُ أتمنّى قولَها، لكنّي لمْ أَقلْها في حَياتي... وهكذا بِعشوائيّةِ السّقوطِ، كلُّ أجزائي سَقطتْ، وعيناياَ حتّى آخرِ الأجزاءِ تُركَتْ..

"لا لا هذا سأغيّرُ مَكانهُ منَ اليسارِ إلى اليمينِ." تقولُها قاصدةً وجداني، وهيَ تُلمِلمُني على شكلِ نوباتٍ كأنّي ما كنتُ يوماً أكثرَ مِن تكّاتٍ للثّواني.. "سَأتركُ اليسارَ لي وَحدي." والابتسامُ يطغى على

المَبسمِ.. "هلْ تذهبُ لتناولِ العشاءِ يا صَغيري؟."، بعدَ الانتهاءِ مِن تَركيبي دَعتْني، هل يرفُضُ القلبُ شُربَ نَفسِهِ على طاولةِ العَشاءِ؟.

(عام 2007 أشعر باليأس والخوف. أضيع الأن أكثر.
أين أنتَ يا هوى؟.)

أَسفي على تِلكَ الصُّورِ التي حملتُها في مُهجتي، أَسفي على تِلكَ الكلماتِ الحقيقيّةِ التي لم تُقَلْ، أَسفي على جمالِكِ المَطعونِ بلعنةٍ صبغَتْ كلَّ أيامكِ يا يسارُ.. وأَسفي على أيّامي التي لم تَحظى بكِ، وعلى وفاءٍ كانَ فقط أحدَ فصولِ الزّوالِ..

أَسفي عليكِ وعليَّ وعلى الفقراءِ الذينَ بقيوا في حسرةِ وجودِكِ، فأهلَكوني حَسداً، حتّى أُغلقت أبوابي.. على الأثرياءِ الذينَ أهلكوني إغاظةً.. وعلى الأثرياءِ الذينَ ظنّوا أنَّ أموالهُم تسعدكِ أكثرَ مِن جملةِ غزلٍ يقولُها أحدُ الرّجالِ، أو الولدانِ أمثالي..

لن أغادرَكِ، حتّى وإن غادرتُكِ أَبقى لديكِ، ثمَّ كيفَ أُغادرُكِ وأنتِ هُنا في أَيسري؟ زقزقةُ الحمامِ ماتَتْ، ثمَّ مَاتَت بعدَها الحماماتُ.. الكتبُ والقواميسُ والمترجماتُ كلُّها ماتَت، مَاتَت فيهم الكلماتُ.. الملحُ ماتَ، السّكّرُ ماتَ، حبّاتُ البنِّ ماتَت، وماتَت معهم تفاصيلُ الحياةِ.. مَاتَ كلُّ شيءٍ حتّى النّخوةُ ماتتْ، ولازلتُ أسألُ نَفسي: متى تَموتُ النّعرات؟.

(عام ٢٠٠٧ إن غيّرت أنا ملابسي؛ لا أستطيع تغيير دمي.)

لو كُنّا في الحبِّ ما كُنّا لِنحتاجَ أدويةً، ما كَانت لِتخجلَ مِنّا الألحانُ، لكنّها الأقدارُ، رُبما أمصالُ الحزنِ تُحقَن فينا قبلَ الفرحِ المُعطى على

شَكلِ نسماتِ ريحانٍ.. هكذا هيَ تكوينةُ الحياةِ، كَما الدّعاءُ يسبقُ الإجابةَ، والطّهرُ يسبقُ الصّلاةَ...

- أحببتِهِ؟.
- نعم، أحببتُهُ جدّاً يا بيانُ.
- هل يحبُّكِ هوَ أَيضاً؟.
- بالتّأكيدِ، طَبعاً يُحبُّني، لو لم يكُن يُحبُّني لَرحلَ على الفورِ!.
- لِماذا ابتعدتُما عَن بَعضِكُما، لَطالمَا كُنتما تعيشانِ مَعاً بحبٍّ كبيرٍ؟!.
- الحبُّ شيءٌ مُنفصلٌ تماماً عن كلِّ الأشياءِ الأُخرى، الحبُّ لا يعني ألّا تملَّ أبداً، أو أنْ تَبقى في وضعيّةِ التّنازلِ دَائماً.
- لكنَّ العاشقَ لا يملُّ مِن المعشوقِ أبداً يسار!.
- دعكَ من الشّعاراتِ، نحنُ كَبشرٍ لا نتخلّى عَن طَبائِعنا، لا يُمكن أنْ نعيشَ بِنصفِ طبعٍ، لكنّنا نتنازلُ للحظةٍ من لحظاتِ العُمرِ، ثمَّ نعودُ عن التّنازلِ، ثمَّ نعودُ ونتنازلُ مجدّداً وهكذا.
- والعمرُ كلُّهُ لحظاتٌ.
- بالضّبطِ، لكنّنا نَخشى الحقيقةَ، أو الاعترافَ بِها!.
- تَبقى الحقائقُ مخيفةً دائماً كَعادتِها.
- لكنّها لم تَكن تُخيفُ آدمَ أَبداً.
- كيفَ عرفتِ ذلكَ؟.
- أَخبرَني هوَ بِذلكَ، حينَ قالَ لي إنّهُ بدأَ يشعرُ بالملِ، ولم تستطعْ محاولاتي إبعادَهُ عن ذلكَ.
- كانَ محظوظاً بِكِ يا يَسار.

- هههه نَعم، لكنّنا انتهينا، كانَ يُمكنُ أن نُكملَ الطّريقَ بنوباتِ حبٍّ تأتي وتَمضي على عَجلٍ مِن أمرِها وأَمرِنا، لكنّني فضّلتُ منحَهُ ومنحَ نفسي الحرّيةَ.
- وأنتِ، ألم تشعري بالملِ؟.
- بالطّبعِ، لكنّ النّساءَ يفضّلنَ كتمانَ ذلكَ، خُلقنَ هكذا، بقدراتٍ كبيرةٍ من التّضحيةِ على عكسِ الرّجالِ.
- تنفّسي يا يسارُ، أريدُ على يديكِ تجربةَ الانتحارِ.

(عام 2007 علامات تغيّر ملموسة تبدو على وجه الاستاذة!.
وانتهى الفصل الدراسي الثاني؛ أنا في المقدمة.)

****

(٦)

شباط ٢٠١٦ (ذكريات يارا)

من أنين النايات على وداع عازفةٍ، ونبش الخدوش الخجلةِ على وجه القمر؛ مرهق أنا.. مرهقٌ من تاريخي، مرهقٌ من الخرائط، من الشوارع، من أصغر محطّات السّفر. فأنقذيني إن استطعتِ من دلْج الحبّ، من تعليقي كورقٍ أصفرَ على أطراف الشجر.. مرهق أنا من التأرجح على خيطٍ رفيعٍ يفصل بيني كطينيٍ وبيني كحجر.. أيضاً من فيض حنين فاق كلّ الفيوض.. ونبضٍ أشبَهِ بسياطِ فراشٍ أحمرَ لجلّادٍ جائع..
أعتقي قلبي من هزائم الهوى، من الأحرف التي أكون كاتبها.

لم أشتق لكِ منذُ ليلة جلوسي تلك، بل لم أعد أشتاقكِ أبداً، ربّما تشتاقكِ يَسار، لكثرة حديثي عنكِ، أو كثرة لفظ لساني لوجنتيكِ، وربّما من رؤية عينيكِ في قديمات الصور. أمّا أنا فقد أصبحت أهذي، أهلوس، أجنّ، أندثر، أغدو فرحاً له هيئتي.. لكن يدهسه طيفكِ عند منحدر رأس كل ساعة.. أصبحتُ مثلها، فيما عرفتْ دمشق من الأحزانِ.

قد نلتقي في قدرٍ ما، في حلمٍ ما، بعد عمرٍ كاملٍ من الحرمانِ.. كما نلتقي بصحوةٍ، أنا وطيفكِ على فُوّهة بركان.. هيامك مثل كأسٍ؛ النبيذ في جوفها أسْكرني وأسْكرها، مثل نار سكبت على هشيم؛ فما أحرقتهُ؛ لكنّه على ضعفه أحرقها.

(عام 2008 هذه السنة سوف نغادر -إن قدّر لنا- أسوار الجامعة. لكنّنا سنبقى نرسم ونتخيّل دائماً.)

انتظرتكِ كثيراً، حتى بات الانتظار عندي عقدة، انتظرتُ حتى عرفت أنّ الانتظار سذاجة، وحماقة، ووقت يمضي بذريعة الوفاء، أو بأبياتٍ مكتوبةٍ في قصيدة هِجاء، كتبتُها أنا بأصابع النساء، وكونه يأتي عن رغبةٍ جامحةٍ فيه، يصير بعد مُضي الوقت اعترافَ غباء.. الانتظار؟! يا له من غباء..!

فالحقيقة هي؛ أنّنا لا نلتقي، ولا الأقدار تجمعنا، ولا النبيذ يُسكرنا، وليس يعترف بنا أو يُكنُّ لنا الوفاء...

لذلك أهجركِ اليوم وأهجر مهجتي التي أنت فيها.. إن كنتِ في أيسري أو كنتِ في أيمني، وأينما أصبحتُما.. لم تعد تعنيني أيامي. أُصبح وأُمسي بصرخةٍ في نزاع الهوى؛ أنْ زيديني إن استطعت زيديني.. فقد بدأ يسألني عنكِ إبهامي، يتلوكِ عليّ كأنّما كنتما معاً منذ بضعة ثوانٍ، كأنّكما تفترشان كل ليلةٍ أحلامي.

(عام 2008 شيء ما يتغير بوضوح خلف جلد هويتي. تحت جلد يارا.)

لا أعرف كيف مضت السنون، كأنّي كنت في غيبوبة، في عُلبة يشكّل العتب قلبها الفارغ وغطاءها. عليها رسالة محفورة؛ ألا مفرّ من العينين، فكلّما هربتُ وقعتُ في حرابها.. ولا مفرّ من الشفتين، فكّلما مشيتُ سقطّتُ على حوافها..

مستلقيةً سمائي كانت، يموج الأسود فوق أشيائها.. وشعرها الحاضر بيننا، كالحرير يداعب أكتافها.. لا حلّ أيّتها الكلمات، سوى السجود

تحت إيوانها.. وتلاوة المكتوب الذي كتب في حضرة أعتابها.. سيدة، والنهود بريئة، كالليل مستبدّ براؤها.. سيدة كما الأساطير، يغازل الشوق أركانها.. حولها الكؤوس تغمغم، وتهتزّ جدرانها.. وعليها الحبّ، يمسّد العباءة ويجدل خيطانها.. وعلى صدرها اللهفة، كما الماء قد غرقت في مائها.. يوم كنّا معاً وكان الشيطان يخاف من صلاتنا.

المشهد السادس: ميمنة المشهد؛ فتاة من رحم الجمال خرجتْ، لوّحت لك من الأفق، عيونها غجرية، شعرها غجري، ثغرها جذّاب، بتلتكَ عن بعضكَ، أمسكتْ قلبكَ؛ صبّتْ فيه الهوى، وصبَّته في الهوى، فخجلتَ وجاء الجواب كذلك بالهوى. واختفت في ميسرة المشهد.

غزت وجهي التجاعيد وأصبح في قلبي المشيب متّكئاً، كأنّها انتهت غيبوبتي التي أدهشت الطبيب!. عندما رأيت انتظاري على أوراقي.. واغتالوا روحكِ بدفنها.

أحببتكِ جداً، إذا كنتِ تريدين الحقيقة فهي لكِ، وأشتاق لكِ جداً، إنّي أكذب في النفي، وأكذب إذا اعترفتُ بقتلكِ.. أنا القتيل بشيء بسيطٍ عابرٍ من رياح عطرِكِ لا لي شكوى ولا عليّ حرج.

(عام 2008 يذلّني عشقي.)

لكنّها أيّام مُرّة، حلّتها يَسار بزندها، واحتوائها، وحنانها، وأمثالي لا يحبّون النكران.. إذا أجادوا الغفران، بقي النكران شيئاً فظيعاً بالنسبة لهم.. لا يطيقون فعله..

أنتِ أجملُ أجملِ الألوان التي أحببتها، كَلون دم الغزال، كالأسود في حادثة اغتيال، كاللّحن الذي يطرب الآذان والخيال، وهي أجمل الألوان التي أحبّتني، بيضاء بنزاهة الأشقر تحتال.
وبينما السفن تبحر في مجاعة ماضيكِ، وتعيدها رياحُ حاضرها فترسو، أجلس أنا في الشقّ المحايد بينكما، أروّض ضلعي كي لا تقسو.. مضى على رحيلك سنوات! لكنّها هنا.

أيثير في منابعكِ الغيرة، أنني أقدّرها بشكل لا يوصف أبداً؛ ولا يمكن كتابته مهما حاولت الأقلام، بل إن الأقلام ليست على معرفة... أقدّرها لأنّها دخلتني عبركِ أنتِ، عبر جرح كان مفتوحاً؛ فاحتضنها واحتضنتْه، وبدت على علاقة عشق معه؛ أحبّته أكثر منّي شخصياً.. كانت تجلس مُطبطبةً عليه كلّما بكى، وتُضرم النار في نفسها وفي أيامها كي يأكل!! لم تتشنّج يوماً إزاء رؤية صوره التي مازلت أحتفظ ببعضها معلّقة منذ ساعة رحيلكِ وحتى الآن، بل هي التي تقوم بتنظيفها، ومسح الغبار عنها بين الحين والحنين..

(عام 2008 استطاع آدم خطف يَسار بشكل رسمي.)

عزيزتي يارا؛ تتجلّى في يَسار؛ كسيّدة أو فتاة أو صديقة أو هبة سماء "إن صحّ التعبير"، بشكل لا يصدّق، دعوات أمي.. فأنا لم أقم بشيء في حياتي يستحق عطاءً كهذا بكِبر البحور وبُعد السمواتِ.. أمّا أمي فقد قضت عمرها بالدّعوات! ليأتي الله بيَسار مبتسمة ناطقة بجملةٍ واحدةٍ، تجعلني أفتح يدي المرتعشة، بينما أحمل فيها عدداً لا أعرفه من حبوب الانتحار.. فتسقط من يدي أمانتها؛ ويسقط منّي انتحاري مصادفةً، بشكل مضحكٍ جداً يشبه النُكات..

نعم؛ كنت قد نويت الانتحار، لكن بدون يَسار، لهذا أردّد على مسامعها دائماً؛ تنفّسي يا يَسار؛ أريد على يديكِ تجربة الانتحار.

يا إلهي كم كنت سخيفاً، كم كنت وضيعاً، كحجرِ نردٍ يبدو له التدحرجُ انتصاراً، يُرمى ولا يعرف ما حالُ صاحبِه. أحببتكِ كثيراً، أكثر من حلم ليس حلماً، أكثر حتى من أحلامي، وأسير بالدّعاء على خطوات أمي، فأدعو على قلبي وعليكِ بالنسيان، وأدعو لقلبي ولكِ بالنسيانِ. لكن لا قلبي ينسى، ولا أنتِ ناسية وقطعاً لستِ بمنسيّة... ومن الطبيعي جداً أن يكون هذا مصير الدّعاء عندما تقوم به شفاه الفم لا شفاه الروح.. عن غير قناعةٍ، بلا أمل، إنما أدعو ملتمساً راحة الجروح..

فاجلسي على أجفاني أو تمدّدي، وتحدّي الجفن أن يدمع.. وعليه اصعدي، إنّنا على مرّ الأزمان نتدحرج؛ أليس الانتصارُ حقاً لنا ولو لمرّة، كما من حقّ تراتيل حُزننا علينا أن نخشع؟.

- بيان اصدقني؛ هل لازلت تحبّها؟.
- ربما.
- هذه ليست إجابة!.
- كيف أجيبك يَسار؟.
- أخبرني بما تشعر به!.
- الحقيقة أنني لم أعد أشعر بشيء!.
- لماذا؟.
- لأنّ السؤال عن فتاة لم ألتقي بها منذ عدّة أعوام؛ أراها كاملة وكثيرة، عندما رحلتْ كنت أحبّها جداً، والحرمان زاد الحبّ حبّاً.
- أي أنّك تحبّها!.

- دعيني أعترف لك بشيء.
- اعترف!.
- إنّي في حوزتكِ أنتِ.
- ممم.
- كلّما أردتُ التأكيد أو النفي؛ شيء ما في داخلي يوقفني!.
- ما هو؟.
- هو الوقت.
- الوقت؟!.
- نعم، الوقت، إننا نتحدث عن حادثة عشق حصلت فعلاً، لكن مضى على حدوثها وقت طويل. حوالي ثمانية سنوات.
- المعنى؟.
- أنا أحبّ تلك الفتاة العالقة بي منذ ذلك الوقت، لكن هل لازالت هي الأن تلك الفتاة نفسها؟.
- ربما.
- بالضبط؛ هذه هي الاجابة.

هناك أغفو بين نهد من صيفٍ ونهد من شتاء، معلّقَ الوجدِ... وجدٌ يملأ البسيطة والسماء.. يسألني الطيفُ: هل مازلتَ على العهد؟. فأردُّ: أيا طيفها.. هل مَنْ كانت رّهاناً، مازالتِ الرّهان؟ فأكونَ لها حبّها دونَ انتهاء..

(عام 2008 أتت البشرى. انتهت المدعوّة سنوات الدراسة.)

إن كنتَ تظنّ أنّنا افترقنا، فنحن رغم الفراق، لم نفترق، ونحن أيضاً دون الفراق، لم نلتقِ.. نحن هكذا مجرّد قبلتين، أو عاشقين.. أو نحنُ هكذا مجرّدُ رسمٍ من خيالٍ دامعِ المقلتين كحقائق مقلتينا.. لاذ الحبّ بنا، وترك من أثره أثرَ منديل مُبلّل الطّرفين على خدّينا..

نحن أصدقاء أيلول وتشرين، وحضنِ الفراشات.. نحن الملحُ والسكّر وحبّاتُ البنِّ ورائحةُ الياسَمين.. نحن الخليلُ، إن كنتَ تسمعُ بالخليلِ، فبذكر اسمه يُندي القلبُ الجبين.. والدمع إذا سال مترقرقاً على الوجناتِ، نحن أصلهُ، وللدمِ نحن إذا شئنا الشرايين...

أعرفكَ وتعرفني، فامشي على ساقيَّ إن شئتَ، أو كما أحببتَ على أرقي.. لا يهمُّ أين تمشي..، إني لكَ في المسير كالرمق، فاترك أثركَ كما اعتدتَ لا تنساه.. على العنق..

إنّكَ السؤالُ الوحيدُ الّذي لا أستطيع الإجابة عليه، حتى بعدَ التفكيرِ والدّراسةِ، وستبقى السؤال الوحيد! إنّك لازلتَ وستبقى الكلُّ والكمُّ في معاناتي مع الذكريات والأماني والأمل.. إنّك منتصفي وخذلاني، وأكثرُ ما يهواهُ قلبي هو المنتصف، وأكثرُ ما يعيشه قلبي هو الخذلان، وهكذا سيبقى..

اليوم يسألونني عنكَ؛ فأجيبُ إجابةَ الحائرِ الخجول، وباختصارٍ شديد، بينما تصهلُ في داخلي، ومن داخلي ترفضُ المثول.. أفكّر، كيف أقنع السائلين أنّنا نعيش معاً بكسرةِ خبزٍ وقطرةِ ماء، ثم نغزوا الشمس بألعاب من الخيول.. أفكر وأبقى أهرب حتى لا أقول!

– لكنّها إجابةٌ محيّرة، ففيها لا أستطيعُ التوغل، واعتماداً عليها لا أستطيعُ الخروج!.
– تفكّري باحتلالي كلّي، اتركي نفسي لي؛ لنبقى نحن الاثنين لكِ، هذا أكثر ما أحبّ فيكِ.
– هذا أكثر ما أحببته فيَّ؟.
– لا تدعي بعضكِ يغار من بعضكِ.
– لا أستطيع أبداً.
– لماذا؟.
– الغيرة، أهم ما يميّز الأنثى، الإناث يا خليلي يغارون من بعضهنّ، وعلى بعضهنّ.
– أتقصدين غيرةَ الساقِ من الساق؟.
– وغيرةَ خصلةٍ وحيدةٍ من خصلةٍ تحسّسَتها الأصابعُ أثناءَ اشتياق.

لكن يا صاحبةَ الطّيفِ كيف حالكِ؟ كيف حالُ ولدكِ؟ هل كبرَ كفايةً لتخبريه عنّي، أم لايزالُ بصغرٍ ينمو وينامُ بجواركِ، أو في مجال عينيكِ؟. ماذا تغيّر فيكِ؟ ومن هو ذا الذي يهتمُّ لحزنِ جفنيكِ؟

لقد وصلني السُّؤال من الهواء! أخبرَني أنّكِ تذكرينني وتسألين عنّي باستمرار.. لا أعلمُ ما الذي أخبروكِ به؛ لكنّني تغيرتُ كثيراً، صرتُ أحبُّ كلَّ الأشياءِ الّتي لا تشبهكِ ولا تشبهُ تفاصيلكِ. درّسَتني الأيامُ كتباً، وعلّمني السّفرُ والبشر، كذلك درّبتني على القسوةِ الأحجار...

تخرّجت من الهندسةِ وكذلك من الحبّ. أصبحتُ أكثرَ انعزالاً، ازدادت وسامتي وتمرّدي، أصبحتُ هادئَ المشاعر، ينتابني الفرحُ على شكل نوبات، ويعيشُ في حشوتي حزنُ المهاجر..

وجدتُ عملاً، فعملتُ حتى اقتنيت أشياءَ أظنُّها تافهةً! ثم توقّفَ عملي بحكمِ الظروف التي نمرُّ بها، لم أعد أمشي كثيراً، لكنّ وزني لم يختلف، فأنا إن كنتِ تذكرين؛ مصابٌ بحمّى الخوفِ والتفكير..

حاولتُ تجربة الحبّ مراراً، حاولت إقناعَ نفسي به، لكنَّ الحبَّ لا يمكنُ له أن يُصنَع، وإن كان؛ لا يمكن له أنْ يستمرّ..

التقيتُ يَسار مجدّداً.. في ذاتِ المكانِ الّذي اعتدنا الذهابَ إليه، لا أعرف لماذا وجدَتني في نفسِ مكانِ خيباتي وخيبات الأصدقاء، أو ما الرّسالة من ذلك، لكن هذا ما حصل فعلاً في ليلةٍ مؤلمة جداً من الليالي الموحشة، حيثُ كنتُ أجلسُ وحيداً وأفكّرُ بألّا أكملَ الحياة. بالمناسبة؛ أصبحتُ مؤهّلاً بشكلٍ رسميٍّ لتنتهيَ الحياة..

أظنّكِ تعرفينها جيداً؛ فهي صديقتي المفضّلة، أحمدُ الله كثيراً أنّني لم أستغنِ عنها، فاستمرَّتِ الأيامُ تجمعُنا حتى أثناءَ غيابِنا المبرَّرِ والطّويل بتكرارِه.. إنّها الأيامُ... تزوجتْ قبلَ هروبِك بقليل..

أصبحنا نقضي أغلبَ الأيامِ معاً، ونعملُ معاً، لقد ملأتْ حياتي.
أصبحتُ أحفظُ رقمَ هاتفٍ أتّصلُ به عندما تضيق بي الأمكنة، لكنّني لا أتّصلُ بها كثيراً، فأنا أخشى على يأسي المنتشرِ بي منها.. وأخشى عليها منه..

متورّطُ أنا في ما بعدَ الحبِّ..، في النسيانِ الّذي كلّما شبعَ تقّياَ، كأنما في الذكرى شيء موقوت من شذاكِ يفجّر قلبي المتبول الّذي قد تهيّاَ.. للنسيان قد تهيّأ، ثم تجمُعه صوركِ مواسيةً، فيعودُ ليحملَ منها ألفَ ذكرى، ويسألَني بجرأة: من كان للنسيان يتهيّأ؟.

(عام 2008 أنهت حبيبتي فرحتي. ماذا أفعل؟.
تزوجت يارا!.)

علّمني الحبُّ على أرصفةِ الشوارعِ والأحلامِ أن أتمدّد، أقومَ فأشتم النّيام والأرصفةِ والأحلام وأتنهّد.. أنا الوسيمُ الّذي لا قلبَ في صدره بل هو ليس سوى عاشقٍ ألحد.. وقبلَ البكاءِ بالبكاء أنشد، قبلَ الإنشادِ بالإنشاد ألحد، قبل الإلحاد بالحبّ تشدّد..

علّمني الحبُّ أن أغلي وأن أتجمّد، أن أطيرَ من على الخرائطِ مثلَ الفراشاتِ، ومثلما تعودُ الفراشاتُ أتردّد.. علّمني أنّ أنا ليس أنا، وأن أبقى على سبيل النّومِ، قبلَ النّوم؛ أقطفُ السّنا! وما بين الأمس واليوم أتعدّد..

علّمني أن أنحت صوتكِ في الحُجاجِ والأحداقِ، أن أترك وجهكِ تراتيلاً تحفظها المآقي، علّمني الحبّ أن يكون الحبُّ في أعمق أعمقِ وصولٍ من أعماقي.. وأن أعشق فمكِ مُبتلّاً، مبتلّاً على اندفاقِ، علّمني أن أجلس العمر على جسمِ قَصِّكِ أتعبّد..

علّمني الحبُّ أن أجرّبَ كل المعابِر، أن أعيشَ وراءَ ما خلفَ السطور، تحت المشاعِر، علّمني أن أعلّقَ على الأهداب قلبيَ المُغامِر، وبالشوق للأهداب أتفقّد.. علّمني أن أرقصَ على لحنٍ ارتدى الخسائِر، وبالألحان والخسائِر أتجسّد..

من ذا الذي يتطاول عليكِ؛ وحبّكِ أولُّ درسٍ وآخرُ درس، وفهرسُ كلِّ الكتاب.. علّمني الحب أن أغترب، أن أضطرب، أن أتحدّث حتى مع الذباب، علّمني كيف ألملمُ روحي، وأركض؛ أركضُ خشيةَ وجهك الجذّاب، ثم أعودُ إلى وجهكِ سيّدتي، وفي الوجه أتبدّد..

علّمني الحبُّ كيف أتحسّسُ خيالاتِ عطركِ على المرايا.. وكيف أجدكِ حين يدفنكِ الحوار، علّمني أن أفتحَ للرّيحِ النوافذ، لعلّكِ من رحم الرّيحِ تولدين، أو من رحم المحار.. لأجلكِ خُلقَتِ الكلمات؛ ولمّا كُتبتْ لكِ يا مليكتي، وُصفت بالأشعار.. وبالأشعار في مقام حضرتكِ أتودّد..

من قال أنّ الحياةَ كتابٌ قد أخطأ؛ فالحياة أنثى مثلك، تدقّ بيديها مرّةً، وبعينيها مرّةً أخرى، وقد لا تدقُّ على الباب.. ولا يغطّيها السحاب، ولا يغريها انسحاب، إلّا عندما يسألني القلب بجرأة؛ من كان للنسيان يتهيّأ؟.

- بَيان؛ من قال أنّ الحياة كتاب؟.
- الحياة.
- الحياة!.
- نعم؛ ومن يستطيعُ أن يقولَ عنها إلّا هي؟.
- ويارا؛ هل هي كتاب أيضاً؟.
- يارا؛ هي الحياةُ المجرّدةُ من ال التعريف.
- أين هي الآن؟.
- لقد رحلت عن البلاد منذ زمن؛ عرفتُ بعد ذلك أنها تقيم في بيروت وقد تزوجَت وأنجبَت، وأظنّها تعملُ هناك.
- منذ عدّة أيام؛ تحدّثتُ مع أدمَ، فهو أيضاً يقيمُ في بيروت بعد انفصالنا.. لكن أخبرني متى قُطعَت أخبارُ يارا عنكَ؟.
- لا أذكر بالضّبط.
- تقريباً بالتزامن مع الحوادث هناك؟.
- نعم؛ كأنّكِ تريدين إخباري بشيءٍ ما؟.
- كانت على قيد عمل في شركة آدم في بيروت!.
- قولي ما تريدين قوله يا يَسار!.

– لن تأتيكَ أخبارُها بعد اليوم؛ حاول ألا تنتظر.
– هههه؛ لماذا؟.
– علمت من آدم؛ أنّ زوجها غادر بيروت إلى القاهرة بصحبة ولدهم.
– وما المشكلة في ذلك؟.
– أنها هي أيضاً غادرتْ بيروت.
– مع زوجها إلى القاهرة أم إلى مكان آخر؟.
– إلى السماء.
– ماذا!.
– اثبتْ يا بَيان؛ هذه الاستاذة "جميلة" استاذتنا في الجامعة، علينا إلقاء التحية.
– بالطبع؛ بالطبع.

– يَسار: أهلاً استاذتي؛ كيف أنتم؟.
– الاستاذة جميلة: أهلاً بك يَسار؛ أنا أحملُ الاسمَ فقط لكنّ وجهكِ هو الصورة.
– يَسار: أشكركِ جداً.
– الاستاذة جميلة: أخبروني كيف حالكم؟
– يَسار: الحمد لله؛ وأنتم؟.
– الاستاذة جميلة: لا بأس، هذه ابنتي جيانا هل تذكرونها؟.
– بَيان: جيانا هي التي تحمل صورة اسمكِ استاذتي.
– يَسار: بالطبع؛ نذكرها، كانت تحبّنا وهي صغيرة.
– الاستاذة جميلة: أظنّها تحتفظ بحبّها لكم كأمّها، لقد كنتم تشكّلون مجموعة مميّزة. ما رأيك جيانا؟.

- جيانا: نعم؛ أحبّهم.
- يَسار: شكراً جيانا، نحن أيضاً نحبّك.
- بَيان: تفضّلوا بالجلوس معنا.
- الاستاذة جميلة: أشكركم، أسعدتني هذه الصّدفة.
- يَسار: شكراً استاذتي، أسعدتنا أيضاً بعد الغياب.

_____

- أخبريني كيف عرفتِ بوفاتها؟.
- قمتُ بالاتّصال مع آدم لأطمئنَّ عليه بعد حوادث بيروت؛ لأنّ مقرّ الشركةِ في مكان خطر، أخبرني أنّها كانت في المقرّ تنهي أعمالَها بعد أنْ قرّرَتِ العودةَ إلى دمشق.

!!

- قرّرت العودة إلى دمشق! لماذا؟.
- تريد رؤيتك. هكذا قال آدم.
- أنا؟. بعد كل هذه السنوات يا يَسار.
- من سواك!؟ أنت حبيبها.

****

قارئي العزيز..
هذه الصفحة تركت فارغة لتكتب عليها ما تشاء.

(٧)

آذار ٢٠١٦

- نظرتكَ هذه للأفق؛ توحي بأنّكَ متعبٌ جداً؛ أرِح النافذة قليلاً.
- أنتِ كيف تنظرين؟.
- كما تنظر أي أنثى.
- أأبدو مكشوفاً إلى هذا الحد؟.
- أبداً؛ لكنّي عندما أنظر إليك أراكَ بقلبي لا بعيني، أولستَ ولدي؟.
- ولدُكِ الذي لم تنجبيه، فلم يرث منكِ سكّر وجهكِ!.
- لكنّه حلواً بما يكفيه ويكفني.
- سيظلّ حلواً طالما أنّكِ تنظرين إليه.
- هل سنموت هنا؟.
- لا؛ ربّما يعفينا الله من الموت هذا العمرَ يا يَسار.

على الطرفِ المُقابلِ من شرودي؛ كانت تمشي، كأنّها المدعوّةُ الوحيدةُ لزِفاف قصيدة.. ربما كانت القافيةَ الأمَّ، أو الأقلامَ والدفاتر أو أحدَ عناوين الجريدة، هي حُسن اللّقاء لروحٍ تعيشُ على دينٍ وعقيدة، وعيناها في النشوة، والطلب، والأنوثة؛ فضيحة.. تفاصيل وجهها كتفاصيل وجه القدس، رغم وجودِ الأشقّاء لكنّها بالشّقاء جريحة، هيَ كأوطانٍ ليست أوطانَنا مُستريحة، وإن كانت تشبه وطننا العربي، عندما تجلس على الأُرجوحة...

أضف على ذلك أنّها متهمّةٌ بالحبّ، على أثر نظرةٍ؛ والحبّ في بلادي من أكبر التّهم. نصحو في صباحه حامدين الله الذي خلق لنا الدمع؛ والقِيم.. وشاكرين أولئك الذين عمّروا المشانق الشرقية، لشنقِ القبل..

كانت قمراً؛ والقمر يشبه الثكالى أحياناً.. (عندما يتوه عنه أحد نهديها؛ أو إحدى شفتيها، وألماس الأصابع.)؛ تحاول الخلاصَ مما أثقل الأيام؛ فتطلبُ الموسيقا لتبكي؛ والنبيذ؛ لعلّه يسهّل الكلامَ عن أسباب الدّمعِ مستغلاً تخدُّرَ المدامع..

حينها رُجمتْ؛ رجمها الرّفاق؛ والحاضرون كلّهم؛ رجمتها زوايا الرواق. انهالت عليها الشتائم سكبَ رصاصٍ في معركةٍ كبيرة... حتى لم يتركوا منها جزءاً إلّا قتلوه أو قاتلوه، ثم قاموا منها إلى الحياة؛ يبكون قلوبهم المكسّرة، والندبات الّتي لم تخيّطها الأيام.

(عام 2009 تبدو الحياة عالماً فارغاً. توفي أبي!.)

ابكي يا ديانا، يوماً ما ستكبرين وتفهمين كلَّ ما حدث سيأخذكِ عقلكِ في رحلةٍ بين الذّكريات؛ فتتذكّرين وقتاً.. حبّاً، ابتسامةً، حزناً، وتتذكّرين شاباً أحببته بكلِّ براءةِ هذا العالم؛ إذا ما افترضنا أنّ أعمار سكّانه بين يومٍ وسنةٍ وعشر سنوات فقط.. وجميعُهم من الجنس اللطيف..

ثم تروين القصّةَ لأولادكِ وبناتكِ وعندما تصلين إلى النهاية؛ تقولين لهم: "لكنّه ذهبَ.. ذهب كجملةِ سحاباتٍ عبَرَتِ المدينة، تاركةً فيها أثراً بسيطاً، لم تمحُه كلُّ الليالي الّتي تلتِ الرحيل.. لقد أحببته كثيراً وكان يعلمُ بحبّي رغمَ كتماني له.".

نعم؛ لقد ذهبَ يا ديانا؛ كرجلٍ خمسينيٍ يائسٍ، بملامحَ بائسةٍ وخطواتٍ بائسة.. ذهب بكيسِ أملٍ مثقوب، آملاً أنْ يتغيّرَ هذا العالمُ العابسُ بعضَ الشيء، كي يصبحَ قابلاً للحياة... وعلى تتالي خطواتِه؛ سقطَ منه الأملُ حبّةً حبّة حتى انتهى.. وحده الكيس بقي معه، وعندما رآه فارغاً من محتواه، فهمَ أنّ دوره بالزوالِ آتٍ لا محالة...

ترنّحي يا ديانا.. كالسُكارى، أو ابكي على ما فعله الحاضرون والرّفاق والرّواق؛ لابدّ من يومٍ ترقصين فيه على ذكرياتهم، أو على ترابهم ولو بالبُكاء.. إن لم نكن نحن السبّاقين إلى التراب.. وإن كنّا كذلك ففي التراب رحمةٌ تفوقُ رحمةَ الدنيا.

سأحاولُ الآنَ النّومَ على ذكرى حبيبتي؛ أكملي أنتِ الأشياء من الرّقص أو الترنّح أو البكاء. يا ديانا؛ إنّ الحبيب الّذي لا تعطينا إيّاه الحياة، يصبحُ حياةً أُخرى؛ نعيشها بعدَ حياتِنا أو قبلَها؛ نعيشُها في فواصلِ الحياة الأصل، نعيشُها كبعضِ جرعاتِ الأوكسجين، الّتي نأخذُها على وجهِ السّرعةِ والإسعافِ دائماً لنكملَ من خلالها الطريق.. وأنا أحدُ أولئكَ القومِ الذين يعيشون بهذي الطّريقة..

فسامحي قلبي واغفري له لا مبالاتِه؛ إنّه في إقامةٍ جبريةٍ سابقةٍ، لم يغادرها منذُ زمنٍ بعيدٍ جداً، لذلكَ لم تجديه حين طرقتِ الباب عليه! وعلى فرض أنّه لم يكن كذلك؛ ووجدتهِ؛ لَما أحبّكِ.. لقد فرضوا عليه الحظرَ منذ الساعات الأولى بأعينهم؛ حدّدوا له طريقَ وطريقةَ وجوده بإشاراتِ أصابعهم، وما كان الطريقُ والطريقةُ يناسبانه!

عاتبوه حتى على تواجده في صدفةٍ، عاتبوه على نبضاتِه، نبضاته الّتي لا يعرفونَ أنّها كالسّياطِ.. وقصّوا له جناحيه، لقد ألبسوه يا ديانا؛ أثواباً ليست أثوابَه، وربطوا له أصابعَه ببعضها، فظهرَ بتلك الملابس

الّتي لم يحبّها أبداً، وما عاد بوسعه تغييرها حتى اتّسختْ واتّسخ معها، وحين أذهلَهم انفجارُه كان قد انفجرَ حسرةً..

كانوا يخافون من حضوره الجاذبِ للقلوب، لكنّهم ما عرفوا أنّه وبعد النجاة من عشق "يارا"؛ أصبحَ لا يطمحُ لأيّ شيءٍ في الحياة، وإنما يكملُ الأيّامَ ويجاريها من مُنطلقِ الصّبرِ على وجودِها لا شغفاً بها.. ولأنَّ النهاياتِ لا تأتي بالضّغط على أحد الأزرار!

لم يستطع يوماً تفسيرَ خوفهم، أو إيجادَ الذّنبِ الّذي ارتكبه! حتّى حضورُه إن كانَ مذهلاً أو لم يكن، فهو بالتّأكيد لم يكن مصطنعاً أمامهم أبداً، لقد كان إحدى هدايا السماء.. على كلِّ الأحوالِ إنّه تعبَ الهروبَ. إنّهُ لم يَعد مذهلاً حتماً؛ لأنّهم غيّروه.. ولأنه فقط تعبَ الهروب.

لطالما وجّهوا لقلبي الكلماتِ والنظراتِ الّتي تعني في الواقع؛ اذهب! لطالما سكبوا على نارِه النّار؛ وأحرقوا ما بقيَ منه ومنّي متورّطاً في ما بعد الحبِّ؛ بصفته "ناجياً".. في عالمٍ بعيدٍ تمامَ البُعدِ عن عالمهم. كانَ صغيراً حدَّ الضياعِ، وكبيراً حدَّ الرضا والاطمئنان...

سامحيني لأنّني لا أستطيع التعبير؛ على الرغم من بساطة التعبير، فنحن أبناءُ جيلٍ عاشَ ويعيشَ على ما تسمح به الحياة والأيام. كنت مجبراً على ألّا أكون على سجيّتي؛ كنت مجبراً على إزاحتكِ من مجالِ بصري؛ وإزاحة بصري عن مكانكِ.. حتى حملتُ معجماً للمفرداتِ الّتي أستعملها عادةً، أو دعيني لا أكذب عليكِ هنا؛ لقد حملتُ معجماً كتبوه لي، وحين بدأتُ استعمالَه، بدوتُ جافّاً ومغروراً، كما أبدو لدى الغرباء الّذين ينظرون إلي للمرة الأولى!.

(عام 2009 أعيروني عقولكم؛ كي أستطيع الاستيعاب.)

إن كنتِ تعلمين ما يَعنيه وجودُكِ القسريُّ في مكانٍ لا يرغبكِ فيه أصحابه، أو ما يعنيه الوجودُ بصفةٍ محددة لكِ وبنطاق معينٍ لا يُسمح بتجاوزه؛ فإنّي وقلبي كنّا هكذا.. وإن لم تكن هذه التجربة قد مرّتْ عليك؛ فحاولي تجنّبها في القادمِ من الأيام..

لذا فقد كانَ الرحيلُ اختياري؛ فرحلتُ عنكِ ورحلتُ عنهم، رحلتُ عن رغبة كاملةٍ في الرّحيل، أجرّ آلام الرحيل معي، لفظتُ أنفاساً لا أنساها أبداً، وانحشرَت آلاف الكلمات في حنجرتي، ولو أنّ لي قدرة على قول الكلمات مجتمعةً لكن لا على التتالي؛ لظنّ الباقون من كثرتها وصداها، أنّها نهاية الدنيا...

لقد علَّموني فنَّ التّجاهل، ثم أسقطوني بتهمةِ الّلا اهتمام (كما أسقطتِني أنتِ) أو اللا مبالاة، وأثناءَ السّقوط ابتلعتُ الكثير من الكلمات؛ توقّفتْ عمليةُ الهضم في المَعِدة، غصَّتِ الأمعاء، وسألَتْ متشنّجةً: ماذا نفعل بالزائراتِ الغريبات يا قوم؟. بقيَ السؤال يتردّد في كل أجزاء القوم، حتى جاء الأمرُ من الدماغ؛ أنْ سهّلي لهنّ العبور فقط. لكنّه جاء متأخراً جداً! كان العفج قد بدأ بالتمزّق.

كيف أحبّك يا ديانا؟ وأنا مغيّبٌ عن الحاضر، مكبّلٌ بالماضي، مطرودٌ كما أنا.. وأنتِ تطمحين لقصّة حبّ أبديٍ؛ بسبعة أرواحٍ لا يُميتها أيّ موت، لحبيبٍ يغنّجُ الأكتافَ والرقبةَ والمعصم، ويقولُ لَكِ: أحبّكِ. على رأس كل ساعةٍ، وفي كل ليلةٍ، وكلّ صبحٍ، ثم يأتي إليكِ بهداياهُ من لهفةٍ وشغفٍ وراحةٍ وأمان، وألعابٍ وماكياج وحلوى؛ ممتنّاً لوجود حضرتكِ في حياته...

ليست المشكلةُ فيما تطمحين إليه، أو ما تفكّرين فيه! وليست في رسوماتِ الحبّ الّتي قمتِ برسمِها لحياتكِ؛ وليست أيضاً في البطل الّذي اخترتِه واختارتْهُ خيالاتُكِ، فهذه حرّيتُكِ؛ وليس من شأني الدّخولُ إلى مساحاتكِ لأقومَ بتعديلها والغطرسةِ فيها، المشكلةُ يا عزيزتي فقط أنّي لستُ ذاك البطلَ الّذي تطمحين إليه... لستُ الّذي يمثّلُ دائماً بغضّ النّظر عن وجود التّصوير أو عدمِ وجودِه، ولستُ الّذي يكونُ ممتنّاً لوجودِ شخصٍ في حياتِه على اختلافِ الصّفةِ والأهميّةِ والأولويات، إنّني أعيشُ وحدي، أقاومُ وحدي، أقولُ وحدي، أسمعُ نفسي، أطلب منّي، أخرجُ معي، أعبثُ بي، أتنفس أو لا أتنفس، و وجبة الغداءِ خاصّتي ساعتان من تفكيرٍ في فكرةٍ لا يهتمُّ أحدٌ بها على الإطلاق، والعشاءُ هو الإبحارُ في الآفاق بواسطة يَخت السّؤال "لماذا"، أو الصّعودُ إلى قمّةِ جبلِ النّدم والانتحارُ من هناك...

(عام 2009 أُريدني فقط. أحاول ايجاد عمل. لكنّني لم أوفّق على الأقل؛ حتى الأن.)

بعدَ الرّحيل؛ أرسلّ اللهُ لي طيراً، ينامُ على شبّاكِ غرفةِ نومي ولا يغادرُ، يزقزقُ لي بينَ الحينِ والآخر، مخبراً إيّايَ أنّني لستُ وحدي، طالباً منّي النزولَ من على جبلِ النّدمِ الّذي أصعدُه كلَّ ليلةٍ بسعيٍ للموت؛ لكن مشياً لا انتحاراً، أمّا أنا فكلّما حضّرتُ نفسي لأفتحَ النّافذة عليه، وأخبره بموافقتي على طلبه! أشعرُ بالخوفِ، أخافُ من أن أكونَ السّبب في فقدانه لإحساسِه بالأمان.. الأمان الّذي يتركُني في اللّحظةِ الّتي أستلقي فيها على فراشي، فلا أنامُ أبداً..

كنت أراكِ؛ بل أحبّ أن أراكِ.. لكنّني اعتدتُ المراقبةَ من بعيد؛ علّمتني الحياة أن أتركَ مسافةَ أمانٍ بيني وبين الآخرين، ثم أتركَ

تجاوزَها لهم، فعندما يقتربُ منّا أحدُهم بقراره؛ ثم يبتعد بقراره؛ لا نشعرُ بالحزنِ كما لو أنّنا اقتربنا بقرارِنا وابتعدَ بقراره.. حتى لو كانت النتيجةُ واحدةً؛ ألا وهي الابتعاد..

المشهد السابع: ميمنةَ المشهد؛ فتاة من العشق خرجتْ، هامتْ بك، لوّحت لك من الأفق، قبّلتْ روحكَ، انتظرتكَ تتحرّك، صبرها طويل، خلقها حسن، دعتْكَ، فخجلتَ وجاء الجواب بالرفض. واختفت في ميسرةِ المشهد.

يوم سحبَتْني من النافذة إليها؛ جلستُ مع يَسار؛ فتحتُ لها نوافذَ قلبي، وقصصتُ لها حِكاياتي وحكاياتِه؛ أخبرتُها عنكِ وعن اللواتي أتينَ يقطعنَ مشيمةَ ماضيَّ، أخبرتُها.. عن ضحكاتهنّ المستهزئةِ به، والمشكّكةِ فيه، وما بين كلِّ خبرٍ وخبر؛ أردّدُ بأعلى وأخفضِ صوتٍ لديَّ، إنَّ المشكلةُ في الحبّ..

يومَها أخبرتها.. أنّني لطالما كنتُ معشوقاً، كنتُ خليلاً؛ بذرةً سُقيت بكلِّ ما لذَّ طعمُه وطابَ ذِكره، وعليها سُلّطَت شلالاتُ حبٍّ فأنبتَت منها عسلاً على شكلِ وردةٍ جوريّةٍ تفوحُ منها روائحُ ياسمينٍ له حجمُ حنانِ أمٍ تُمسك وليدَها البكرَ للمرّةِ الأولى له ذلك المدى... وما بين البذرة والوليد، أردّدُ على مسامِعها، بأعلى وأخفضِ صوتٍ لديَّ، إنَّ المشكلةُ في الحبّ..

حينها كانت صامتةً؛ تستمعُ لي بحواسّها "السبعة"، وتتفاعلُ مع الخيباتِ كأنّها بطولاتٌ لا تمتُّ للخيباتِ بأيِّ صلةٍ.. وأثناءَ حديثي عن الانطواء والعُزلةِ وشعوري بالوحدة، ضحكتْ، بل كادتْ تقلب على ظهرها من الضحك! كان هذا دليلاً صارخاً على أنّني ذكرتُ معاناتها؛

لا معاناتي.. وأنا أردّدُ على مسامعها بأعلى وأخفض صوتٍ لدي؛ إنَّ المشكلة في الحبّ..

ثم أخبرتها أنّني لمّا أنسَ بعدُ.. كلَّ الّذين مرّوا على حياتي فزادوها ألماً؛ وعبثوا بروحي تجريحاً، كلَّ الّذين قدّموا لي الحبّ؛ وقدّمتُ لهم التّجاهلَ حباً فيهم.. أو مراعاةً لظروفهم، رغم قناعتي الكاملةِ بأنّ الحبّ لا يعرفُ أيّ شيءٍ عندما ينضجُ ويسير؛ إنّه يسيرُ مسيرَ الدبّاباتِ الّذي لا يوقفه أيُّ حاجز، ولا يوقف خطواتِه إلّا الانفجاراتُ الكبيرةُ، المشابهةُ للانفجار حسرةً..

(عام 2009 مكسّرة أجنحة أمي. لا تستطيع الطيران بجناح واحد.)

كلُّ الّذين سرقوا منّي أشخاصاً لا أشياءَ فقط؛ بحجّةِ أنّهم فَقدوا أو ظُلموا أو احتاجوا!! سيبقى قلبي عدواً للسّارقين والمسروقين أيضاً، كل من ساهموا في تشتّتي، وأشعلوا في داخلي فتيل الحقد، ثم كسروا دائرة المحبّة الحقيقيّة الّتي كنت أتمنّاها وأرسمُها وأضعُ قلبي في داخلها، بمحبّتهم المزيّفة..

أخبرتها عن كلِّ الّذين ساهموا بقتل شغفي يا ديانا؛ وفتحوا ساحاتِ الإعدامِ لأحلامي البريئة قبلَ كلِّ شيء، كذلك خدودي البريئة. أولئك الّذين قسَوا عليَّ بحجَّةِ أنَّ الحياةَ دروس.. وبابتسامٍ قالوا لي: هيّا تعلّم.

(عام 2009 لا داع لطيرانها. فقدت أمي.)

اليومَ أجلسُ أنا؛ وذكرى أولئك السابقِ ذكرهُم، مع دروسي الّتي تعلّمتها؛ والكسور الّتي باتت كسيارةِ تاكسي تجوبُ مناطقي وأجزائي

كلّها... نتحدّثُ مع بعضنا بكُرْهٍ شديدٍ جداً؛ متفادين النّظرَ في وجوهنا المتقابلة، كأنّنا لم نكن نريد التقابل أبداً، لكنّها أيضاً؛ الأيّام..

أتدرينَ يا ديانا.. لقد وقعتُ فيكِ كثيراً، كنتُ أحياناً في نفسِ مكاني الّذي كنتهُ معكِ؛ وأحياناً أُخرى في مكانكِ أنتِ.. فضعي قلبكِ على الطّاولة وأكملي القراءةَ بصوتٍ عالٍ.. لعلَّ الخبرَ يشفيه بعضَ الشّيء..

في أكتوبر العام ٢٠١٣، بالضبط في الخامس والعشرين منه؛ عند الرّابعة مساءً.. كنتُ واقفاً في إحدى السّاحات العامّةِ، لِساعتين متواصلتين في انتظارِ فتاةٍ طلبتْ موعداً هاتفياً لِترى بعضَ أعمالي الهندسيّة؛ كانَ منطقُ اللّقاء هو العمل..

لكنّي لا أحبُّ الانتظارَ أبداً، لم أتعلّم بأنّه من الغباءِ فقط. بل إنّه من الأشياء الّتي ترهقُ أعصابي بسرعةٍ فائقة، رغم ذلك، استمرّ انتظاري.. شيءٌ ما جعلني أنتظر بلا أيّ تذمرٍ أو مللٍ، لدرجةِ أنّني ضحكتُ مستغرباً من نفسي وبدأتُ أفكّرُ في ذلك الشّيء الّذي جعلني أبقى منتظراً متفرّجاً على المارّين هناك، وفُرجةً لهم..

اسمها "آيات"؛ وقد جاءت إليّ حقاً مَجيئَ الآيات، مدّتْ يدها قائلةً؛ مرحباً.

مدَدْتُ يدي وروحي تصرخ: حاولي ألا تحرّكي الرّفات.

قائلاً؛ أهلاً، أهلاً.. أأنتِ المدعوّة آيات؟.

ردّ الوجه بخفّةٍ كأنّه دغدغ قلبي؛ فجلسَ على الركبتين مُنادياً؛ أنا شبه إنسانٍ، لا تغرّكِ الصّفات. مشيتُ أنا ومشتْ بجواري الآيات؛ في شارعِ السّوق القديم، تبتسمُ لنا الدّكاكين؛ وتراقبنُا الواجهات..

سقتْني من عينيها وأكْثرتْ؛ وأسْكرتْ..
أثْملتْ حتى الشِعْرَ، وفيه أبْحرتْ..
ووضعتْ قدميها تدوسه حافيةً، وفوق الشِعْر أزْهرتْ..
مرَّتْ عليه بأصابعها، تتفقّد أحرفهُ. في الأحرف استعمرتْ..
ثم تركتْ خصلةً من خِصال شعرها الأسود بين شفتيها؛ فأكْفَرَتْ...

وعلى طاولة الطّعامِ الخاليةِ من الطّعام، بجانبِ نافذةٍ مفتوحةٍ على الجانبِ الغربيِّ من قلبِ المدينة؛ في إحدى زوايا المكان، وبينما الحديثُ عن الأحلامِ، هبّتْ الرّيح قويةً؛ دخلت بعضها من النافذة مسرعةً فارتطمت بشعرها ارتطاماً عنيفاً حتى تطاير. هبّتْ يا ديانا أثناء تعبير وجهي التقطته عيناياَ كأنّهما عدستا كاميرا؛ وقفتُ على المشهد باندهاش مهما تحدّثت عنه، لن أكفيَه حقّهُ، ولا أحبّ حالةَ الفشلِ في التّعبير الّتي أعيشُها عندما أذكره..

(عام 2010 أريد مخالبَ جديدةً، وأنياباً..)

في ذلك المشهد بالتحدي، كانت السّاعة تشيرُ إلى الدّقيقة الخامسةِ والعشرين في فضاءِ السّادسة مساءً، شعرتُ بشيء غريب في قلبي؛ وهو على ركبتيه، مُنادياً: أنا شبه إنسانٍ وأتمنّى أن تغرّكِ الصفات. هنا نظرتُ له باستغرابٍ غاضبٍ؛ كأنّني أسألُه عن سببِ التّغيير! وبتغيير القلب للمقولة، وصلتْ إلى الرّوح؛ فصرخت روحيك يا آيات.. المسي برقةٍ هذا الرّفات...

كانت مذهلةً جداً يا ديانا، لدرجة أنّه لو طُلب مني حينها صناعة امرأة، لصنعتُ إحدى شبيهات آيات الأربعين.. المهم؛ ما أريد قوله لكِ، هو أنّ اللّقاء الّذي بدأ للعمل، انتهى بإعجابٍ لا يقبلُ منطقَ التفاوض.

كنتُ أعيشُ على بقايا أملٍ بأنْ أعيش؛ لآخذَ حقي من الحبِّ الغائب..، كنتُ أريدُ الاقتصاصَ من كلِّ لحظةِ هجرانٍ مرّتْ على قلبي وعلى جسدي مرورَ الأوغادِ، وهما مرميّان على الهامشِ.. رمْيَ الإجهاد.

استطاع عقلي خلالَ ساعاتٍ؛ تركيبَ الأملِ على اللّقاء، كأنّهما قطعتانِ في لُعبةٍ من ألعابِ الاختراع الخاصّة بالأطفال..

عليهما - الأمل واللّقاء - كنتُ ألقي السّلام؛ طوالَ الوقتِ، وبالتّالي كنتُ أُحاولُ الاتّصال بآيات، أو التّواصل معها بكلِّ طريقةٍ مُتاحة، لكنّني لم أجد أيّ ردِّ فعلٍ من آيات؛ وبعدَ عناءِ تلك السّاعات الّتي مرّت بثانيةٍ على مهلها وكأنَّ كلَّ ثانيةٍ كانت بطولِ عمرِ الأرض.. كامرأةٍ لبست كعبَها العالي للمرّةِ الأولى في حياتها بدأت تسيرُ على أرضٍ من أعصابٍ قد أرهقَها الانتظار.. مرّ اليوم الثاني، والثالث، ثم الرابع.. ولا خبر من آيات ولا أيّ فعل أو ردّ فعلٍ يذكر!! فتذكّرتُ أنّ آيات في أحدِ المشاهد كانت تغنّي؛ "لو سلمتك قلبي شو رح تستفيد؟" فهمت بعد أيام المعنى التّائه عني!.

لا بأس؛ أيضاً آيات ذهبتْ كجملةِ سحاباتٍ عبرتْ المدينة؛ تاركة فيها أثراً بسيطاً، لم تمحُهُ كلُّ الليالي الّتي تلتِ الرّحيل. آيات قد رحلت لكنّها لم تختفِ، فقد كانَ حلمها أقوى منّي؛ ومن وجودي، وكانَ المسيطرَ على كلِّ شيءٍ فيها.. فرفضتْ بَيانَ برُقيٍّ عظيمٍ وذهبتْ لحلمِها.. وفي هذا الرّفضِ كنتُ مكانكِ أنتِ..

قد مرّ وقتٌ طويلٌ على الحادثة؛ ولم تختفِ لأنّي أصبحتُ أتابعها على الشّاشات وأبتسمُ لها؛ لقد حققتْ جزءاً كبيراً من الحلم؛ وأصبحتْ إحدى نجماتِ الدّراما في وطننا كما أحبّتْ أن تكون، وكما أخبرتني عندما

التقينا؛ وأنا بدوريَ البسيطِ والمجهولِ الّذي لا يهمها، سأبقى أبتسمُ لها وأتمنّى لِعازفةِ العود تلك أنْ تزدادَ تألُّقاً على الدّوام.

(عام 2010 أبي، أمي، وكلُّ الّذين أحبوكما. غابَ حضورُهم. فما الّذي كنتما تفعلانه ليحضروا؟.)

... في إحدى المرّات؛ قبلَ آيات، وأثناء سيرٍ طويلٍ جداً ومُسلٍّ للغاية، صادفتُ فتاةً؛ على الأرجح كانت في حفلِ زفافِ أحدِهم، أو ربّما كانَ زفافُها وكانت هي العروسَ.. لا أدري!.

في الحقيقة أنا لا أعرفُ اسمها؛ لكنّني أتذكّر تفاصيلَ وجهها جيداً. حفظت في حياتي عدّةَ لقطاتٍ من نظرةٍ واحدةٍ؛ كانت هذه اللقطةُ إحداها..

ضحكتها كانت رائعةً ومُلفتة؛ جعلتني أُحدِّث نفسي للوهلة الأولى، فقلتُ: "لو أنَّ امرأةً مثلَها تكونُ معي، لتغيّرتْ معالمُ الحياةِ كلِّها"، لكنّها كانت مصطنعة، مصطنعة جداً؛ لم يكن هذا شعوري التّاليَ للوهلة الأولى فحسب، بل كان خبراً نقله الوجه لي بأمانةٍ ودقّة.. كأنّه أراد توجيه رسالتِه الأخيرةِ قبلَ أنْ تبدأ ملامحه برحلةِ تغيير، فرماها لأوّل غريبٍ التقى به، لأنّ الغرباء يا دَيانا أكثرُ أمانةً وصوناً.. وكنت أنا ذلك الغريب!

وبعد أن أكملت السّير بعدّةِ خطوات؛ وقفتُ مقرّراً التغلّبَ على تلعثم عينيّ، ثم استدرتُ لأخبر وجهها أنّ الرّسالة قد وصلتْ. وطبعاً.. كان الأوانُ قد فات. لازالت تلك الأمانةُ في خاطري حتى هذا اليوم؛ أحفظُها وأصونُها، وأطمئنّ عليها بين الحين والآخر؛ حتى أنّني كتبتُ لها في أكثرِ من مناسبةٍ فقدان، عبر رسائلِ جداريَ الأسودِ، ففي سنة ٢٠١٢

كانت حياتي على الجدران. كتبتُ لها كما كتبتُ لكِ، ولنتالي، وليارا، وليَسار، ولآيات. في أوقاتٍ متفرّقة من العمر.

بعض الأشياء تعيشُ فينا، في داخلنا، وفي أشلاءِ حياتنا؛ كما تعيشُ الأرصفةُ على الطّرقات؛ بلا أيّ سببٍ أو تفسيرٍ لِعيشها سوى القدر.. كما نعيش نحن في زنزاناتِ الشكِّ والخوفِ والشّعورِ الدّائم بالنقصان والفقدان... والاختباء والغباء والبكاء الّذي لا دمع له ولا نجاةّ منه..، وجلْد الذّاتِ بعصا الأفكارِ المؤلمةِ للمُهجة والوجدان..

والخرابِ المولودِ من الحربِ.. الحرب بين ما مضى ذِكره والأمل والأمنياتِ الّتي لطالما صلبناها؛ والصباحاتِ المشرقةِ بصوتِ فيروز لطالما فطرنا عليها؛ وشعورِ الفرح الآنيّ حينما نجد كنزاً من الشوكولا المُرّة التي قبل الآن؛ مضغتنا ومضغناها..

تمنّيت وجودَ تلكَ الفتاةِ كثيراً؛ بالتّأكيد ليسَ لأنّني أحببتها من تلك النّظرة، أو تلك الابتسامة؛ فالحبُّ بمعناه الحقيقيّ يحتاجُ لأكثرَ من ذلك؛ أنا لم أعد صالحاً للحبِّ أصلاً. وإنما تمنّيتُ وجودَها لأفهمَ ما لم أستطع فهمه كلَّ هذا الوقتِ، وتمنّيت اللّقاء معها أيضاً؛ لأعيدَ لها الرّسالة.. لكنْ ليست كلَّ الأمنيات تتحقّق.

(عام 2010 يعوي صوت الحرمان بي. صبراً يا أنا صبراً...)

بالمناسبةِ يا دَيانا؛ ربّما أكونُ في مكانكِ عمراً كاملاً؛ لأنّي لم أعد أملكُ فرصةَ العودة، فحبيبتي الّتي أخبرتكِ أنني سأنامُ على ذكراها؛ رحلتْ. لقد رحلتْ يارا؛ لا عنّي فقط بل عن الدّنيا كلِّها!.
القلبُ قطعةٌ لا حكمَ عليها ولا تحكّم فيها.. اغفري لي يا دَيانا؛ إنّه القلب.

****

قارئي العزيز.. شكراً لوصولك إلى هنا
هذه الصفحة تركت فارغة لتكتب عليها ما تشاء، أو تكتب لي ما تشاء.

(٨)

٢٠١٦

بيننا حبلُ ودٍ متينٍ جداً، قصّةٌ من اختراعِ الزمان؛ بحظٍّ مشتركٍ، وخيباتٍ كثيرة مرّت عبرَ وريدٍ ثمّ قلبٍ ثمّ رئة، فشريان.. عدّةُ محاولات انتحار؛ بمعنى الانتحارِ الحقيقيّ وغيره.. أيامٌ قديمةٌ جداً بدأت بين الكتبُ الجامعيّةِ بالزّمالة؛ وكانت عماداً قوياً بكلِّ شيء؛ ثم ذهبتْ وآبتْ عدّة مرّات، حتى أصبحتْ جزءاً حقيقياً ثابتاً، متّكئاً، ومكسباً بعد تتالي الخسارات...

حفلاتُ رقصٍ، ودفاترُ أسرارٍ واعترافاتٌ وقصائدُ مضحكةٌ، منها القديمة ومنها الحديثة. جدارٌ أسودُ وُلدَ أثناءَ قِطعةَ قَطيعة، لمّا رأته أحبّته كما أحببته أنا!. مشاهدُ اهتمامٍ وإنقاذٍ واحتواء.. توبيخُ أساتذة؛ وفقدان أصدقاء.. والكثيرُ الكثيرُ من الصّورِ والأطعمةِ والمشروبات والذّكريات والفرحِ والحزن والحقد والنّقاء.. والبعض الذي لا يمكن ذكره من الليل، أسرار الليل واعجازه وخباياه!

بيننا باكورةُ الحبّ، باكورةُ الصّداقة، والتّعارفِ المتجدّدِ بين الذّهابِ والإيابِ المذكورِ أعلاه؛ تصقُله قدراتٌ فظيعةٌ من التعلّق ومن الاستغناء، بيننا حبلُ ودٍ متينٍ جداً، نحنُ ألحانٌ موسيقيةٌ كانت وحيدةً، متفرّقةً، متشتّتةً، واجتمعتْ..

(عام 2010 لا بد أن تبتسم الأيام!.)

يَسار أو حوّاء كما ألقّبها أو أيْسري كما أحبُّ ويحبُّ أيْسري. هي ضِلع آدم؛ وآدم قلبُها، كنتُ أنا أكثرَ العارفينَ بحبِّها لآدمَ؛ ربما هو نفسُه

لا يعرف ما أعرفه، ولا يعرفُ كيف تحبُّه، لو عرَفَ حبَّها؛ لَما استغنى عنها أبداً.. أكونُ الآن آدم!. كانت هي أكثرَ من يَعرف حبّي ليارا؛ ولو عرفتْ يارا ما تعرفه يَسار، لَما اختارت الرحيل أو اقتنعت به.. تكون الآن يارا!. قلبي أَلكَن وقلبها ألكَن؛ نحن الموسيقى وفينا الأبابة...

- كيف حالك أيّها الصّديق؟.
- لا بأس؛ الحمد لله وأنتِ؟.
- الحمد لله، أين كنت غائباً يا عزيزي؟.
- في الدّنيا، هل لديكِ أخبار جديدة؟.
- لا؛ بل نعم، سنخرجُ اليومَ على العشاءِ مع بعضِ الأصدقاء؛ فلا تكن مشغولاً، سأنتظركَ عندَ الثّامنة.
- عزيزتي يَسار؛ على ما أظنّ لديكِ مشكلة بتعريف الأخبار، هذا ليس خبراً!!.
- هههه؛ نعم إنّه قرار.
- عظيم؛ هل لديكم أو لديهم مناسبة للعشاء؟.
- نعم.
- ما هي؟.
- صديقتنا نوّار، تزوجت منذ مدّة.
- أها؛ ستباركون لها زواجها؟.
- هل هناك من يبارك بالزواج فرحاً به! بالطّبع لا؛ دعني أكمل.. بعد زواجها انفصلتْ أيضاً ونحن نريد الوقوف بجانبها!.
- على العشاء؟.
- ماذا تقصد؟.
- تريدون الوقوف بجانبها على العشاء؟.

- بَيااان!.
- لا بأس، من الواضح أنني لا أملك حق الاعتراض؟.
- بالتأكيد يا عزيزي! ولكن لماذا تريد الاعتراض؟.
- لا لشيء هام؛ بعض الإرهاق فقط.
- نحن مرهقون دائماً يا بَيان؛ ولأنّك كذلك فأنت لا تملك حقّ الاعتراض أبداً.. أخبرني ما الذي يُشعرك بالإرهاق بَياني؟.
- لا أعرف يَسار؛ لكن لا تقلقي، نلتقي مساءً.
- كن كما أعرفك بَيان.

(عام 2010 أحاول تدريب نفسي على الرسم والعمل الهندسي.)

يَسار القلبُ يا يَسار؛ وما القلب إلا يَسار.
يَسار؛ لقد تعبتُ جداً، ولا أعرف لماذا! أتعبني الشيء واللّا شيء لكنّها المأساةُ ليست في التّعبِ أبداً، فمن الطبيعيّ جداً أن نتعب! خلقتْ هذه الحياة للتعب. مكمن المأساةِ هو انتهاء البحثِ عن سببٍ دونَ إيجادِ السّبب..

ربما أرهقتني اللّيالي؛ وتجريدي للواقع في الخيال، ربما أرهقني وجودُ الناس؛ وغيابُهم أيضاً.. كذلك كلُّ الكائناتِ الحيّةِ الأُخرى!! ربما المطالباتُ الدائمةُ بالفهم من النّظرات، والاستماعُ بالتفكير الصائب للسُكوت.. والردُّ الواجب على الاتّصالات؛ وفي المجاملات..
والاختلاف الكبيرُ بينهم وبين ما يجري على البال... بي أشياءُ كثيرةٌ وعكسها.. أو الأشياء وما يخصّها من الإضناء.. فمثلاً؛ بي أنتِ، وبي أنا!

بي تعيشُ، تموتُ، وتدفنُ الأشياء.. أنا مقبرةٌ كبيرةٌ جداً لكلُّ هذه الأشياء، عدد ضخمٌ من القبور الّتي لا أسماءَ لها، لا عناوينَ، ولا

تواريخ، ولا تاريخ.. ولكن عليّ تمسيدُ ترابي وترابِها؛ ورثاءُ أصحابي الّذين أصبحوا أصحابها..

قلوبٌ، أرواحٌ، أجساد! كانت تسكن بيتي وأبياتي؛ حتى الآن تسكنني ولو أصبحت تسكن بيوتها! بل وعليَّ سكبُ الماء فوقَ عجينةِ ترابٍ وماء؛ حتى يظهرَ القليل الكافي من معنى زهر اللّوتس في معناي ومعانيها... لعلّي أكون زهرةً من زهراتها.. ولو لوقت قصير ومغفلٍ جداً، ولو كان العمرُ في المنتهى أو منه دَنا..

أأستفيق؟ وقلبي مازال جنيناً ما بَكى! والورد لا يَكبر يا يَسار؛ ما لم يُغرِه النّدى، كيف أستفيق من هذا العالم؟ أو من الوَنى؟ وما أنا إلا جرحٌ على وجه الأزمان، أغراني التّداوي وأغراني عن التداوي الغِنى...

أنا المُشتاق يا يَسار؛ حتى أنّي بمجرّد لفظي أو تذكّري؛ تدمَعُ عيناي، كفاعلٍ هي تدمع شوقاً، وكمفعولٍ به؛ فإن الشوق قد أبكاها.. أظنّك تفهمين ما معنى أن يبكيَنا الشوقُ أو يبكيَ منّا أجزاءَنا؛ عموماً أظنّها تفعلُ ذلك كلاحقتين بفعل الاشتياقِ المطلقِ الّذي تشكّلين أنتِ الآن مصدره... غيابُكِ يفعل هذا..

(عام 2011 أعمل بعض الوقت لأتناول طعامي.. لكن بأشياء لا تمتّ بصلة لهندستي!.)

كما تعيشُ عيناي في دوّامةِ الفاعلِ والمفعول به؛ فتنقسمُ واحدةٌ لهذا وأُخرى للآخر، أي أنّها تتفرّقُ أو تتمزّقُ!! أعيشُ أنا مشتتاً بين يديكِ؛ وأيدي السّابقات؛ مهووساً بالتفكيرِ في اللّاحق، أنْ كيف سيكون؟

وكما تعيش عيناي أعيشُ أنا بين سبّابتيكِ العالقتين بكلّ اختراعٍ يقومُ به الدماغ؛ إحداهُما تشيرُ إلى الماضي، والأُخرى تشيرُ إلى المستقبل، وأنا أنظرُ إليهما!! هههه لا أعرفُ لماذا؛ لكنّني أحبُّ يديكِ كثيراً..

هكذا أعيش؛ على الفاصلةِ الفاصلةِ بين الحلمِ والواقعِ.. كطفلٍ بين أبوين، أو سكّينٍ حادةٍ دخلتْ بالصّدفة بين ضِلعين، وأحبّك، حبَّ تعلّقٍ وصداقةٍ؛ حبَّ جسدٍ لجسدٍ نظيرٍ يعلوه ويسبقُه في كلّ شيء، حبَّ عينٍ بنّية عاديةٍ جداً؛ لعينٍ، كلّما رأينا زُرقتها صرخنا؛ يا الله. أحبّكِ بما أبقاه الحبُّ لي، فأنتِ المُقبلةُ من الماضي، الّتي رضيتْ ببَيانٍ كما هو، وبيارا التي أخذتْ قلبه ورحلتْ إلى السماء بأثرٍ دُفنَ معها في القلب، لأنّها في الحقيقة رحلت منذُ زمنٍ بعيد، وبالأشخاص والأيّامِ والأخطاء والتشتّتِ والاهتراء والضعفِ والاستنزاف..

أجلّكِ كثيراً؛ لأنّي بفضلكِ أصبحتُ قوياً، مرمَّماً، وعدتُ إلى حياتي أُجرمُ فيها، أصبحتُ أرفضُ ما لا أريدُه بطلاقةٍ تامّةٍ أو جارحةٍ ربّما؛ ولم تَعدْ الحاجةُ تجبرُني على القبولِ ولا حتى على التقبّلِ.. وأشكركِ شُكراً كبيراً وجزيلاً وعظيماً لأنّك منحتني الفرصة وعلّمتني كيف أستمعُ لامرأة قتلَها الخذلانُ، وأكونُ بجوارها ثم أحيي فيها روحَ أنوثةٍ جميلة.. وكيفَ أحيا بلا خوف، أشكركِ على الإصغاءِ المستمرّ لأشيائي الغريبة، ربما يكونُ هذا شيئاً بسيطاً يقدّمه الصّديقُ للصّديق، لكنَّها الآذانُ وعلى بساطتها، تلعبُ دورَ الإبهام في اليد؛ فنشعرُ أنّها تستطيع حملَ ثقلٍ ما..

أحمل لكِ؛ في داخلي أشياءَ كثيرة، ربما لا أخبركِ بها؛ ولا تظهرُ على وجهي دائماً، لكنّها تعيشُ لأجلكِ أنتِ دوناً عن سِواك؛ خاصّة عندما أمشي لوحدي مبتسماً مطمئناً بأني سأجدكِ في أيّ لحظة أحتاجُ لكِ فيها،

ولا فرق لديكِ إن كنتُ ماشياً على الأقدام، أو مفترشاً سريرَ موتٍ مثلاً.. سأجدكِ أنا ويجدك كلُّ ما ومن يخصّ بَيان...

(عام 2011 لماذا تخاف من الموت؟.
أليست الوحدة احدى رسمات الموت الذي لا شكل له؟.)

"فلنصارعْ لأجلِ البقاء كما اتّفقنا؛ فلنصارع لأجلِ اللّقاء؛ ومن أجلِ الدّواء، حتى وإن لم نداوِ أنفسنا على وجه الخصوصِ، فإنّنا نداوي غيرنا..."

أليستْ هذه كلماتكِ يا يَسار!؟ لأجلكِ وبكِ، ولأجلي بالطبع؛ لأنني أشعر وكأنها أمانةٌ لدي.. أبقى أصارعُ دائماً وأصارع كلَّ شيء.. تحتاجُ الحياة لأشخاصٍ مثلك يا عزيزتي، كلّما استدارَ الرّأسُ إلى الخلفِ صفعوا وجنته ليعودَ...

ولكن في الحقيقةِ نحنُ نصارعُ دائماً يا يَسار؛ نصارعُ لأجلِ الوقتِ؛ والوقتُ يمضي، نصارعُ لأجلِ البقاءِ، والبقاء يقتل، نصارع ماضيَنا وذكرياتِنا لأجلِ أولئك الّذين يعيشون فيهم؛ ومَن يعيشون في الماضي و الذّكرياتِ يذهبون، نصارعُ لأجلِ اللّقاء؛ واللّقاءُ لو تدرينَ، هو عقد قِران ألمٍ لا فكاكَ منه ولكنّهم لا يشعرون.. نحنُ نصارعُ لأجل المستقبل؛ وهو يأتي إلينا شيخاً طاعناً في السنّ يمشي على عكّاز، ونصلُ إليه بدورِنا صرعى نتيجة صراعٍ مدمّرٍ فتّاكٍ لنخبرَه ونخبرَ الصّراعَ وكلَّ الأشياء؛ أنَّا لا نريدُ العيشَ أكثر!
لذا فمن المنطقي أن تنتهي الحياة عند انتهاء أسبابها، وأن يقفَ الصراعُ عندَ مقتلِ الشّغف!!.

وعلى ذكرِ الصّراع؛ فإنّ بي قسوةً مخيفةً! تقول لي في سُكرٍ ضاحكةً، بصوتٍ مخيف ذي صدىً: أنت أوّل ضحاياي. لا أعرف من يكونُ صاحبَها؛ ولا أعرف من هو ساقيها!! لها حجم جدرانِ برلينَ كلّها، وحجمُ أسوارِ الصينِ بعظمتِها،.. تتكدّسُ في جزءٍ صغيرٍ جداً في داخلي، لا يملكُ القرارَ ولم يتعرّف منذُ ولادتِه على الإرادةِ أو الاختيار!!.

(عام 2011 تضحكني جداً؛ مقولة أنّ الراحة في العُزلة. تقدّم إلي لترى تلك الراحة تحت عيني. أي نضج هذا!؟.)

يخبرونني أنّني أكبُر. لا أعرفُ ماهيّةَ الرّابطِ العجيبِ الّذي يجمعُ القسوةَ بالكِبَر؛ لكنّه (إن كان هذا حقيقياً) بالتأكيد أبشعُ صورِ الكِبَر على الإطلاق، وإحدى صورِ الصِّراع الّتي لا أستطيعُ وصفَها بأيِّ وصفٍ.. دائماً أقعُ بينها وبين نقيضِها ولا أعرفُ ماذا أختار! أليسَ بوسعِنا أن نكبُرَ دون أن نصبحَ قساةً يا يَسار؟

بالمناسبة يا عزيزتي؛ نحنُ الصّراعُ بحدِّ ذاته، وأرضِه، وخياراتِه، ولسنا فقط طرفاً فيه بل نحنُ الحياةُ ونهايتها، نحنُ كلُّ ما ذكرتُ لك!!

أيا ليت العمرَ كلَّه أوّلُه، يا يَسار.. أيا ليت الحبَّ كلَّه أوّلُه!!.

- أتدري؛ أحبّ أن أعيش شيئاً لا اعتيادياً، شيئاً خارقاً.. أو أن أكونَه....
- لا اعتيادياً!! مثل ماذا؟.
- ربما مثلَ سحابةٍ تخترقُ الأجواءَ نائمةً، تقطعُ كلَّ المسافاتِ الموحشة أثناءِ نومٍ ينتهي عندَ التّلاقي.. إنّ السحابات كعلاقة

عشقٍ لا تبدأ بعقد قرانٍ ولا تنتهي بالطلاقِ.. كصياحِ ديكٍ يعلنُ بدايةَ يومٍ ليس من الأيام الموبقة....

– أجلسُ أتأمّلُ أقومُ أرقصُ ألعبُ أركضُ أفرحُ أتعبُ أرتاحُ أغنّيُ حتى أسقطَ.. يقومُ مِن حوليَ الكونُ يلملمُ صدى الآهات... ما بكِ صامتةٌ هكذا؟.

– لا شيء.. أخذني الخيالُ فقط.

– هذا أقصى ما نستطيعُ فعله!.

– الخيال؟.

– بالتأكيد لا أقصد الوقوفَ على إشارةِ المرور الحمراء!!.

– هههههه يا الهي؛ لم أنتبه يا بيان!.

– يقومُ مِن حولي الكون يلملمُ صدى الآهات، ويصرخُ؛ يا يَسار أعطني أرياقَ الحياة، صلّي ورتّلي بعض الآيات.

– هذه أنا؟.

– لا أظنّ أنّ هناك فتاة أُخرى تدعى يَسار في هذا العالم!.

– ثم ماذا يفعل؟.

– من هو؟.

– الكونُ القائم من حولكَ!.

– لا شيء.

– لماذا!!!؟.

– لأنّك لن تجدي الأرياق.

– سآتي أنا بدونها؛ ألا أكفيك يا بَيان؟.

– أما أنتِ؛ كوني قمراً، تسلّلي بينَ الجبالِ، تعالي على العيونِ الّتي تراقبُكِ.. وتعالي إلى قلبي اجلسي عليه؛ يصير القلب مقعداً، أو اسكني فيه؛ يصير القلب بيتاً، تزحلقي عبر الأبهر وانتشري.. اركضي حيثما شئتِ؛ بكِ كلُّ الأشياء تكتفي.

– يا الله؛ ما بك اليوم يا بَيان؟.
– لا شيء فقط أريد أن أكون شيئاً لا اعتيادياً.
– قف هناك أيها الخارق؛ لقد وصلنا.
– ما اسم صديقتكِ؟ لقد نسيت!.
– نوّار؛ حاول ألا تنسى أمامها.
– بالتأكيد سأفعل ما بوسعي هههه.
– بَيااان!!. لا تفعل ذلك أرجوك.

– يَسار؛ أين المكان؟.
– هنا؛ تفضّل.
– لا ادخلي أنتِ، ألا تعرفين خجلي!.
– خجلكَ!! ابتعد ابتعد، لا أعرف كيف تصبح خجولاً هكذا فجأةً!.
– حياتي تعتمد على نظرية النوبات يا يَسار.
– أعرف ذلك.
– لا؛ انتظري؛ انتظري، إلى أين تذهبين؟.
– تلك الطاولة.
– هذه هي السيّدة!.
– أي سيّدة بَيان.
– انظري هناك؛ على تلك الطاولة!.
– إنها طاولة أصدقائي؛ ما بك؟.
– هل هذه الفتاة الواقفة بالأسود هي نوّار؟.
– نعم هذه نوّار؛ هل ستبقى واقفاً هنا؟.
– يا الهي، يا أيتها الحياة، يا أيها القدر، يا أيها القلب.
– ماذا تقول؟ أهذه نوبة جنون أم ماذا؟! ما بك بَيان؟.

"لو أنَّ امرأةً مثلها تكونُ معي، لتغيّرتْ معالمُ الحياةِ كلّها"

"لو أنّها لم تلتفتْ إليّ لمررتُ بجوارها كأيّ عابرٍ آخرَ"

"رُبما ضحكتْ مصادفةً"

"فنجان قوّتي"

"الجدار"

"صباحُ الخيرِ.. كيفَ حالكِ سيّدتي"

"أيَّتُها السّيدةُ، التي لا أعلمُ تماماً ما اسمُها.. وما أدركتُ مِنها إلّا ضِحكتها... إلى اللقاءِ"

"نعم، لا أعرفُها، لكنّ بعضُ الغرباءِ يعلقونَ في صورِ الذّاكرةِ، على أثرِ ابتسامةٍ ولدتْ عن غيرِ قصدٍ أثناءَ التقاطِ العيونِ للصّورةِ"

"ضحكتها كانت رائعة ومُلفتة أيضاً؛"

"كان خبراً نقله الوجه لي بأمانة ودقّة.. كأنّه أراد توجيه رسالتِه الأخيرة قبل أنْ تبدأ ملامحُه برحلة التغيير، فرماها لأول غريبٍ التقى به، لأن الغرباء يا دَيانا أكثر أمانة وصَوناً.. وكنت أنا ذلك الغريب!"

"استدرتُ لأخبر وجهها أنّ الرسالة قد وصلتْ"

"بعض الأشياء تعيش فينا، في داخلنا، وفي أجزاء حياتنا؛ كما تعيش الأرصفة على الطرقات؛ بلا أيّ سببٍ أو تفسيرٍ لِعيشها سوى القدر".

***

(عام 2012 حصل معي موقف ابتسامة. احتفظت بالمشهد.
عرفت أنّ يارا قد أنجبتْ. أصبحت أم.)

قد دخلتُ لأجل عينيك الحزينتين في أمنية اللّقاء؛ بينما أعيش أنا الجزء الذي لا يمكن ترتيبه من الفوضى، دخلتُ ثم انقلبتُ على نفسي.. على دخولي، وعلى أمنية اللّقاء؛ حتّى لامستُ أو كدتُ ألامسُ، حدودَ الإلغاء، ومشيت مع يَسار في شارعِ السّوقِ القديمِ، أسايرُ برودها وأشاركُها الخيالَ، حاملاً معي نسياني للكثير من الأشياءِ وكذلك التّناسي.. كنتُ ثقيلاً في المشيِ لكن لم أتوقّع مقابلتكِ أنت تحديداً؛ ما كنتُ أعرفُ أنّ تكوني أنتِ ذاك الشيءَ الخارقَ الّلا اعتيادي مجدّداً...

كنت قد كتبتُكِ سابقاً على جداري الأسود؛ وكتبتْ لكِ غيبوبتي عني؛ وربما أكون قد زرتكِ و وقفتُ برهة على شبّاكِكِ.. مذ تلك الليلة؛ أو تلك الابتسامة، منذ ذلك الموعدِ الوحيدِ لفنجان قهوتي وقوّتي، ما زلت أسألكِ بيني وبينَ نفسي كثيراً لِماذا كلّ هذا التشبّث بدماغي. كانَ السّؤالُ ثقيلاً علي؛ وكنتُ بالسّؤال ثقيلاً أيضاً، كما كنتُ في المشي. لكن لم أتوقّع مقابلتكِ أنت تحديداً..

لازالتْ رسالةُ وجهك عندي؛ أحفظُها وأصونُها، ربما لو كنت أنا غيري لَما عرفتكِ يا نوّار بعدَ رحلةِ تغيير الملامح التي توقّعتها؛ وكانت حقيقيةً جداً.. فأحدثتْ فرقاً كبيراً بين ما حفظته في ذاكرتي وما رأيته اليومَ بعيني.. فرقٌ أكبر من أثرَ الماكياج والتجميل بأشواط وأشواط..

– ما كل هذه التمتمات بَيان؟.
– لا شيء؛ أحدث نفسي عن نوّار، عن السيدة التي رأيتها صدفة؛ ثم التقيتها.

– عندما سمعتكَ تقول؛ يا الهي. وقف عقلي للحظات، لو لم تذكّرني بالسيدة لَما فهمت.
– كانت ليلة حزينة على ما أظن.
– لماذا؟.
– ألا تكفي معاناة نوّار وغربتها ويأسها لنشعر بالحزن، كان وجهُها شاحباً جداً؟!.
– ربما تكفي.
– لم أكن أعرف بصديقتكِ نوّار!.
– لقد تزوجتْ منذ زمن بعيد؛ أصبح التواصل بيننا سطحياً.
– لم تحضري زفافها؟.
– لا لم أحضر؛ لم أكن هنا!. ولم يعد لديَّ رغبةٌ في تلك الأشياء، بَيان أنت تعلم أنني أحبّ أن تكون حرّاً في حياتكَ؛ وأراعي جداً محبّتك لحريّتكَ الشّخصية أليس كذلك؟.
– مممم.
– لكن لا يمكنني ألّا أسألك إن كنت تحبّها؛ هل تحبّ نوّار يا بيان؟.
– نساء!!.
– نعم نساء؛ هل تحبّ نوّار يا بيان؟.
– بالتأكيد أحبّها؛ لكن إن كنت تقصدين العشق فهذا ليس بعشق.
– ما هو إذاً؟.
– ربما حبّ الأشياء المُتعِبة، أشياء نتمسّك بها في بدايةِ الأمر؛ ثم نفاجئ بأنّنا لا نستطيعُ التخلّصَ منها رغمَ الرّغبة بذلك، نوّار بالنّسبة لي شيءٌ جميلٌ جداً لكنه مُتعِب أيضاً.
– لماذا أو كيف تمسّكت بها؟.

– مثل هذه الأشياء أو المشاهد - التي تعجبنا- نحتفظ بها، وكلما فكّرنا فيها أكثر تصبح في مكانٍ أعمق، غالباً يقتلها الوقت؛ أو يحدث كما حدث مع بَيان ونوّار؛ فبَيان احتفظ بلقطةٍ عاديةٍ جداً أو ربما تافهة بالنسبة للبعض لكنّه لم يستطع التخلّي عنها بعد ذلك حتى فاجأته مرة أُخرى، وتبقى المفارقة بالمفاجئة.

– من بَيان؟.

– أنا.

– ها أنت؛ نعم أنت، اسمع يا أنت؛ بدأت أخاف عليك، أظنّ أنني سأختار لكَ عروساً عمّا قريب.

– تخافين عليّ! لماذا؟.

– مممم؛ سأخبركَ، أتذكر عندما ابتعدنا أنا ونوّار؟.

– نعم، أذكر.

– لقد سألتني عنكَ، حاولت معرفةَ كلِّ شيء؛ وبالتّحديد إن كان هناك ما يؤلّفنا.

– أتقصدين أنّها ما فتئت تذكرني؟.

– إنها أكثر من "تذكرك" بل وتنجذبُ إليك بَيان.

– كيف عرفتِ ذلك؟.

– لقد قالت؛ أنّها تشعر وكأنها تعرفكَ. ولكن نحنُ نساء؛ ونوّار صديقتي منذُ زمنٍ بعيد، طالَما أنّها سألت بهذا الإصرار والغطرسة فهي حتماً تذكرُك جيداً؛ وربما أكثر من ذلك كما أخبرتكَ.

– لذلك عليّ أن أتزوج؟.

– هيييي نعم، انظر إلى هذه الممثّلة.

– مممم ما بها؟.

– أظنّها من الوافداتِ الجددِ لكن يجذبُني أداؤها.

– جذّابة جداً.
– تعجبكَ؟.
– منذ زمنٍ بعيد! يبتسم قلبي عندما أراها.
– لماذا؟.
– لأنّها آيات.
– لا تمزح، هذه آيات!.
– نعم، هذه آيات.
– آيات الّتي أخبرتني عنها عندما كنا نتحدّثُ عن ديانا أليس كذلك.
– نعم، هذا صحيح.
– أظنّ أنّني التقيتها قبلَ الآن.
– أين التقيتِها؟.
– إنها من صديقات نوّار.
– مممم.
– بَياني، أما مللتَ من الحياة؟.
– نعم، مللت؛ كلّنا مللنا من بعضنا، أنا والملل والحياة.
– المشكلةُ هي وجود الحياة على ما أظن!.
– طبعاً!.
– أخبرتني أنّ هذه آيات؛ أليس كذلك؟.
– نعم.
– يجب أن تتزوج يا رفيقي.

لا تكوني مثلَ أولئك الّذين يشغَلُهم السّؤال "متى نفرح بك؟"...
وأنتِ على علمٍ كاملٍ بأنَّ هذه معاناةُ جيلِنا بأكمِلِه، لكلِّ فرحٍ إن أتى يا

يَسار مقوّماتُه.. نحتاج إلى المقوّمات! وعلى هذه الأرضِ لا توجدُ المقوّمات.. حاولي ألا تقنعيني بضرورةِ الزّواجِ، لأنّني سأقعُ فيه يوماً كما فعلتِ وفعلت يارا وآدم والكثيرُ من الأصدقاء أيضاً، ثم ألعنُه وأتركُه، وأركضُ أركضُ دونَ الوقوفِ حتى على أطلالِه بعد ذلك... ماذا سيفعلُ الأولاد هنا يا يَسار؟ في عالمٍ يملؤه الخرابُ والرّصاص والضّيقُ والدّجلُ والكذبُ، ماذا سيفعلون إن هم حلموا بعيش حقيقيٍّ للحياة؟! لا تقنعيني بالزّواجِ لأنّني سأقعُ فيه يوماً ولا أعرفُ كيف.

***

لطالما ظننتُ أنّ ذلكَ المشهدَ والاحتفاظَ به ليسَ سوى ضربٍ من الخيال أو الجنون، حتى جاءت إليه تلك الشّاحبةُ "نوّار" تنقله إلى الواقع.. كأنّ السماءَ أرادَت إقناعي بتآلفِ الأرواح.. يلعبُ السجّادُ دوراً شرقياً غريباً في الأناقة وأيضاً في زيادةِ التّعب.. كما يفعلُ التّاريخ مع اللّباقة؛ وساعةُ "الرولكس" مع الأشخاص... والمشهد معي.. وأنا مع الجدارِ الأسود الّذي صنعتُه بنفسي قبلَ إشراقةِ شمس يَسار عليَّ مجدّداً، لأضعَ عليه غبارَ حياتي وأكتبَ فوقَه بعضَ أحداثي دونَ ذكرِ إحداثيّاتي أو إحداثيّاتها.. لكنّني أهملتُه بعد ذلك.. إنّنا نهملُ التّفاصيل حتّى لو كنّا صانعيها، فالأدوارُ تختلفُ وتتبدّلُ باستمرار..

حتى بعد أن سقطَ القناعُ الجميلُ عن المشهد، وتهاوى الجمالُ أمامَ الحزن العائدِ إلى الصّورةِ "المأساة!" مرتدياً وجهَ نوّار، وجسدَها.. جالساً على دهشةِ قلوبنا، وعلى السّؤال "ماذا نفعل لأجلها؟."... لم أخبرِ الجدارَ بذلك، ولم أترك عليه أيَّ شيءٍ من هذا القبيل.. ما كنت لأستغني عنه بالتّأكيد؛ إلّا أنّني لا أحبُّ الأفعالَ المتكلّفة ولا أقومُ بها حتى مع نفسي وأشيائي.. ولكنَّ بعضَ الأشياءِ تحتفظُ بجماليّتها رغمَ بُعدها وغربتها.

(عام 2012 إن الله يستجيب للدعاء حتى لو كان الدعاء قديماً.
بدأت بالعمل لكن لا أعرف كيف حصل ذلك!.)

نعم كنت جافاً؛ كان الجفافُ يطفو على مقلتيَّ أحياناً؛ ولكن هذا ما علّمني إياه العابرون... العابرون كثرٌ، منهم الحياةُ والوقتُ والمصاعبُ لا الأشخاصُ فقط.. لقد كنتُ بارداً جداً؛ أُعاتَبُ على برودي.. ويعاتبُني برودي على استبعادِه أو يشمتُ بي؛ ثم أهجمُ بشراسةِ فرسٍ رأت وليدها فوق جبلٍ، مدّة اللّمحة، فأحبّت ضمّه وركضت إليه.. لا لشيءٍ إنّما لأستطيعَ دفعَ فواتيرِ الجفافِ والبرودِ فقط.. إنّها حياتنا..

ربما منَ الّلا منطقي ألا ننتهي، ولا نلتقي.. لا نقولُ ثم لا نُسمع!! هكذا كانت أحوالُنا.. لا نركعُ لكن لا نقفُ.. لا نجرؤ ولا نقاوم أو نجرؤُ ولا نقاوم.. كلُّنا كنّا نبحثُ عن النّهاية؛ نهايتِنا أو نهايةِ شيءٍ ما، وكلُّنا كنّا نحاولُ البقاءَ حتى النّفسِ الأخيرِ... لنبحثَ عن بداياتٍ جديدةٍ تنتشلُنا من لعبةِ الانتظار.. هكذا كانت كواليسُنا مثلَ كوابيسِنا.

كانوا يعيشون فيَّ..؛ تيجانُ قلبٍ مليكته رحلتْ ثم رحلتْ حتى تركتُ لوردِهم شهيقَه، وخرجتُ أنا مع الزّفير السّابق.. خرجتُ أجيء على

روحي أبدّلها.. أو أبذلُها؛ وأحمّلُها ما لا تقوى على حمله في كلِّ خروجٍ وكلِّ زفير.. كنتُ دائماً في مكانِ ذلك البعيدِ الّذي ما عادَ بوسعِ ساقيه المشيُ بعدَ بترِ إحدى مجازرِ العشقِ لها؛ أيمشي من فقد ساقيه؟ بالطبع ستجيب بـ "نعم"، إن أنا تركتُ لخيالك مساحةَ الإجابة، وإنّي سأتركها لك حقاً إن أعطيتني وعداً حقيقياً بأن تجيبَني إجابةً واقعيّةً صادقةً...

بل وأكثر؛ كانوا.. حقاً؛ فرصاً جميلةً للحياة؛ لكنهم جاؤوا بعد زفرةِ الشّجاعةِ الأخيرة.. لا أكتبُ نصَّ براءتي بالتّأكيد؛ ولن أكتبه.. ولا أرفضُ ذنباً كنتُ صاحبَه في أحدِ المقاطعِ الحياتيّةِ أو بمُجمَلِها... ولكنَّ وصولي إليهم منتهي الصلاحيةِ، ووصوُلهم إليّ؛ وأنا كلّي؛ هو ذلك الجزءُ المبتورُ مني.. لم يكن ذنبي. لم يستطع العيشُ بعدَ ذلك إقناعي بنفسه، ولم يستطيعوا هم إعادة تدويري... رغمَ الحبِّ والتشبّثِ.. رغمَ المحاولات الكثيرةِ.. رغمَ الحضورِ لسنواتٍ عديدةٍ.. نحنُ اليومَ غرباءُ تماماً...

كنت جافاً وبارداً؛ هذا ما علّموني إياه.. حتى عندما كنتُ طالباً صغيراً في الجامعةِ أو عندما كنتُ طالباً بسيطاً قبلَها.. واجتمعت آنذاك بيارا ويَسار وكذلك آدم.. كنتُ الأقلَّ اجتماعيةً بينهم.. كانت يارا تشبهني ببساطتِها وعفويتها.. بالإضافة لقدراتِها الخارقةِ على العزلةِ والانطواء والصّلاة والدّعاء.. بينما كانت يَسارُ تفوقُنا جميعاً باجتماعيّتِها وكَثرةِ مَن هم حولَها؛ من صديقاتٍ ومعجبين رغمَ اختلافِ طبقتِها قليلاً.. وربما هذا ما لفت انتباه آدم وجعلهُ يلهثُ خلفَها؛ كان صبرُه كبيراً فاستطاعَ نزعَ قلبِها...

في تلك الأيّامِ؛ لم أكن محبوباً ولا مضيئاً ولا متأمّلاً أو إيجابياً.. بل وعلى النقيضِ، كنتُ مُقصىً من الجميع أو مستبعداً ومتردّداً وضعيفاً

حدّ الهشاشةِ.. وحتى الآن؛ لا أعرف كيف أحبّتني يارا! وأتساءل ماذا لو رآتني على ما أصبحتُ عليه لا على ما كنت، ماذا ستفعل إن رآتني بعدما كبرتُ وكبر معي استبعادي وضعفي وتردّدي؟ لكنّني بكلِّ الأحوالِ اعتدت على هذا الأمر.. فهذا ما دفعَ "أيهم" لأنْ يكون صديقاً لي خلال المرحلةِ الإعداديّةِ ومازال حتى الآن؛ وهو مالكُ النسخةِ الأوسعِ من ملفِّ الحياةِ المحكيِّ الخاصِّ بي... لأنّه صاحبُ الثقةِ المُطلقةِ من الأصدقاءِ.. والمقتنعُ الوحيدُ بأنَّ البُعدَ والصمتَ لا يلغي الصّداقة...

(عام 2013 تواصلت معي احدى الفتيات لعمل جديد!. يا الهي. نلتقي أنا وصديقي على فترات متباعدة لنشتم الحياة. شيء من النشوة.)

لن أنكر أبداً؛ أنها كانت مكمنَ قوّتي الوحيد. كان عملها الوحيد؛ زيادةَ ضخ الدّمِ الرئويِّ للأيّامِ عند تنبيه الجملةِ الحزينة لها؛ بالضبط هكذا كانت يَسار. إنّنا نخلق من رحمٍ واحد نتكوّن فيه، لكننا نلتقي بأرحامٍ كثيرةٍ في حياتنا، أحدُها يمنحُنا الفرصةَ على تجديدِ خلايانا الميتةِ، نرمّمُ فيه كسورَ عظامِنا، نأكلُ ونشربُ وننامُ على جدرانِه بأمان خارقٍ لعادةِ الحياة، ربما يرحلُ فيما بعد لكنّهُ يلعبُ دورَ الارتكازِ الثّابتِ والمّهمِ للغاية، دونَ تساوي دافعِ الواجبِ بدافعِ العطاء.. وإنّي بذلك لا أقصدُ أبداً تهميشَ رحلتِنا الجنينيّة وتلك الطّريق الّتي سلكناها أو نسلكُها حتّى وصولِنا؛ ودورُها وأسبابُها وتضحياتُها وفتوقُها التي وُجدت بسببنا أو لأجلنا.. يَسار أيضاً كانت الرّحمَ الّذي قام بترميمي ووضع لي جدرانه كلّها...

حينها؛ بعثرتُ الكثيرَ من ملابسي هنا وهناك، لأشعرَ بروحِ المكان البائس.. ركضت كثيراً لكن لا أعرف أين كنتُ بالضبط، كلُّ شيءٍ كان متشابهاً.. يعمُّه الحزنُ الطّاغي والسّكون.. بعد ذلك شعرتُ بغضبٍ شديدٍ، فشككتُ في بطانته الكثيرَ من الإبر الّتي وُجدّت لأخيطَ بها الجراحَ، وفي كلِّ مرّةٍ غرزتُ فيه إبرةً كنتُ أصرخُ عليه أسألُه لماذا خلقتَ مشوّهاً عقيماً، لماذا لم تكن كوجهها..؟ حتى تعبتُ، فجلست أبكي أنا وأَملي وعقدُ ألماس كانت قد أهدتني إياه يَسار، لأحتفظ به حتى يكون هديّتي لزوجتي.

يحيط بي الذّعرُ كلّما نجحتُ بأي تفصيلٍ مهما صَغُر؛ لذلك أنا متأهب للهلع دائماً.

****

قارئي العزيز.. شكراً لوصولك إلى هنا
هذه الصفحة تركت فارغة لتكتب عليها ما تشاء، أو تكتب لي ما تشاء.

(٩)

بداية ٢٠١٨

كنت أركض بلا وعي؛ في ممرٍّ جدرانُه بيضاءُ، تحتَ سقفٍ أبيضَ وفوق أرضٍ بيضاءَ، حتى الّذين صادفَتْهم عيني كانوا يلبسون الأبيضَ أيضاً.. حتى الذين ارتطمتُ بهم.. كان البياضُ يركضُ معي، بعضُه يسبقني وبعضُه الآخرُ يتأخّرُ عني..

أسمعُ رنينَ هاتفي لكن لا أعيره أيّ اهتمام.. وهو في وجداني؛ صورتُه، صوته، حركاته، توصياته.. ومع كلِّ ارتطام يحدثُ، يعلو صوتُ السّؤال في رأسي؛ ماذا حصل له؟. دموعي تتدحرجُ حولي، حتى كدت أتعثّر بها.. والفزعُ تجاوزَ حدودَ جسدي ليصبحَ مرئياً في أرجاءِ ذلك المحيطِ المخيف..

(عام 2014 الصدفة؟. التقينا أنا ويسار. حينما كنت أفاضل بين البقاء واللا بقاء. ضمّت قلبي اليها بوجع رهيب آخاذ.)

منذ حوالي سنواتٍ عشرٍ كنتُ أجلس بجانبه في قلعةٍ كبيرة تُستخدم للدّرس؛ والآن أذكره جيداً حين قال لي: "عليكِ أن تكوني بخيرٍ دائماً؛ دونما اتّكاء على أحد." وأذكرُ أحلامه، كانَ غريباً كأحلامه الغريبة؛ كأنْ يطوف العواصم العربية كلَّها، ويفشي الخير والحبّ والسلام في كلِّ بقاع الأرض! لو لم يكن زوجي؛ لظننت أنّ وجودَ أمثالِه مجرّدُ فرضٍ أو خرافةٍ مستحيلةٍ..

وصلتُ إلى بابِ الغرفة رقم تسعة. أوقفني أحدهم ممسكاً يمناي بقبضةِ يده اليمنى القاسيةِ السّمراء.. لا أنا استطعت الحراك ولا هو أفلتني.. أبعدني عن البابِ شيئاً فشيئاً ثم قال لي؛ "من الأفضل ألا ترَيه الآن." فسألتُه بعفويّة دامعة؛ "هل سأراه غداً؟."..

إنّه أيهم؛ أيهم الّذي ردّ أخيراً على اتّصالي، بصوتِه الحزين؛ وخبره المرعب! نعم؛ أنا جيانا؛ زوجة الكائن الغريب المتعبِ بَيان.

أمضيتُ وقتاً طويلاً أحاولُ الاتّصالَ ببَيان لأطلبَ منهُ ألا يتأخّر بعودتِه؛ وكنتُ أصرُّ على الاتّصال أكثرَ، في كلّ مرّة تخيبُ بها محاولتي.. حتى بدأ عدّادُ الثّواني على شاشةِ الهاتفِ بالعدِّ، فقلت بلا انتباه: "لا تتأخر فإنّي أنتظركَ." فقال لي: "ربما يتأخّرُ لبعض الوقت؛ لكنه سيأتي حتماً." صرختُ عليه باستغرابٍ أسأله "أيهم؛ أين بَيان؟." حينها أخبرني أنّ بَيان لا يستطيع الردّ على اتصالاتي المتكرّرةِ لأنّه تعرّض لحادثة غريبة وهو الآن في العنايةِ الصّحيّة المشدّدة.

يا إلهي؛ لماذا العناية الصحيّة والمشدّدة!. أغلقتُ الهاتف في وجهه؛ بعد أنْ سمعتُ كلاماً قيل للتّهدئة من رّوعي، اسم المكان، ورقم الغرفة.. وضعتُ الهاتفَ على الرخام.. ووقفتُ أنظرُ حولي وأخطو بعضَ الخطوات بين أثاث المنزل الصغير الّذي كنّا نعيش فيه.. تماماً كما فعلت عندما كان عمري سنةً واحدةً أو أكثرَ بقليل..

رتّبت الصحون التي كنت أحضّر من خلالِها بعضَ الطعام، نظّفتُ المطبخ جيداً، لبستُ أجملَ ملابسي؛ ولم أضع سوى القليلِ من الماكياج، هذه إحدى توصيات بَيان، إنّه يفضّلني هكذا!. وما كان بي أيُّ ارتجافٍ يُذكر؛ أو أيُّ غيابٍ للتركيز... بل على العكس ابتسمتُ ابتساماتٍ عريضةً أثناء المشي! لقد كان استيعابي بطيئاً جداً وبارداً جداً..

لكنّ الدقائقَ التي مرّت من لحظةِ إغلاقي لِباب منزلي حتى وصولي إلى بابِ الغرفة التّاسعة، كانت الدقائق الأطولَ خلال عمري كلِّه. رحتُ أركضُ وأركض كأنّما الموتُ يلاحقني؛ وأقولُ لنفسي؛ "ربما يمازحُني أو يعبثُ معي، أو يريدُ مفاجئتي، إنّه يعتمد على أيهم كثيراً في ذلك." فتهدأ خطواتي. ثم تعودُ لتتسارعَ عندما يحدّثني خوفي؛ مرجّحاً جدّية حديثِ أيهم عن الأمر.. فأنا لم أسمع صوته يوماً بهذا الحزن إلا عندما فارق حبيبته السّابقة. كنتُ أركضُ كالمجانين.. والناسُ ينظرون إلي، مثلما ينظرون لطفلةٍ متعبةٍ تستوطنُ قارعةَ طريق ما.. أو تموتُ على ناصية نزف ما..

- أيهم؛ ماذا حدث لبَيان؟.
- لا أعرف بالضبط، لكنه تعرّض للاعتداء من أشخاصٍ مجهولين حتى الآن، هكذا أخبروني.
- من هم؟.
- عناصرُ الشرطة.
- ماذا قال الطبيب؟.
- أخبرني بأنّهم يحتاجون لبعض الوقت.
- كيف عرفت بوجوده هنا؟.
- حاولت التحدّثَ معه؛ فردّت عليّ الممرضة في قسمِ الاستقبال وأخبرتني بأنّه وصلَ إلى هنا بحالةِ إسعاف؛ وعندما وصلت أعطتني هاتفه؛ ها هو اتركيه معك الآن.
- أيهم!.

جلستُ هناك بجوارِ بابِ الغرفةِ المغلقِ، على الأرض... أحاولُ استردادَ قوّتي الضّعيفة لأقاتلَ بها الدّمعَ قتالَ الرّوحِ الثّائرةِ؛ منتظرةً صوته أو أيّ صوتٍ آخرَ يحملني. جلسَ أيهمُ بجواري محاولاً مساعدتي.. قائلاً: "لابدّ أن ننتظرَ لبعض الوقت؛ سيكون بخير لا تقلقي يا جيانا."، رجوته بأن يخبرني الحقيقةَ، ثم قلتُ له بعبثيةِ الفاقدين: "قل لي أنّه سيعود، حتى لو احتاجَ قلبي أو عمري أو حشوتي كلَّها سأقدّمُ له كل شيء ليبقى بخير، لكن أرجوك يا أيهم، اجعله يعود."..

لقد كان وطني. أنا اليتيمة الّتي لم تفقد أبويها بعدُ... أنا الغريبةُ الّتي لم تسافر قط، لكنّ قدرَها الجميلَ وضعها بين أبوين منفصلين تماماً، فكانَ الانفصالُ درساً قاسياً للغاية. وضعَها القدرُ هناك وفتنَ حظّها ثم قادَه وقادَها إلى حضن بَيان؛ لتقفَ على مشارفِ شخصٍ من المفترضِ أن يكون لها وطناً، ببؤسه ولؤمه وحبّه وقلبه.. كأنّه بعضُ العِوض.. بعد فراغٍ كبيرٍ عاشتهُ وعاشها..

ما هو رجلٌ خارقٌ... إلّا أنّه ليسَ سيئاً أبداً، لم يقع في غرامي يوماً، أعرفُ ذلك من عينيه اليتيمتين، لكنَّه لم يؤذني أيضاً.. كان ممتعاً جداً.. لدرجة أنني ما ضحكت في حياتي مغشيةً كما ضحكت معه.. لم يكن يخبرُني بالحقيقة كاملةً؛ فهو محتالٌ كبيرٌ جداً؛ لكنّه لم يكذب على روحي أبداً.. حتى أنّني على علمٍ كاملٍ بقصّة "يارا"... و "يَسار" أصبحت صديقتي المقرّبة، وتلعب معي دور مفتاحِ الحلّ دائماً.. لا بأس فأنا أيضاً أملك حبيباً سريّاً سابقاً.. وقصصاً عبرتْني وعبرتُها؛ لم يضعني بَيان في موقفٍ محرجٍ يخصّها، بل ترك لي حرّيةَ الاختيارِ الكاملةَ بالتّحدثِ أو الصّمت. إنّ تلك الحرّية أو تلك الطّريقةَ الّتي عاملني بها؛ جعلتني أقدّمُ كلَّ شيءٍ على سبيلِ القلب لا اتباعاً للواجبِ ولا مسايرةً للأهواء.. ولكن لأكونَ صادقةً أكثر؛ عذّبني تاريخُه، عذّبني

وجودُ البعض من الأسماءِ النسائيّة الرنّانةِ في حياتِه وذاكرتِه.. ولولا قناعتي بأنَّ الذين لا يعشقون لا حياة لهم؛ لا لون لهم، ولا طعم أو رائحة، لَما استطعت فهم حياته..

لا بأسَ.. إنّ وجوده في تلك المساحةِ الرماديّة غالباً، ثم طوافَه في المساحتين السوداء أو البيضاء بين الماضي والحاضر من الحياة، يُشعرني بشيء من الأمان، فأعرفُ جيداً أنّه سيعودُ مهما طال به السفر.

انقضت السّاعاتُ، وأنا على جلوسي أشاهدُ شريطُ حياتنا القصيرَ المنسلَّ بين أرجلُ المارّين هناك في مسقطِ نظري.. لا أشبه تلكَ الفتاةَ الّتي استوطنت قارعةَ الطّريقِ، بل كنت أنا هي حقاً. إنّ موقفَ الفقدان مقرفٌ، مقزّزٌ، فظيعٌ، ومريع، لربما يكونُ أشنعَ ما يمكنُ العيشُ فيه. بطريقةٍ ما..، هو مُجهضُ كلِّ شيء..

جفّت مدامعي؛ بدأ النّزفُ يصيرُ في الأعماق.. على أثرِ كلماتِ أيهم الّتي قالها لاحقاً؛ بأنّ بَيان يُعاني من نزيفٍ داخليٍ حادٍ، أُدخل بسببه جناحَ العمليّاتِ، والأطبّاءُ يعملون على أملِ انقاذنا من فقدانه. دخلتُ إلى الغرفةِ الخاويةِ رقم "تسعة"، وجلست على السّريرِ المغطّى بالشراشف البيضاء، و وضعتُ رأسي على الوسادة، بحيثُ لم تعد قدماي تلامسان الأرض وقلت في نفسي: "لعله يرجِع إليّ بعد قليل."..

في تلك الغرفةِ الخاويةِ تماماً من أيِّ شيء؛ إلّا بعضَ الأثاثِ البسيط وبعضَ الأفكارِ والذّكرياتِ الّتي بدأت تمشي متسرّبةً من داخلي إليها.. على تلك الوسادةِ الشّاهدة على أحزان الكثيرين والكثيرات ممّن توسّدوها ألماً حتى موت أو انفراج. طلبتُ من يَسار الحضور بأسرع ما يمكن، كأنّي المريضة لا بَيان... وكأنّها المعجزةُ لا يَسار!. إنّنا نمرّ

بلحظاتٍ سيّئةٍ جدّاً نقبلُ خلالَها انتصارَ الغيرِ من الأصدقاءِ أو الأعداء على حدٍ سواء.. كموجٍ ركضَ مسافة البحر لضرب شاطئٍ أعزلَ تماماً ثم تبدّد! وبقي الشاطئُ على ما هو عليه.

بالفعل؛ وصلت يَسار بسرعة، عرفتُ بعد ذلك أنّها صادفت أيهم في أحد الممرّات، اقتادها إلى الغرفة رقم تسعة.. حيث كنت من هولِ الصّدمة نائمةً على فكرةِ أنّ بَيان سيخرجُ من غرفة العملياتِ سالماً فنلتقي.. وما عاد بي الوعي إلا بدمعةٍ سقطت على خدّي؛ ويدٍ حاولت إنقاذ خصلة من خصلات شعري الأسودِ من إجهاضٍ حياتيٍّ بات قريباً...

لا أعرف بالضبط، إن كانت يَسار حاولت مواساتي، أم مواساةَ نفسها.. كان احتضانُها لي أكثر ما أحتاجُه في تلك اللحظات.. إلّا أنّ ذلك المشهدَ الّذي رأيتُه على وجه يَسار عندما فتحت عينيّ وأنا تحت حنانها؛ كان هزّة قلبيّةً واضحةَ المعالم داخلَ إطارِ وجهها.

ولكن في الحياة يتوجّب علينا التقبّل؛ إنَّ القبولَ يشكّلُ النّسبةَ الأكبرَ من المطالبِ في المجتمع، وأنا كفتاةٍ شرقيّةٍ، احتجتُ لمعلّمٍ يعلّمُني إيّاهُ، ومعلّمي في هذا الشأنِ كان بَيان... بَيان الّذي غيّر قناعاتي وجعلني أشعر بالرّضا أكثر، وأواجهُ كلَّ شيءٍ بثقةٍ أكبرَ.. فانتقلتُ من فتاةٍ تحاولُ تسيّد كلِّ شيء أو تستغني عنه، إلى فتاةٍ تعرفُ كيف تجعلُ من نفسِها مفترقَ الطّرقِ الّذي يمرّ عبرَه كلُّ شيءٍ بشكلٍ قسريٍّ للغاية.. ثم أصبحتُ فتاةً معطاءة جداً.. فكان العطاءُ يعودُ إليّ كما أرسله وأكثر...

لقد كبَّر في داخلي الإيمان؛ جعلني أحبُّ نفسي حتى وصلتُ للتفكير في اكتشاف لونِ الطّبيعة.. حقّاً ما هو لونُ الطبيعة؟ لماذا يبدو الأخضرُ كجوابٍ بديهيٍّ على هذا السّؤال؟!.

بل وأقنعني بواقعيّته؛ بعدم وجود إنسانٍ في هذا العالم، قادرٍ على العطاء بشكلٍ دائمٍ ومستمر، بأداءٍ عالي المستوى.. كما يحلم الشّبابُ والشابّاتُ عادةً.. فنحنُ لا يمكنُ أنْ نقومَ بفعلٍ واحدٍ عبر المدى، لا يمكن أن نبقى مستيقظين دائماً والنّومُ المستمرُّ يعني الموت!. كان واقعيّاً جداً.

بالغ الوقت في مروره ولا خبر عنكَ يا بَيان.. ماذا فعلوا بكَ لتقوم بغيابٍ كهذا!!. أين أنت يا ابن البارحة؛ يا ابن الحديث الصامت الهادئ المتأخّر، يا ابنَ حضنٍ احتضنتَه حتى زرعت روحك فيه.. يا ابنَ رحمِ يَسار العاقر، وروح جيانا المتيّمة على صِغر.. يا صاحبَ الذّنب والغفران، وولدِ الرّفض والقناعةِ والهجران... أيّها الأستاذُ الّذي علّمني كلَّ شيء؛ ونسيَ درسَ النّسيان.. مَن الآن سيركض معي؟ ويمشي أمامي ثم يقفُ عندَ الباب منتظراً مروري، فأمرُّ أنا ويأتي من بَعدي غروري...

مَن الآن سيغسل مساحيقَ وجهي النسائيّة غُسولَ الحبّ؟ ويطهّرُ جراحَ وردةٍ تفتّتتْ حيث وُلدت على غصنها الوالدِ بالتحديد.. ثم أزهرت على أضلاعِ الغرباء، وصارت يسقيها الندى.. من سينكسرُ أمامي يا بَيان بعد غيابك، بكل تلك الشفافية، وتلك المقدرة على الانكسار؟ فأركضَ.. أركضَ بجنونٍ عليه! وأضمَّه ضمَّ الفاعلِ السابقِ للمفعول به...

ولماذا أدخلُ لمطبخي يا عزيزي؛ لمن سأحضّرُ تلك الأطباقَ الغريبةَ الّتي لا تقوى امرأةٌ على استيعابها! وأخدشُ أصابعي رغمَ أنّي أولّيها اهتماماً خاصاً.. من سيغلقُ الأبوابَ على الأسرارِ المترنّحة لشدّة

حزنِها؟ من سيجلسُ مستمعاً بالودِّ لتلكَ القِصصِ السّخيفة الّتي نقولُها؟ أتدري؛ لقد فضحَتنا وجوهُنا أنا ويَسار وأيهم..

أوَتذكرُ كيف فتحت بابَ غرفة ابننا الوسيم "وسيم" الّذي لم يولد بعد؟ ثم أخبرتني مبتسماً أنّه وعلى ما يبدو لايزالُ مع أصدقائه.. ونحن لانزالُ على خطوبة.

أيُّ ديمومةٍ تلك الّتي كانوا يتحدّثون عنها أمامي؛ حتى جعلوني أركضُ خلفَها وأحلمُ بها، أنا ابنةُ العاداتِ والتقاليدِ والأدبِ والعِقاب، الابنة الّتي رضيتْ بأيِّ شيءٍ يضمنُ لها ديمومَتها حتّى وإن كان ذلك صعباً... فبقيتْ في بيتها الّذي خُلقتْ فيه، رغم جحيمه وتقييده وكثرةِ القواعد فيه والالتزام، بانتظارِ أحد الطّارقين على الأبواب، وما سمحتْ لقلبِها بالتحرّك أبداً.. بل زرعتْ طريقَ عشقِه بالألغام! ومنعتْ عنهُ الماء والهواء والغذاء والغرباء، هكذا علّموها، وهكذا كانت القاعدة، عليه أن يدخلَ من البابِ مباشرةً، إن كان يستحقُّ. فعلتُ كلَّ شيء ولم أتوقّع أبداً بأن ينتهيَ كلُّ شيء على أثرِ اتصالٍ هاتفيٍ يردُّ عليه صديق زوجي..

أين هم الآن.. أولئك "أصحاب الخبر والإرشاد"...، أصحابُ قواعدِ المحاسبةِ والامتلاك والتنبيه؟ أين هم الآن.. وأنا أقفُ خلف شرفةٍ تطلُّ على نهايةٍ محتملةٍ لك يا مهندسَ حياتي وأيّامي الّذي لم يكمل بَعدُ، الشهرَ الأوّل على رأسِ عملِه هذا؛ وبجواري حبيبتُكَ المهندسةُ أيضاً، أو ما يشبه الحبيبة، تمسكُ بيدي، تربّتُ على كتفيَّ، وتخبرني بإصرارٍ كبيرٍ أنّك ستعود.. ومعي أيهمُ، صديقك الوفيُّ والشّاهد؛ أيهم الذي أخبرني عن مواقفك القديمةِ اتّجاه فكرةِ الزّواج، ورفضك القاطع لأيّةِ فكرة تذهبُ بك إلى زوجة، أخبرني عن "نتالي" و "ديانا".. وعن الكثيرِ من الأشياءِ الّتي لا أظنّ أنّ غيره يعرفُها..

وعن الحبِّ الّذي ترعرعتَ فيه، قد سُقيت بكلِّ ما لذَّ وطاب لك، من أجسادٍ وأرواحٍ وقلوبٍ وعيون، كأنّ الله عزّ وجلّ اختارك لينزّلِ عليك من السّماءِ الغيثَ بكلِّ ألوانِه وأشكالِه الّتي نعرفُها والّتي لا نعرفُها.. كان أيهم يحذّرُني منك كأنّكما أعداء؛ ويضحكُني عند شتمك.. ثم يستدير إليّ قائلاً: "إنّ طعامكِ أكثرُ من رائعٍ؛ لماذا قبلتِ ببَيان؟."..

فأجيبُه بثقةٍ نسويّةٍ: "تلك القلوب الّتي سارَ عبرَها حتى وصلَ إلي."..
وعند إجابتي تلك... كنتَ تضحكُ كثيراً، ضحكتُك هذه تبدو مميّزةً دائماً.

***

وقفتُ بمحاذاةِ سريره؛ أبحثُ عنه في جلدي.. وأمسحُ عن جبينه أرقَ غرفةِ العمليات، محاولةً إيقافَ نزيفِه الصّامت الّذي أخبرني عنه أيهم ببعضِ الضّغطِ المستمرّ.. كما علّمونا في الصغر...

يا لتبرُّمنا، لم تدم فرحةُ خروجِه طويلاً، فقد قال لنا الطبيب قبل مغادرتِه الغرفةِ: "قد تتأخّرُ صحوتُه، ولا نعرفُ المدى!! إنّه بين يدي الله."، وتركَنا على وقوفنا ملتفّين حولَ سريرِه نراقبُ جسده؛ وننظرُ في وجوهِ بعضِنا البعض، كنّا بحاجةٍ إلى موسيقيٍّ يطحن تلك الوجوهَ السّاكنة، غريبةِ المعالم، بآلاته؛ لتكونَ لحناً يؤلمُ جدرانَ الغرفةِ رقم "تسعة"، وشراشفِها البيضاء وأثاثِها، مدى عمرها الّذي لا نعرفه نحن أيضاً..

استمرّ المشهدُ بعضَ الدّقائقِ؛ ولولا قطعُ مسؤولِ الأمن له، لاستمرَّ ربّما لساعاتٍ طوال. دخل إلينا بعد الاستئذان، جال بيننا محاولاً مواساتنا بِصمته، ومشاركتنا تلكَ اللّحظاتِ الغريبةَ. ثم قالَ لنا: "نحن لا نملكُ أيّة معلومات.. سوى حديثِ أحدِ شهودِ العَيان أنّ بعضَ الشبّان قاموا بضربِ المدعوّ "بَيان"، وقد فرّوا عبرَ سيّارةٍ غريبةٍ كانت بحوزتهم؛ فهل لديكم شكوك؟"..

تقدّم إليه أيهم؛ مخبراً إيّاه أنّنا لا نعرف أعداءَ لبَيان وفي حالِ وجودِهم بسرّية فلا يمكنُ لنا نحنُ الثّلاثة معرفتُهم أو توجيهَ اتهامٍ لشخصٍ ما؛ بمجرّدِ التوقّع. فردَّ عليه مسؤولُ الأمنِ: "إذاً سننتظر حتى يصحو، ليس من المعقولِ أن يتعرّض لهذا الضّربِ المبرّحِ بلا سبب!". أظنّ ذلك منطقيّاً جداً ولكنَّ ما قالَه أيهمُ كانَ حقيقيّاً أيضاً، فأنا لم أسمع يوماً عن أحدٍ تعرّض لبَيان؛ أو أنّ بَيان قد تعرّض لأحدٍ بالضّرب أو الشتم حتّى.

بعد أيام...

مضَتِ الأيّامُ هكذا؛ لا هو ماتَ، ولا هو عادَ، ولا نحنُ انتهى انتظارُنا! لا شيءَ طعنَ الأملَ فقتله؛ ولا قطعة من جسده تحرّكَت فأضرمَت النّار باليأس... كنا نتناوبُ أنا ويَسار على الحضور؛ وأيهم يبقى معنا أكثَر ما يمكنُ من الوقتِ بالإضافةِ إلى اللّيل؛ الّذي نقضيه أنا ويَسار في منزلي أو منزلها. بَيان في سكون..

بينما نحنُ في إحدى الليالي سألتني عن الجدارِ الأسود إن كنت أعرفه... فأجبتها: "بالتأكيد." مستغربةً سؤالها؛ فهي تعلم بأنني أعرفه.. لكنّها أخبرتني بعد ذلك أنّ بَيان كان يكتبُ بعضَ الأشياءِ والأحداثِ الّتي

تحدثُ في حياته، على بعضِ الأوراق والدّفاتر الخاصّة، وسألتني إن كنتُ أعرف مكانها! ففهمت أنّ السؤال الأوّل كان مجرّد مقدّمةٍ بسيطةٍ للتحرّي عن الأرواق..

أعجبتني الفكرةُ، لكنّها أخافتني؛ أخافتني لأنَّ بَيان لا يحبُّ إطّلاعَ أحدٍ على ما يعتبرُه من ممتلكاتِه الخاصّة؛ أخبرني بذلك. ولستُ أنا تلك الّتي تقتحمُ عادةً.. أخافني كذلك ما قد أجدهُ على تلك السطور، لا بأس.. ستنتصرُ شقاوةُ الفتياتِ في النّهاية؛ "بالطبع أعرفُ مكانها." هكذا أجبتُ يَسار، لكنّني أردتُ الاختلاء بتلك الصّفحاتِ وحدي، فما تحرّكتُ لجلبِها إلّا بعدَ نومِ يَسار.

الآن أيضاً؛ يأخذ العمر شكلاً صعباً.. ليدخلَ به إلى الغد، الغد المخيف، بل المخيفِ جداً.. بينما أستلقي أنا على سطور زوجي؛ أمدّدُ جسدي فوق غزلِه الفاضحِ بالأُخريات، وعشقِه لهنّ.. متسائلةً كيف يمكنُني الانتصارُ على هذا التّاريخ؟ لا يمكن لشيءٍ وصفُ هذا الشّعور الّذي أشعرُ به؛ من هي تلك الّتي لا تغارُ على حبيبها؟ ولكن ليس من المنطقيّ أيضاً أن يُحاسبَ الإنسانُ على ما مضى؛ من إنسانٍ آخر..

قرأت كلامَه عن (يَسار)؛ وأوقفني تعبيرُه بأنّه لا يحبّها لكنّها ملأتْ له الأيّامَ والحياة. وكلامُه عن (دَيانا؛ ونتالي)، ومعرفتُه الكاملةُ بأنّ الأيّام انتقمتْ لهنّ؛ يا له من رِضا!! والكثيرُ من الأشياء والكلماتِ الجميلة؛ لا أعرفُ لماذا لا أستطيع أنْ أكونَ بكلّ تلك الرّوعة المكتوبةِ والموصوفة؛ كمشهد (نوّار) وابتسامتها مثلاً؛ ربما أكونُ كذلك يوماً ما. تركتُ الأوراق تحت سُلطة يَسار لتراها عندما تستيقظ.. وخلدتُ لنومٍ عميقٍ يومها؛ وأنا أتمتم في نفسي؛ غداً أذهب إليه أسألُه إن كان بإمكاني الانتصارُ على السّابقات.

فعلاً؛ لبست اللّونَ الخمريَّ وذهبتُ إليه في اليومِ التّالي، بالمناسبةِ؛ لقد أنكرتُ تشبيهَ بَيان لي بالخمر، عندما أرتدي اللّونَ الخمريَّ مصحوباً بكعبٍ أسودٍ عالٍ.. وجدتُ أيهم؛ مبتسماً على غير عادته في هذه الأيام.. ثم أخبرني أنّ بَيان قد فتحَ عينيه وحرّك بعضَ أصابعِه؛ رقصتُ في ذلك الممرّ الأبيضِ، ومال جسدي ومال معه القلبُ في كلِّ الاتّجاهات، ولو بقي أيهم أمامي؛ لقبّلته..

دخلتُ إليه.. كأنّما أكونُ قد قطعتُ المدى؛ بمثل سرعةِ العودةِ للصدى.. سبَحَ نظري في المكان ككلٍّ؛ كأنّهُ صورةٌ واحدةٌ أُخذتْ على عجل تدعى "البانوراما".. بعضُ الخطواتِ كانت كافيةً لأقفَ بجانبه؛ وسيفُ دموعي حضرَ مجازفاً يحاولُ قطعَ الأزمان والمسافاتِ؛ لنلتقيَ بعناقٍ يحدثُ عادةً بينَ الأحبّةِ بُعيدَ الأزمات.. "قُم أيّها الحبيب إليّ قُم؛ عانقني، عانق بي انتظاري، فأنا والله ما حلمت بك بل إنّك قد كنت حقيقتي؛ وأجملُ ما في الحقيقةِ أنّك كنت الحقيقة." بهذهِ الكلمات وأمثالها تمتمتْ شفتاي؛ مستغلّةً فواصلَ تمتمتِها والخلوةَ لتزرع على جبينه وخدّيه؛ قبلةَ امرأةٍ شرقيّةٍ عاشت الحلمَ الماضي في بعضِ الحاضر الواقعي...

في ذلك اليوم؛ جاءت يَسار مبتسمةً والدّمع في عينيها.. تحملُ تلك النشوةَ الّتي تبدو على أيّة أنثى؛ عندما تصلُ إليها تعويذةُ الاطمئنان، أنّ الحبيب قد أحبّها. لكنّها لم تقترب إليه أبداً، شغلها الفرحُ بالأخبار الّتي ألقيناها على مسمعها.. هنَأتنا عليها.. كانت تكبحُ نفسّها كي لا تقتربّ منه أو تلمس حتّى سريره.. فعرفتُ أنّها أخذتْ اطّلاعاً كاملاً على ما خصّها من الورق...

مضى بعضُ الوقت؛ والأملُ معنا.. طلبتُ منها البقاء مع بَيان؛ بحجّة أنّني سأذهب مع أيهم لقضاءِ بعضِ الاحتياجات الخاصّة.. وخرجنا سويةً.. سألني أيهم؛ "إلى أين نمضي؟." فطلبت؛ "خذني إلى شارع السوق القديم يا أيهم."... وفعلاً بعد نصف ساعة من المشي وصلنا إليه؛ واستمرّينا في المشي حتى سألني؛ "ماذا تريدين من هنا؟." حينها اعترفت له بأنّني لا أريد شيئاً؛ إنّما جئتُ أبيعُ الألم.

- ماذا قلتِ؟.
- جئت أبيع الألم.
- أيّ ألم؟.
- أليس هذا المكان الذي يحبّه بَيان؟.
- نعم؛ كلّنا نعرف أنّ بَيان يُحبّ شارع السوق القديم.
- وشارع الحبِّ وشارع الموت وشارع الحياة، وربما شارع الحلويات!.
- نعم؛ لكنّني لم أفهم ما قصدتِه ببيع الألم.
- أردتُ يا صديقي ترك يَسار وبَيان على خلوة؛ فنزلتُ معكَ إلى الشارع الّذي يحبّه بَيان؛ لأبيع ألم الحرمان الذي شعرتُ به يوماً ما، وبقي معي لسنواتٍ طوال.
- الحرمان من ماذا؟.
- الحرمان من الأب؛ ومن الحبيب، من أشياء كثيرة.
- فهمتُ ذلك تقريباً، ولكن كيف يُباع الألم يا جيانا؟.
- يُباع بمنعه عن الآخرين.

***

في الغرفة المعتّقة برائحة المرض؛ اجتمعَ معنا مسؤولُ الأمن مجدّداً ليخبرنا أنّهم استطاعوا معرفة بعض التفاصيلِ عن "السيّارة" الّتي هرب بواسطتها أولئك الشبّان، ذاكراً لنا بعض تفاصيلها.. وأثناء تلك التفاصيل؛ احمرّ وجه يَسار شيئاً فشيئاً حتى وقفت تصرخ في وجهه؛ "إنّه آدم!. إنّه آدم يا سيّدي. هذه سيارته؛ إنّه آدم."...

جلسَ معها مستفسراً عن آدم؛ وبعد أخذِه للمعلومات، خرجَ يتحدّثُ عبرَ هاتفه.. وبقيت يَسار واضعةً يدها على جبينها تتساءل؛ "ماذا أفعل؟." حتى أجابها أيهم؛ "هذا ليس ذنبكِ يا يَسار فاهدئي.".

مضت بعض الأيّام على ذلك التوتّر، يَسارُ تجلِدُ نفسَها، وأيهم يحاولُ التّخفيفَ عنها؛ وأنا أصلّي لأجل بَيان.. بالإضافةِ لأخبارِ السيّد مسؤول الأمن التي تفيد بأنّ "السيارة" قد غادرت حدود البلاد؛ آدم أيضاً خرج معها. والكثيرُ من الزائرين والزائرات ممّن لديهم معرفة بنا أو بأحّدنا، قد جاؤوا للوقوف بجانبنا.. في غيابٍ كاملٍ للبعض؛ حضرتْ نوّار السّاحرة، تزورنا فالتقيت بها للمرّة الأولى؛ بالمناسبة أظنّ أنّ بَيان كان على حقٍّ حين احتفظ بمشهدِ وجهها الفتّان. كذلك آيات، جاءت بصحبة نوّار تقوّي ظهر يَسار؛ لكنّها ارتبكتْ عندما عرفتْ من يكون بَيان....

فهو ذلك المهندسُ المعجب؛ الّذي رفضته بصفتيه بعدما التقت فيه عام ٢٠١٣. بينما كانت تحاولُ إيجاد مهندسٍ للعمل لأجلها. حينها أشارت يَسار إليه؛ عندما طلبتْ منها نوّار مساعدتَها بإيجاد مهندسٍ للديكور يعملُ داخلَ البلاد. أمام تلك المفاجئة قامت نوّار بتنفيذ انسحاب عاجل، لتأخذ آيات مستفسرةً عمّا بها من ارتباك.

وبينما نحنُ جميعاً نسعى للخروج من ذاك المكان المشؤوم بخير؛ حتى ظنَّ البعضُ أنّنا أبناءُ رحم واحد.. استفاقَ الجسد الممدّد على سرير الغرفة المعتّقة المذكورةِ أعلاه؛ مستبدلاً رائحةَ المرضِ برائحة النّسيان!. كنا نحن الثلاثة معه تؤنسنا أيضاً نوّار لكن بدون صديقتها آيات.. استفاقَ ذلك المتعب المنتهي وأنا في جواره، ملتصقةٌ به... أَمسكُ يدَه بيديَ البيضاء المنمّقةِ الّتي بوسعها لفتُ الأبصارِ لكن أمسكُها بنسخةٍ جديدة لا أعرفها ولا تعرفني، كأنّه نام زمناً يساوي الزّمنَ الّذي عاشه؛ فعاد به إلى ما قبل الوعي؛ يومَ لم يكن لديه حبيبة؛ ولا زوجة؛ ولا ذاكرة؛ ولا قدرةٌ على الكلام.

بدت المسافاتُ مغلقةً؛ والمدى أضيقُ من بيت عصفورٍ قد فقد عصفورتَه والأولاد.. حين بدأ ينظرُ إلينا نظراتِ الاستغراب تلك، وظهرَ على طيّات وجهه السؤالُ "من أنتم؟." في مشهدٍ ساحقٍ سكنَ ذاكرتي؛ وسيظلّ فيها إلى الأبد..

ابتعدتُ عنهُ بخطواتٍ مرتعشةٍ؛ كأنّني أجمع له العمر والأيام كلّها، راجيةً إيّاه ألّا ينسى اسمي، ولا ينسى عينيَّ ووجنتيّ ونهديَّ وفمي.. ألا ينسى العذاب الّذي عاشه قلبي لأجلِ البقاء والاستمرار؛ ولا ينسى الحربَ الّتي خضتُها مع نفسي أيّامَ خطوبتِنا لأكبحَ أفكارَ الأنثى الواحدةِ الّتي لا شريكَ لها بأيِّ شيء.. بينما هو يجتمع في داخلي متجاوزاً حدودَ جلدي... ما أقساهُ ذاك النسيان الّذي لا نسعى إليه..!

أمسكتني يَسار لبضع ثوانٍ ثم دخل الطبيب إلينا ملبّياً نداءَ أيهم.. خرجنا جميعاً من الغرفة، وبعدَ حوالي النّصف ساعةٍ من الوقتِ العصيبِ والصّدمة، لحق بنا الطّبيبُ خارجّ الغرفة؛ ليخبرَنا بذلك الخبر:

"يبدو أنّ المريض قد نجا من غيبوبته فعلاماتُه الحيوية مطمئنةٌ، لكنّه على الأغلبِ بدأ يعاني من فقدان الذاكرة!." فتقدّمت إليه وسألته "ماذا تقصد؟." أمسكني أيهم، نظر د. عمرو إلى الأرض قائلاً: "هو يعرف نفسه جيداً؛ يعرف ما عاشه في وقت بعيد، لكنّه كلّما تقدم الوقت به اهتزّ بشكلٍ أكبر، بينما تبدو ذاكرتُه القريبةُ غائبة تماماً.. قد عرفنا ذلك من خلال بعض الأسئلة التي قمنا بتوجيهها له؛ سنحاولُ الوقوفَ على حالتِه والتدقيقَ فيها لعلّنا نستطيعُ مساعدتَه. لكن أرجوكم... لا تعرّضوه لأيّة صدمةٍ أو أيِّ إرهاقٍ.. هو يحتاجُكم الآن أكثر من أي وقت مضى."....
ومضى..

تلك اللّحظات آلمتني جداً، لطالما فكّرتُ بفكرةِ أنَّ الحبيبَ يصبحُ أحياناً مثلَ الغريب، خاصّةً عندما أسمعُها بالآذان والعينين، ولطالما ظننتُ أنّها عادةُ العشّاقِ بعدَ الفِراق؛ لكنَّها حسبَ معرفَتي تتداخلُ مع ابتسامةِ شفاهٍ، أو دهشةِ عيونٍ ربّما أو حتّى دقّةِ قلبٍ مميّزةٍ. ما تخيّلتُ أبداً أن تكون تجربةً حقيقيّةً بنسبةِ مئة بالمئة.. وأصبحَ فيها أنا؛ صاحبةَ دورِ البطولةِ، فأعيشَ حبيبةً غريبةً؛ وأُجبَرَ على قبولُ زوجي حبيباً وغريباً في آن واحد...

في طرفةِ عينٍ عدتُ إلى الماضي؛ عندما كانت أمي وكان أبي، من أساتذة هندسةِ الدّيكور في الجامعة، وكان زوجي اليوم هو أحدَ طلّابِهم آنذاك.. أعرفُ بَيان منذ ذلك الوقت، حينها كنت أدخلُ مع أمي أحياناً إلى قاعاتِهم الدّراسيّةِ رغمَ أنّني كنتُ فتاةً يافعةً لكنّني ابنة الاستاذة، وأسمعُ ما يُقالُ عنه.. قد كانَ يومذاكَ حبيبَ يارا، كانَ غريباً، ممتعاً بروحه المرحةِ، أينما تجدِهُ تجدُ الضّحك والفرحَ والطّعام؛ لذلك أذكرُه جيداً... أمّي تحبُّه كثيراً كأحَدِ تلامذتِها.. وتتوقّعُ منه الإبداعَ في مستقبلِه كمهندسٍ فذ.. بينما العكسُ كان المتوقّعَ بالنسبة لأبي.. لم يكن

باستطاعتهما الاتّفاقُ على أيّ شيءٍ من التّفاصيلِ.. مهما كانَ حجمُه.. لا أعرفُ رغمَ كوني في العشرينيات الآن؛ لماذا أنجباننيا عموماً لكلّ معلّمٍ نظرةٌ خاصّةٌ بطالبه... ولكن ليسَ من الضروريّ أن تتحقّق..

حين تقدّمَ لخطبتي، فرحت أمّي كثيراً لكنّها فوجِئَت بفقدانِه لأبويه بعد خروجِه من الجامعة وهي تعلم أنّه ابنَهما الوحيد.. قالت لي في ذاك اليوم: "نحن بني البشر لا نستطيعُ التّحكّم بالفقدان." أظنُّها على حق.. نحنُ لا نستطيعُ التحكّمَ بالفقدان؛ حتى هي افتقدتْ روحها بعد حادثةِ الانفصال.. وأنا أيضاً رغمَ إقامَتي معها افتقدتُها..

كان ارتباكُه واضحاً جداً، عندما رأيتُه ببعضِ الوقوفِ بعد غيابٍ طويل فصلَ ما بين دراستِه في الجامعة؛ والصّدفةِ الّتي جمعتنا في أحد الأماكن العامّة هو ويَسار.. كان ينظرُ إلى الأرضِ كثيراً ويلتفتُ بكلِّ الاتّجاهات، كأنَّ يَسار تمسكُه بعينيها بينما هو يحاولُ الهرب.. وبعدَ تبادُلِنا التّحيةَ جميعاً، فوجئا بتقديم أمي لي؛ "هذه ابنتي جيانا، هل تذكرونها."

ظننتُ بعدها أنّ ذاك اللّقاء كانَ سببَ خطوبتي رغمَ أنّهما كانا مثل حمامتين عاشقتين... بعدها أخبرتني يَسار بأنّ ارتباكه المذكور كانَ بسببِ خبرِ وفاة يارا.

****

(١٠)

٢٠١٨

ألبستُ جسدي خِماراً أبيضَ، أخفي فيه أممَ ألمٍ تبدو كخيالات كثيرة متداخلة فيما بينها؛ حتى أنا لا أستطيع تفريقها.. ووجع تحرّك مفاصل، كأنّما تكونُ للتوّ قد خُذلت، غير أنَّ بعض الخذلان يأتي على قدر.

استطاع بَياني التعرّفَ على صديقته المقرّبةِ يَسار؛ وصديقه الوفيّ أيهم، باحترامٍ كاملٍ من ذاكرته لتلك السنوات الّتي كانوا قد عاشوا خلالَها أيامَهم.. بالتّوازي مع فقدانها للكثير من الأحداثِ والمواقف خاصّتِهم..

بينما أنا... كنتُ من الأحداثِ المنسيّة تماماً كجيانا الزّوجة، وبقيتُ كجيانا الطّفلة وأمها؛ الاستاذة جميلة في ذكريات الذّاكرة.

اليومَ أيضاً، يخرجُ الألمُ من مخارجِ حروفي، من لحمٍ ماتَ تحتَ أظافري.. من أسودَ مثّلَ دورَ عاشقٍ لعينيَّ فأحاطَ بهما.. أجلسُ لأكتبَ وداعي المولودَ بكثرة على غرارِ ضياعي... وأصرُّ على ذاكرتي بالاحتفاظ ببَيان، كما تحفظُه راحةُ يدي وتقوله. ثم أبحثُ عن جسدي المفقودِ بينَ قبورٍ كُتب على شواهدِها "فُقِدَ لقلّةِ الاستعمال..."

والسّفينةُ الّتي فيها أعيشُ.. عارية تماماً، لم يعُد يكسوها إلّا الخراب.. وقُبلُ المآسي مزروعةٌ على كلِّ خشباتها.. أصبحَ وجهُها وجهاً للحزن فقط.. باتَ الألم وُجهتها وانتهى الفَرح إلى ما شاء الله.

بإيعازٍ واضحٍ من الطّبيب، وجهدِ يَسار وأيهم في البحثِ والتدقيقِ والتفكيرِ، كما التّنفيذ السريع... أمامَ جرأتي وخوفي، على الحدودِ ما بينَ نعم ولا... تماماً في منطقةِ فراقٍ طرفَي جدارٍ متصدّع...

الحبيباتُ السابقات أتين، ومعهنَّ وجباتُ عذاباتٍ دسمةٍ أُعدّت خصيصاً لي؛ أنا الزوجة جيانا.. بينما يكون زوجي حبيبهنّ، ممّا يعطيهنّ الحقَّ بالبحثِ في عمقِ ذاكرته عن أطيافِ خليلاتٍ كان معهنّ أيامَ الذّاكرة... أو أجسادِ أُخرياتٍ قد فقدها وكتبَ عليها ربّما لا عنها. أتين للاطمئنان عن أنفسهنّ.. بينما أتناولُ أنا وجباتِ عذاباتي وحدي وآكلُ نفسي بنفسي ثم يمدّدُني الألمُ على سريرٍ من بُكاء. حقاً بعضُ البُكاء لا يُرى.. لكنّه يبقى طريقَ التحوّلِ إلى أشياءَ يابسات.

جثوتُ بقربهنّ على احتضارِ حاضري... أتدلّى من عُرسي، من فرحي، لأسمعَ تُرّهات الماضي بشكلٍ حقيقيٍّ واقعيٍّ وفعّال.. وأتساءلُ هل تغيَّرنا بما فيه الكفايةُ كي نلتقي؟ هل فهمنا أنَّ الحياةَ لتبدأَ لا بدَّ لها أن تنتهي؟. جميعهنَّ الآن لهنّ حياتُهن لكنَّه الظّرفُ، جاء بهنّ؛ يرتشفنَ من حياتي!. أحدّثُ نفسي. ثم أكملُ الاستماع بذعرٍ حقيقيٍّ، كشعرةٍ أثّرت فيها لحظةُ فزعٍ فانتصبت لترى ما يجري.

دخلت نتالي قائلة؛ "أنا ابنة أيلولَ البائسةُ الّتي وصلت في اللّحظة الخطأ، أدركُ اليومَ أنّ خطأَ الوقت وحدَه؛ تخيّلَ وحده فقط، يستطيعُ إحراق أكوامِ الحبّ العابثة بقلوبنا."

أجابها زوجي مرحّباً؛ "أهلاً بابنةِ أيلولَ الصغيرة.".

الجميعُ في غرفةِ المراقبةِ نهضَ.. "لقد تذكّر!".. بينما أنا بقيتُ على جلوسي محتارةً، تلسعُني مرّةً رغبتي بأنْ يتذكّرَ حقاً، فيتذكّرَني أنا! ومرّة أُخرى يلسعُني رجائي الأنثويُّ ألا يتذكّرَ لأنّه قد يتذكّرنا جميعاً. قلتُ في نفسي "يا إلهي؛ لقد تذكّر!"..

- "من الجميل أنْ نلتقي بعد كل هذه السنوات يا.." صمتتْ قليلاً وأكملت: "يا حبيبي.. لقد نجحتُ منذُ أعوامٍ بالثانويّةِ وتخرّجتُ من الجامعة منذُ سنةٍ تقريباً... بالمناسبة لم أعرّفك؛ هذا ابني مجد.".
- ابتسم لها متسائلاً؛ "حبيبك؟ إذاً قد جاءني غفرانُ صمتي المُبرّح في ذلك اليوم."

- "بالتأكيد." وأعطته مجد. وقفتُ لأقول؛ لا هذا مكان وسيم. فأمسكتني يَسار، همستْ، "هذا بَيان المريض، اهدئي."..
- ثم سألَته نتالي: "أوجدت حضناً يستطيعُ حمل طفلٍ بحجمِ مئةٍ وخمسةٍ وسبعين سنتمتراً؟."
- "ليس بالضبط."

- "لم تمحُ الأيامُ يا بَيان تلك الصورةَ التي كنتَ عليها في عينَي نتالي المراهقة، كان قد تزحلقَ على تفاصيلِ وجهك، عندما جاء قلبي إليك معترفاً بغرامه؛ ثم سقط من علوّك الّذي تبدو عليه أثناء وقوف؛ غادرتَه ورغم اصطدامه العنيفِ بالأرض ما

غادرك أبداً. الفتياتُ يحتفظن عادةً بصور الشبّان الّذين استطاعوا فكّ شيفرة قلوبهن.
فهمتُ بعد ذلك يا بَيان؛ أنّ الحبّ وحده لا يكفي للحياة، إلا في الخرافات.".

- "لم يكن وجهي جميلاً كفايةً ليتزحلق عليه قلبُكِ كلّه، كلُّ ما أردتُه حينها ألّا أؤذيك يا نتالي، حاولتُ احتواءَك كوردةٍ جلستْ في وعاء، وعلى الوعاءِ ضرورةُ الرّعاية!. كنتِ قريبة منّي، وعقلي في مكانٍ آخر، وقلبي في مكانٍ مختلفٍ أيضاً، لا يمكنُ أبداً أن يجمَع الإنسانُ شتاتَه في لحظة. اغفري لي صمتي نتالي.".

سألَته بعدها عن صحّته وهوية المعتدي "كيف أصبحتَ الآن؟."..
ضربتْ يَسار على جبهتها!. وسأل د. عمر من غرفة المراقبة؛ "ما هذا السؤال؟."..

أجابها بَيان بهدوء واستغراب؛ الحمد لله؛ أشعر أنّني أفضل وأصدقائي معي، أيهم ويَسار؛ لكن عن أيّ اعتداء تتحدّثين؟.

- أوه بَيان؛ قرأتُ خبراً يقولُ بأنّ بعضَ الشبّان اعتدوا على شابٍّ منذ فترة؛ ظننتكَ أنت!. عفواً.
- لست نجماً لتتحدّث عنّي الصحافة؛ بالتأكيدِ لستُ أنا.
- ربما تتحدّث عنك غداً؛ احتفظتُ بهديّتي كما أخبرتني بَيان؟.
- هديّتكِ؟ أيّ هدية؟.
- انظر إلى مجد؛ إنه لا يبتسم عادةً إلا لي.
- سامحني عليّ الذهاب. (قالت قبل أنْ تخرج.)

تماسكتْ نتالي قدرَ ما استطاعت، ثم سقطتْ دمعتُها، سقوطَ وجدانٍ عاشقٍ من علوٍّ شاهقٍ على صخرةٍ حادّة الزوايا.. لا أعرفُ قصدَها عندما قالت أنّ مجد لا يبتسم عادةً إلا لها.. بينما كانت ابتسامتُه لبَيان عريضة جداً.. في النّهاية حملَته وخرجَتْ. بقي أيهم أمامَ دهشة بَيان بانسحابها المفاجئ والسريع... وسؤاله؛ "ماذا حصل لها؟"..

حينها؛ بدأ أيهم بجمعِ فتاتِ الكلماتِ من حلقه، متلعثماً على غيرِ عادتِه.. "إنّها دراما الفتياتِ على ما أظنُّ؛ لا تقلق يا صديق." قال وسكت..

دخلتُ أنا "أتدري يا سيّد أيهم؛ من النّادرِ رؤية أصدقاء من طرازك الرفيع...." "أنا التي أكلّمك ليس السيّد بَيان."..

أهلاً؛ سامحيني، لم أشعر بدخولكِ.. ظننته بَيان.

عدتُ من غرفةِ المراقبةِ، أنا وخمارُ جسدي؛ بينما يَسار ظلّت تمسك مجد، مطبطبةً على حبِّ أمِّه لحبيبها العتيق. لا أعرفُ لماذا وُجدت لحظاتُ لقاءٍ من كنّا نحبّهم و هم على أحوالٍ جديدة، كأن يكونوا على أسرّةِ النسيان هكذا! بَيان بحالةٍ مستقرّة، أيهم يعيشُ بين مصدّقٍ ومكذّب! محاولاً إيجاد طريقةٍ للوصول إلى دَيانا...

فجأةً! وقفَ أمامي يَسألُني عن يَسار؛ فأخبرته أنّها مع نتالي، لكنّ الكلامِ بحضرة بَيان يختلف "أظنّها مع السيدة التي كانت هنا منذ قليل." فخرج إليها مسرعاً....

لم أستطعْ تحمّلَ البقاءِ في الغرفةِ رقم "تسعة"...، شيءٌ ما يجعلُنا نركضُ خلفَ تفاصيلَ نعلمُ أنَّها مولّداتُ ألم، لكنّنا نذهبُ ونقومُ

بالاحتضان!. لحقتُ به دونَ أن أُنهيَ عملي (عملي كممرّضة.) وسمعته يسألُ نتالي عن فتاةٍ اسمها دَيانا...

- أيهم: هل تعرفينها؟.
- نتالي: بالطبع أعرفُها؛ كانت إحدى صديقاته.. بل ربّما أكثر.
- يَسار: هل تستطيعين الوصول إليها؟.
- نتالي: سأحاول؛ لكن لماذا؟.
- أيهم: نريدها أيضاً..! هذا جزءٌ من خطّةِ المعالجة الّتي يحاول الطّبيبُ القيامَ بها..
- يَسار: علينا أن نتعاون جميعاً يا نتالي.
- نتالي: بالتأكيد.. سأفعلُ كلَّ ما أستطيعُ لأجلكم ولأجلِ بَيان.
- ثم التفتتْ إلي قائلةً؛ "جيانا، سامحي وجودي، أعرف ما تشعرين به؛ فقط نحنُ النّساء نستطيعُ فهمَ بعضنا البعض."
- أنا: لا تقلقي. (هززت برأسي؛ هزة سيدة واثقة من صبرِها.)

أمسكت مجد على قلبِها وهمّتْ نتالي بالرحيل؛ وبعد بضعةِ خطواتٍ متردّدةٍ من خطواتها في الممرّ؛ ظهرت ملامح أمي عند نهايته؛ مرّت بجانب نتالي قادمةً إلينا من عملِها الجديد الشاقّ في إحدى الشّركاتِ الخاصّة.. أحدُ طلّابها استعانَ بها لتديرَ تلك الشّركة قبلَ زفافي بحوالي شهرٍ واحد فقط.. هكذا هي حياةُ النّساء هنا..، فهي عملَت العمرُ كاملاً لتعيش، ثم جاءت تبكي على ابنتها العذراء، الّتي لم تُكمل بريقَها الأوّلَ كعروس، إلّا وهي تلملم زوجَها غريبَ الأطوارِ من أحضانِ الموتِ والغياب والنّسيان.

ما الخبر يا أمّاه؛ متعبةٌ أنتِ..، ممزقٌ وجهكِ متألّمٌ ومؤلمٌ كما هي هذه الأيّام والسّاعات والتفاصيل..!؟ لكن لا عجب. حُضّرتْ "الاستاذة جميلة" لتستطيع هي أيضاً التعامل مع بَيان بدون صِلة القرابة الّتي باتت تجمعُها به... ووصلت إلى بَيان المهدود برفقةِ الطّالبة يَسار.

لطالما كانت أمي تقول؛ أنّنا جميعاً أولادها.. أنا وأصدقائي وأقراني، وبعضُ المساكين، والكثير من الطّلاب!. تلك هي الحقيقة.

ولطالما حاولتُ إقناعها بأنّني أكرهُ ذلك الشيء..، حتى أصابني الصّمتُ. تلكَ الشّراكةُ تثيرُ غيرتي وتستفزُّ بُعدي فأبتعدُ أكثر. فشلتُ في إقناعِ أمّي بفكرتي، وما استحوذّت يوماً عليها كلَّها! رغم انحداري من بطنها. لم تقنعني صديقتي الفاقدة لأمّها بقولها؛ أنّ وجود أمي أفضل من عدم وجودها. رغم تجربتها المريرة التي أعترف بها ولا أتمنى تجربتُها حتماً..، لكن ربما صديقتي لا تعرفُ أنّ لبعض القتلِ لونُ الورود.. هذه الأفكارُ متعبة جداً.

كانت أمي كقالبِ حنانٍ مُتاحٍ للجميعِ..، جزئيّاتُه معروفةٌ، كذلك طعمَتُه..، وكيفية تقطيعه، وطريقة مضغه.. الجميعُ يعرفُ تماماً كيف يؤكل... بينما بقي عمري يمضي؛ وجسدي يكبرُ، كبرتُ حتى أصبحتُ بحاجة لقالبي؛ لكن لم أجده، ولم تُترَك لي على الأقلّ حصّة واحدة منه..

واليومَ أجلسُ في غرفةِ المراقبة، أشاهده..، مثلَ قالبِ عيدِ ميلادٍ جاءَ لمجرّدِ الذّكرى. حتى أمامَ زوجي أشاهدُها؛ كأيّ سيّدةٍ غريبةٍ شمّتْ رائحةَ عطرٍ قادمٍ من الغرفة فدخلت تستكشفُ المكان!.

أما أبي؛ ما كانَ أفضلَ حالاً منها؛ عندَهُ أيضاً لديَّ شركاءُ كثر ليسوا من نوعية البشر فقط؛ بل أيضاً من نوعيّات حياتيةٍ أُخرى..

لقد مشيتُ خطواتٍ كثيرةً وحدي، عبرتُ أياماً طِوالاً وحدي، على أقدامٍ مكسّرةٍ وقفتُ وحدي.. طحنتُ أشياءَ غايةً في المرار؛ طحنتُها بأظافري وأضلُعي لا بالأسنان فقط، ثم بلعتها...، تحتَ إجبار اللّسان المُتفادي للبلع... قضيتُ أوقاتَ السّهرِ وحدي لا أحدَ معي، ثم ثقبتُ أطرافي كلّها، وجنباتي أغلبها؛ حباً لعبور الألمِ بسلام، فهذا الألمُ لا ذنبَ له. ولا أعرفُ لماذا ينظرُ الآباء للأبناءِ نظرةَ استهانة.... هذا الشعور يتعبُني.

شرحت أمي ليَسار؛ أنّها ومنذُ أقلّ من شهرٍ، فقدت عملها الجديدَ في الشّركةِ الخاصّة آنفة الذكرِ لأسبابٍ تجهلُها. يا إلهي!. هذا سببُ انقطاعِ زياراتِها المتكرّرةِ إذاً. ردّتْ يَسار؛ "لا بأس، يعوّضُه الرَّبُ."

كم تبلغُ تلكَ المسافاتُ الّتي تفصلُ بيننا يا أمي....، كأنّني أقفُ في أوّلِ الصّحراءِ، وتقفين أنتِ عِند أوّلِ البحر. تأتي الرّيحُ من خلفِ وجهي، عابرةً صحرائي إلى البحر، فتصنعُ فيه أمواجاً تتقدّم باستمرارٍ حتى تقبّل أقدامك، ويبتسم البحر عندَ كلّ قبلة، يبتسمُ كلّما هززتِ شيئاً من خِصال شعرك.... لكنّها؛ تلك المسافاتُ يا أمي جعلت يَسار الوكيلَ الشرعيَّ لعائلتنا الصّغيرةِ إن صحَّ حسبانُها على العائلاتِ أصلاً. بعيدةٌ روحُكِ عنّي يا أمي..، رغمَ أنّ كلّ بعدي هو بضعةُ خطواتٍ فقط فأنا في إحدى الغرفِ المجاورةِ لا أبعد.

استمرّتْ يَسار بالحديث معها بقصدِ أن يريحها بعضُ الكلام، حتى عرفت أنّ الشركة التي أقالتْ أمي، هي لأحد زملائِهم.. وبعضَ التفاصيلِ الأُخرى.. بدا على وجهها الارتياب. لكنّ المُدهش حقاً هو

التّغيير المُفاجئُ الّذي أصابّ إدارةَ الشركة... "لقد تغيّرتْ معاملتهم كليّاً بعد استلامي لمهامي."...

- الاستاذة جميلة: أدم هو رئيسُ مجلسِ الإدارةِ فيها؛ أتعرفين أحواله؟.
- يسار: آدم!!!!!!. لا؛ أعتذر أستاذتي لا أعرف.

انتهتْ زيارتُها، وعدتُ أنا للغرفةِ رقم "تسعة" مرّة جديدة، فأنا جيانا التي خصّتني إدارةُ مركزِ العناية الصحّية بالاعتناءِ بغرفة زوجي!. عفواً، أنا الممرّضة جيانا. يا لهُ من ألم.

مع دخولي بدأت قِواي بخيانتي..، حتى حطّتني بجانب السرير أنظرُ "إليَّ"، إلى بَياني.. وألقي يديَّ على وجهي، أسألُه لماذا، لماذا كلُّ هذا البُعدِ بيني وبين أمي؟. لماذا راح أغلبُ هذا العمرِ ونحنُ بانتظار بعضنا..؟!. وانتظارِ من يستحقُّ!؟. ثمَّ وبنظرةٍ عامَّةٍ على الدّنيا نشعرُ بأنّ لا أحدَ يستحق...، إنّ الشعور صدمة.

غادرتْ أمّي "الأستاذة جميلة" دون أنْ نلتقي في حضرةِ بَيان. ليسَ من المعقولِ نشوء علاقةِ تآلفٍ بينَ زائرةٍ وممرّضةٍ من أوّلِ تخاطرٍ. أيّاً كانَ السّبب وكيفما كان الحال، فقد غادرَ الوطنَ بقداسته وعظمته ودعائه ورضاه وملحه.. بعد أنْ ملَّح قلبي بلقاءٍ عابرٍ وقُبلِ غرباءَ لغرباءَ دون أصوات.

أحسدك الآن يا عزيزي على نسيانك.. على موسيقاك المحبّبةِ الّتي ما عاد باستطاعتها إثارتُك فلا داعٍ لبحثك عنها.. كذلك على مسافاتِ البُعدِ

الّتي نسيتَ وجودَها، وماتَ أصحابُها في عينيك... على كلِّ ما كتبتَه فوقَ جدارِك الأسودِ، ثمَّ نسيتَه.. وما كتبتَه على أوراقِك الخاصّةِ الّتي داومتَ على تفقّدها كلَّ ليل، وعلى الأجسادِ الّتي غابَ وجودُها عن البال! على قسوتك وجفوتك في وجهي أنا زوجتك الصغيرةُ الموعودةُ بالدّلال "جيانا" لكن لا يعذّبنَّكَ الضّميرُ بعد الإبداء.. لم أكن أعرفُ أنّك قاسٍ هكذا مع الغرباء..!

لم يكفني الوقتُ يا عزيزي لأزرعَ فيك ما لا يُنسيك إيّايَ، ..ما يجعلك تذكرُ جيانا قبلَ العالمِ والنّاسِ، وقبلَ شرودك عندَ المساء، في المسافاتِ الفاصلةِ بينَ الأرضِ والسّماء... لكنّك كنتَ معي؛ كأن تكون أنتَ فكرة الأمان، أو بضعة أحلامٍ ورديةٍ جعلك القدر فارسَها...، كما أنساك إياها..... ثم أسقطك من أعلى نقطةٍ فيها على وجهي، فهل تُكرمني بإجابةٍ عن سؤالي، أين أنتَ وأيْنَ أنا؟.

****

(١١)

في تلك اللّيلة يَسار لم تنم، شيء ما أبقاها على قيد التفكير، صامتةً، ساهيةً عن نفسها، كعاشقةٍ أخذتْ المَفرَق الخاطئَ من العمر. نحن مفصّلون بأرحام مُتقِنة لمهنة التّفصيل، مفصّلون نحن على مقاسات الحزن تماماً، يرتدينا تأنُّقاً، يتعرّق علينا في الصيف، يتدفأ بنا في الشتاء، ينمو داخلنا في الخريف، فتتفتّح تفاصيلُنا كأن نكونَ وردَ ربيع... نُقطَفُ الآن أو بعدَ قليل.. ونذبل.

ما كانت عليه يَسار آنذاك؛ كنتُ عليه أيضاً، لكن على نحوٍ أكبر، عندما أخبرني الطبيبُ أنني سألعبُ دورَ الممرّضةِ في سلسلة استدعاءِ الذّاكرة لأنّ صاحبَ دور البطولةِ، حضرة زوجي، لا يعرفُ بزواجه.

حينها فهمت أنّ الحياة لُعبة...، مسرحيةٌ كبيرةٌ جداً، خشبتُها الأرضُ، وما نحنُ إلا بعضُ الحوارات أو مقاطعُ السيناريو فيها، منّا الأصلُ والمُعدّلُ والمحذوف..، وفينا من هو مجرّدُ ملاحظةٍ فقط. خيّل لي ذلك تماماً، لكنّني ابتسمتُ أمامه.. يبدو أنّني في طريقيَ نحوَ الجنون..

جاء علينا الفجرُ ونحن على تلك الحال؛ أو جئنا نحن إليه هكذا. مثّلنا النّوم على سريرٍ واحد، ننظر إلى سقف غرفة النّوم؛ بينما لا شيء فينا لمسَ حدودَ النّومِ فعلاً. لا بأسَ إنّه وقتُ دعواتي.. أدعو بشكلٍ رهيب، ثم أتمنّى مغادرتي عبرَ النومِ قبلَ إشراقة النورِ على الدنيا... لا أعرفَ لماذا أصبحَ بزوغُ الشّمسِ يشعرني بحزنٍ أيضاً هو الآخر رهيب...

حصلَ ذلك في يومٍ من أيّامِ المدرسةِ، كانت رغبتي بفعل أيّ شيءٍ تساوي الناقصَ واحد، الواحدُ الآتي كرقمٍ أقلَّ قيمةً من الصِّفر...

لكنّنا نذهبُ إلى مدارسِنا في كلِّ الأحوال.. نقومُ بواجباتنا من طعامٍ وشرابٍ وعزاءٍ في كلِّ الأحوالِ.. نطلُّ على بعضنا، نحتفل بأعياد ميلادنا، ونزرع، قبلاتِنا على الخدودِ والأفواه والأكتافِ.. نسمعُ الأغاني والأناشيدَ على حدٍّ سواء، نرقصُ ونمشي ونلتقي ونفترقُ في كلِّ الأحوال..

ثم؛ أحدُ تلكَ الأفعال؛ ممّا نقوم به في كلِّ الأحوالِ، نفعلُه بقسريّةِ حياتيّة عالية جداً.. غصباً عن القلب.. فتتغيّرُ بعده الأحوالُ ولا تعودُ إلى سابق عهدها أبداً.

بحدودِ السّاعةِ العاشرةِ من صباحِ ذلك اليوم، عند تناولي لبعضِ الطّعامِ، وصلَ خبر أيهم بأنّه استطاعَ التّواصلَ مع دَيانا عبرَ معلوماتٍ قدّمتها له نتالي... لكنّه قال وبدون شرح : "لقد رفضتْ الحضور." تحرّكتُ فجأة لأبحث عن أوراق بَيان الخاصّة، دون جدوى، تحتَ نظراتِ يَسار المتسائلةِ عمّا أبحث عنه؟. ربما فرحتي برفضِ ديانا للحضور جعلتني أبحث عنها!. جنون؟.

- لا أعرف لماذا، لكنّني أبحث عن أوراق بَيان.
- إنّها في الغرفة رقم "تسعة".
- لماذا؟. من قام بأخذها إلى...
- أنا!. أعتذر لكنّني ظننتُ أنّنا سنحتاجها ونحنُ نعيشُ أكثرَ أوقاتِنا هناك.

- لا بأس؛ يا عزيزتي.
- أخبرتني آيات أنّها تنتظرنا مع أيهم؛ متى سنذهب؟.
- نعم؛ لقد أخبرني أيهم بذلك عندما أخبرني بأنّ ديانا رفضتْ الحضور.
- لا تقلقي، سنكمل ما بدأناه بدونها. لن نحتاج لمن لا يحبّنا. تحضّري.
- حسناً.

هناك؛ اجتمعنا مع مسؤول الأمن، أخبرنا أنّهم لازالوا ينتظرون دخولَ المتّهم إلى البلاد، فهو الخيط الوحيد الّذي يمكن الوصولُ عبرَه إلى المتهم والشبّان المرافقين له. هم حالياً يحاولون معرفة أصدقائه المتواجدين هنا. ثم طلبتْ يَسار التحدّث معه على انفراد.. وذهبا..

ذهبت أنا إلى الغرفة رقم "تسعة"؛ لأمارسَ عملي الطبيعيَّ هناك كممرّضة.. ثم غادرتُها باتّجاه غرفة المراقبة برفقة أيهم..، فقد طلبَ الطّبيبُ دخول "آيات" إلى الغرفة وحدَها للاجتماع والحديثِ مع بَيان.. راجياً إياها بأنْ تحاول تكرار أيّ كلامٍ سبقَ لهما التحدّث عبره.. ولأنّها تجيدُ التمثيل حقاً.. فعلتْ ما طُلب منها تماماً، حتى أنّها غنّتْ "لو سلّمتك قلبي شو رح تستفيد؟"..

- صباح الخير؛ هل من أحد هنا؟.
- نعم؛ تفضّلي.
- أستاذ بَيان؟.
- نعم؟.

- صباح الخير.
- نعم؛ فعلاً صباح الخير.
- كيف حالك؟.
- بخير الحمد لله؛ وأنت؟.
- الحمد لله؛ حاولت الاتصال بك منذ يومين بما يخصّ العمل، أجابني صديقك، بأنّك هنا.
- صحيح؛ أصبحت جيداً لكنّني مررت بحالةٍ مرضيّة. لا مبرر لبقائي لكنّه الطبيب.
- لا بأس؛ الحمد لله، وأنا جئتكَ أطمئنّ عليكَ.
- أشكر بك إنسانيّتكِ.
- لا داع للشكر؛ فأنا صديقة صديقَتِكِ يَسار أيضاً.
- أهلاً بكِ، كنت أقول لنفسي بأنّ وجهك مألوف عندي.
- نعم، ربما رأيتني على شاشات الدراما. أصبحَ لي بعضُ الظهور هناك.
- أها!.

(أحياناً... أودّ قتل هذا الرجل المدعو بَيان!.)

أما عن بَيان؛ هو حتماً يذكر أنّه التقى بها، وأنّها كانت جزءاً منه.. حدّثها وحدّثته، لكنَّ التفاصيل كانت غائبة عن ذاكرته... الآن يظنّها إحدى صديقات يَسار مثلاً.. أو سيّدةً تريد بَيان المهندس فقط.. هذا واضحٌ من طريقته وأجوبته. وأكملتْ معهما يَسار بعودتِها إلى الغرفة لأنّها لم تسمع طلبَ الطبيب.

وهو بجواري؛ هزّ كرسيَّه حتى صار على مسافةٍ قريبةٍ من الحائط، فأسندَ رأسهَ عليه وأغمضَ عينيه "إنّنا نحاول تحريك بحرٍ ساكنٍ بملعقةِ

طعام!." سألَ نفسه لماذا لم يبتدع الطبُّ أدويةً للذاكرةِ حتى الأن؟. ثم سألَنا عن بَيان، عن أفعالَ تعوّدَ عليها، وأشياءَ خاصّةٍ به، وما إلى هذا وذاك... أخبرتُه أنا بمجموعةِ أشياء.. ثم تدخّل أيهم: "كان يكتب أحياناً عن أيامه.. هل تعرفين أين تلك الكلمات؟."... يعاني الأطباء دون أن يشعر بهم أحد.

- أنت أيضاً تعرف أوراقه الخاصّة؟. (قلتُ له بدهشة.)
- بالطبع، أأصبحت تعرفينها؟.
- نعم، أخبرني عنها أثناء خطوبتنا القصيرة؛ وقد قرأتُها من قريب، في كلِّ الأحوال.. الأوراقُ في الغرفة رقم "تسعة"، اسأل عنها يَسار!.
- د. عمرو: هل تسمحون لي بالاطّلاع عليها؟.
- أيهم: جيانا.. أنت الآن زوجتُه.. هل لديك مشكلة بهذا؟.
- أنا: جميعنا أصبحنا نعرفها، لن يؤذيَها إطّلاع د. عمرو عليها.
- أيهم: حسناً د. عمرو سأجلبها لك.

بقيتُ وحدي في الغرفةِ أراقبُ الكاميرا. د. عمرو توجَّه إلى مكتبه. وأيهم دخلَ الشّاشة أمامي إلى الغرفة رقم "تسعة"، عندها ابتسمتُ!. مشهدهم هم الأربعة معاً؛ ذكّرني بأيام جامعتي، بأصدقائي وصديقاتي الّلاتي جمعتنا مقاعدُ الدراسة، وفرّقتنا النّجاحات والارتباطاتُ والطّرقُ الّتي سُلكَت بعد ذلك.. ثم رمقتُ زوجي الّذي كان زوجي لفترةٍ قصيرة! عدّة مرّات.. وهو يبتسم لآيات، بمهمّة خاصّة نفّذتها الآيات بغية اخفاءِ تحرّكات يَسار أثناء إخراجها للأوراق. هكذا ذهبتْ الأوراقُ إلى مكتب

الطبيب للاطلاع؛ بيَد أيهم الّتي أمسكتني في مشهد ظهورِ الغرفةِ رقم "تسعة" أوّلَ مرّة..

في بقائي هذا، شعرتُ بنزاعِ روحي، سألتُ نفسي أين أنا؟.
إنّي بيني وبين ذكرياتي..، بيني وبين زوجي والرّفاق، على قيد صراعٍ مميتٍ بشتّى نهاياته.. فماذا أفعلُ بالذكرى، بحنينٍ سَدَّ أو كاد يسدُّ شريانَ حياتي الوحيد، ماذا أفعل بأنفاسي اللّاتي بالكادِ آخذها..

ولكن الآن... كيف أخبرك أنّي أحتاجُ إليك.. أحتاج إلى كلِّ تفاصيلك واحداً واحداً، أحتاجُ إلى أمل حياتي النّابض بوقع خُطا أقدامِك، فتنهضَ على أثرِ الخبرِ من نسيانك.. إلي! أو كيف أقول لكَ؛ أنني بألمٍ تتشردقُ فيه أظافري حتّى...، أستقبلُ كلَّ يومٍ صباحي، أشهقُ لا شهقةَ بكاءٍ بل شهقةَ حشرجةِ خروجِ قطعةٍ من الرّوح قد فُصلت عن الرُّوح... دون أن تشعر بالمبالغة..

سأحبّك غداً أكثر إن عدت..، لكن اليومَ رافقني بروحك وانتظر..
وأخرج قلبي إن كنت تستطيع إخراجَ القلب من عنق القلب.. لملمني، لملمني منّي، ثم من وحدتي، اكسر لي عُقدة انطوائي وتحوّلي، كي لا أخرج إلى دنياي متلعثمةً بذاتي.. علّمني كيف تُقال حاء الحياة وميم المساء والألف الأحلى..، فتشكّلَ الحِمَى لا الحُمّى... كما اعتدتُ أن تكون!. أو اترك لي الحمّى خاصّتك، عنك أحملها.. أحملُني وأحملُك، لكن لا تقتل بي الأمل...

علّمني كيفَ أقفُ على أطلالي وأبتسمُ ابتسامةَ ازدراء، كن الغرورَ الّذي خلفَ وجهي عندما يضحكُ البعضُ عليَّ... على طريقتي وصِغري وعَيشي... كن المسكّنَ الّذي أتناولُه بعدَ كلِّ انتقادٍ حياتيٍّ لإدماناتي وإمكاناتي. ثقيلةٌ أنا..! أشعرُ بثقلي عندَ ذكرِ اسمكَ أو اسمي... عندما

أراكَ أو فيكَ أفكّر..، يؤلمني.. أني أحبّك لكن لم يعد باستطاعتي الوقوفُ أكثر..

فإن كنتَ تشتري عندما تستيقظ؟!. أبيعك أدبي.. أبيعك حلمي.. أبيعُك شيئاً من خواطري وكلماتي.. ولياليّ الّلواتي ملّلنَ منّي ومن أشواقي وجسدي المهمل. على مقاسات الحزن مفصّلةٌ أنا.. والحزن قد ارتداني..

أما عاد يغريك الجسدُ بدلاله، الأكتافُ حين ترضى؛ والنّهدُ إذ يتدلّى بشللٍ على مقعدِ الكؤوس... حيثُ ينجِب الإغراءُ إغراءً.. وتوقّع الأظافرُ الطويلةُ على استدعاءِ وليّ أمرِ القُبل بخدشِ الفخذِ الّذي لا ابتسامَ على شفتيّ صاحبه؟ أتذكر؟.

دخلتْ عليّ يَسار بينما أحدّثُ نفسي وأنا في غرفةِ المراقبة، جسدي على المقعدِ ورأسي على ساعدي الأيمن فوق الطّاولة؛ "افتقدتّك، لماذا أنتِ هنا؟." بنبرةِ صوتِ طفلةٍ قد كُسرت لُعبتها للتو، قال فمي "إنّي منهكة."..

- أتدرينَ يا يَسار؟ لا أحد يدري، مهما كنتِ تهذينَ، أو تنتهين.. مهما تألّمتِ أو حملتِ من ألمٍ، ومهما وقفتِ على احتيارك.
- أدري لكنّني أترك الأشياءَ تمضي، تحتَ صمتٍ مريبٍ تُتركُ الأشياءُ لتمضي، هكذا علّمني بَيان بعد عودتنا.
- غداً أكونُ كبعضِ تلك الأشياء وأمضي.. تاركةً خلفي كلماتي.. وصوري الّتي تُظهرني مبتسمةً، راضيةً، لطيفةً بعضَ الشّيء، وجميلةً بعضَ الشّيء.

– جميلون نحن يا جيانا.. حتى أثناءَ الفراق، وقبلَه وبعدَه.. وفي كلِّ أحوالِنا. لا يَحزُنْكِ فراقٌ وأنت أجملنا وأصغرنا.
– أشعر به.
– إن كنت تقصدين بَيان؛ فإنّنا أقسم بربّي وربّك لن نفقده.

مالتْ عليّ بقلبها؛ قبّلتْ جدارَ رأسي، ويدُها فوقَ خِصالِ شعري، تفكّكُ عنه تكبّر الفرح... احتضنتني، عانقتْ بي وجعي. شعرتُ بتلك الثّواني أنّها عانقتْ جيانا كلّها، يكونُ العِناق أحياناً رحمةَ الله الّتي لا نعلمُ بها حتى نعيشَها... وهي كانت هكذا، كمنجلٍ آلمَ التّرابَ في بداياتهما معاً، لكن جعلَ فيه الزهر في نهايةِ الأمر.. هكذا فهمتُ لماذا وصفها بَيان بأنّها حواء..

خرجنا معاً إلى الممرّ الأبيضِ؛ وبحوزتنا الهدوء والأمل، هناك التقينا بالطبيب ليسألَنا سؤالاً غريباً عن فتاةٍ تدعى نوّار!

– د. عمرو: صاحبةُ ذاك المشهدِ أهي موجودة؛ مدام جيانا؟.
– أنا: نعم، هي موجودة.
– د. عمرو: هل يمكننا الاستعانةُ بها؟.
– أنا: لا أعرف؛ ربما يَسار تستطيعُ الإجابةَ عن ذلك!.
– يَسار: بالطبع؛ لن تمانع إذا طلبنا منها.
– أنا: ها هي قادمة.
– يَسار: جاءت في وقتها تماماً.
– د. عمرو: شعرتُ من خلالِ ما كتبه السّيد بَيان، أنّ مشهدَ الابتسامةِ في مكانةٍ خاصّةٍ بالنسبة له.

- نوّار: مرحباً؛ كيف أحوالُكم؟.
- يَسار: أهلاً نوّار، الحمد لله كيف حالك أنت؟.
- نوّار: الحمد لله.
- يَسار: يسألنا د. عمرو عنكِ؛ هل يمكنُكِ مساعدتُنا فيما يخصُّ بَيان؟.
- نوّار: حتماً، ما الّذي أستطيعُ تقديمه؟.
- د. عمرو: إحدى أهمِّ الذّكرياتِ بالنّسبة لبَيان هو مشهدُ ابتسامتك حسبَ ما فهمته.
- نوّار: ابتسامتي أنا!.
- أنا: نعم؛ أنتِ، سوف نخبرك بتلك التّفاصيل فيما بعد.
- د. عمر: ولكن أريدك بتلك الابتسامة تحديداً.
- نوّار: أيّ ابتسامة؛ ما ابتسم قلبي مذ زفافي!.
- يَسار: تماماً، ابتسامة زفافك؛ أظنّها عند الخروج مع أغيد من الحفل إلى السيّارة.
- نوّار: آخر ابتساماتي.. لأحدِّ المارّين هناك عند خروجي، عندما وقف أغيد للحديث مع سائقه.
- يَسار: تلك الابتسامة هي القصّة!.
- نوّار: لماذا؟ كانت نظرة عابرة فقط.
- أنا: لأنَّ الّذي مرَّ وقتَها هو بَيان، وقد حفظَ نظرَتك تلك النظرةُ الّتي نظرتها إليه لوقتٍ طويل؛ أعرفُ ذلك منذ خطوبتي.
- يَسار: هذا سبب ارتباكِنا عندما التقيتِ به أول مرة، بعد انفصالك عن أغيد. أتذكرينَ ليلة العشاء؟.
- نوّار: يا الهي!.
- د. عمرو: نريدُكِ كما كنتِ تماماً في تلك اللحظات.
- أنا: أيمكنك ذلك؟.

- نوّار: امنحوني وقتاً لاستيعاب الأمر؛ لقد صُدمتْ! ما هذا؟.
- يَسار: نعم؛ يمكنها هذا ليس صعباً.
- نوّار: كيف؟.
- يَسار: باستخدام صور الزّفاف يا نوّار!.
- أنا: نعم، هذه فكرة رائعة.
- د. عمرو: سأنسحبُ الآن لأكمل القراءة.. بالمناسبة؛ تلك الأوراق ممتعة!.
- يَسار: سوف نخبركَ عندما تستعد نوّار.
- د. عمرو: تحتَ انتظارِكم.

بالفعل؛ بعدَ انسحاب د. عمرو جلسنا جميعاً للتخطّيط، كيفَ يمكن لنوّار الظّهور بتلكَ الصّورة!؟. أخذت يَسار هاتف نوّار لترى إحدى صورِ زفافِها... "لقد كنت جميلة أيّتها الحمقاء." فضحكت نوّار كأنّها أمامَ عرضٍ مسرحيٍّ كوميديٍّ، لا شأنَ له بالغرفة رقم "تسعة"..، هكذا نحن الإناث أيضاً، يفرحُنا الإطراءُ والغزل بجمالنا في كلِّ الحالاتِ الّتي نكونُ عليها، إنّه حبُّ التألّق..

- يَسار: لدينا مشكلة كبيرة الآن. قالت وهي تنظر على نوّار.
- أنا: ما هي؟.
- يَسار: الماكياج ليس صعباً علينا؛ لكنّ لون الشعر!.
- أنا: تريدين تغيير لونه أيضاً؟.
- يَسار: ستساعدينا يا نوّار أليس كذلك.
- نوّار: بالتأكيد. لقد ساعدتموني لأتجاوز مِحنٍ كثيرة.
- يَسار: نحتاج لبعض الوقت.

– أيهم: لا بأس؛ نريد النتيجة.

بعد أربعين دقيقة من ذلك، غادرت يَسار برفقة نوّار إلى صالونٍ نسائيٍّ ترتادُه عادةً يَسار.. وهي تحدُّثها عمّا يخصُّ ابتسامتها وعلاقة بَيان بذلك. دخل أيهم إلى الغرفة، على اتفاق بأن يطلب منّي - أنا الممرّضة جيانا- القدومَ إلى الغرفةِ لممارسةِ عادتي بالاعتناء بها وبمريضها. لكنَّه تأخّر عنّي! حتى ذهبتُ إلى هناك بقلقٍ. لكن قبلَ دخولي سمعتُه يحدّث بَيان؛ "ليس من الغريبِ أن تبقى هنا، نريدُ الاطمئنانَ عنك جيداً."

– بَيان: أيهم؛ ليس بقائي هنا هو الغريب فقط؛ بل الزوّار أيضاً، وأنت، ويَسار، والعناية الفائقة الّتي لم أعتد عليها!.
– أيهم: نحن؟ ما بنا نحن يا صديقي؛ لطالما كنّا معاً في مثل هذه الأيام.
– بَيان: أيمكنك العيش في غرفةٍ لا سقفَ لها؟.
– أيهم: ماذا تقصد؟.
– بَيان: أشعر بأنني أفتقد لشيء ما، أشبهُ المنزلَ المقسّم الرائع، المنقوصَ من شيء.. الجميعُ يعاملونني بغرابةٍ حتى أنت!.
– أيهم: أنا؟ لا تبالغ يا بَيان!.
– بَيان: نعم؛ أنت. أين يَسار؟.
– أيهم: لقد أخبرتني أنّها ستذهب مع صديقتها؛ قد ذهبت للتو.

استمرّ وقوفي على البابِ المفتوحِ أمامَ جوٍّ من الصّمت سادَ بينهما. بدأتُ أتساءلُ هل يخبرُه أيهم؟. وقفَ أيهم بجوارِ النافذة، ثم استدارَ إليها وهو يخرج شيئاً ما من جيبه.. لا أعرف ما هو! لكنّه ظلَّ ينظرُ إلى الحديقة المجاورة تارة، ثمَّ إلى الشّارعِ العريضِ المنظّمِ وما فيه من المارّين والسيّارات... والسّماءِ تارةً أُخرى..

"ظللت على علاقة عشقٍ مع الغروب؟." سألهُ بَيان. مرّت فترةٌ قصيرةٌ ثم ضحكَ أيهم قائلاً: "كيف تذكرت ذلك؟. بَيان باستغرابٍ شديد: "كيف تذكرت ذلك؟ لما لا أتذكر!."

تراجعتُ عن البابِ.. ومستعينةً بهاتفي المحمولِ اتّصلت بيَسار أخبرُها بما سمعته، متّجهةً في الوقت عينه إلى مكتب د. عمرو أبحثُ عنه... لم أكن أعرف ما عليّ فعله بالضبط!. على الهاتف قلتُ ليَسار؛ لقد تذكر بَيان أنّ أيهم يحب وقتَ الغروب، ولكن أظنّ أنّ أيهم على وشكِ إخبار بَيان بحقيقة ذاكرته!. صدمتني بإجابة هادئة: "لا تقلقي يا جيانا؛ أيهم يعرف ما يفعله جيداً فلا بأس إن أراد ذلك." حقاً؟!!.

ياه.. أبدو صغيرتهم عن جدارة واستحقاق!. في الطابق العلويّ حيث دلّتني موظّفة الاستقبال الّتي سألتها عن مكان تواجد د. عمرو، صادفني وبادر إليّ متسائلاً: "مدام جيانا! أتحتاجين للمساعدة؟."

- نعم.
- تفضّلي.
- أردت سؤالكَ عن إمكانية معرفة زوجي بوضع ذاكرته بشكلٍ حقيقي؟.
- هذا ممكنٌ، فبعضُ المرضى يستطيعون تفهّم ذلك بوعيٍ وإدراكٍ كبيرين.. ومساعدةِ مَنْ هم حولهم طبعاً. كذلك هذا أحدُ

الحلولِ الأخيرةِ إن لم ننجحْ بتحفيزِ ذاكرةِ المريض...، لماذا تسألين؟.

– شعرت أنّ أيهم سيخبر بَيان عن الحقيقة، فانتابني الخوف، لم أعرف ما يمكنني فعله فجئت إليكَ للسّؤال.
– لا بأس.. اطمئنّي سيدتي، أنا هنا كي أجيبكِ وأكونَ مع مريضي وأهلِه كلَّ الوقت، فهذا عملي.
– شكراً جداً د. عمرو.

خلال عودتي وجدتُ أيهم يبحث عني، سألني أين كنتُ؟ فأجبتُ أنني ذهبت للطبيب. الحمد لله لم يسألني عن سببِ ذهابي إليه. لكنّه سألني عن سببِ عدمِ مجيئي كالعادة إلى الغرفة رقم "تسعة"، حينها طلبتُ منه الاستعانةً بإحدى الممرّضاتِ الحقيقيّاتِ لتلعبَ دوري بحجّةِ الإرهاقِ الّذي أسررتُ به ليَسار. "لقد تأخرتَ باستدعائي، ألم نتفق على ذلك؟." ردَّ عليّك "كنا نتحدث أنا وبَيان، هذا سبب التأخير." لم يناقشني أيهم أكثر، أأكون حقاً بكلّ هذا التعب؟!.

لا بأس.. في ما مضى؛ كنتُ أحضرُ إلى موعدي وأحضّر له قبلَ وقته ثم أنتظرُه، أمّا اليومَ، فقد أصبحَ الوصول المتأخّرُ أكثرَ إغراءً بالنّسبة لي..

لطالما أحببتُ الظهورَ في المشاهد الأولى لكنّني اليومَ أحبُّ الظّهورَ في المشهد الأخير تماماً بهيئة بطلة.. أو في تلك اللّحظةِ الّتي يتعمّد المخرجون عادةً التوقّف فيها.. كأنْ أنسكب ثم أنقطع.. أُؤكلَ، أُمضغَ، أُبلعَ، ثم أختفيَ كلّي.. ولا أوجدَ مجدّداً... كشيءٍ صُمّم للاستخدام مرّةً واحدةً فقط لا أكثر.

كانت الأشياءُ في حياتي كلُّها تصلُ إليّ هكذا (على فرض وصولها.)، تتواصلُ معي لتخبرني بموعدِ اللّقاء؛ يكونُ اللّقاءُ دائماً بعد تحوّلي إلى قطّةٍ كثيرةِ الشكوى عبرَ المُواء. مثلَ ضمّةِ أمّي لي؛ أو سؤالِ أبي البعيدِ عنّي.. هذا ما يدفعُني دائماً إلى الغياب.. أو إلى أفكارٍ لملمةِ الذّاتِ والتّقوقع... هذه الأفكارُ تأتيني عادةً بعدَ إحساسٍ عالٍ بما يشعرني بأحقّية عيشي للحياة... أو بعدَ وجبةِ طعامٍ لذيذةٍ أتناولها بكلّ الأصابع. وحده بَيان جاء بشكلٍ مختلفٍ جداً، على موعدٍ ضبطَته السّاعةُ الذّرية!

جاء حينما كان كلَّ ما فيَّ يصرخ، إنّي يا الله منكسرة.. باهتةٌ روحي، منهكة أجزائي، متشرّدةٌ بين أمي وأبي... كلُّ ما فيَّ كان يصرخ حقاً، لكن لا صوتَ صدرَ من هنا. لا أدلّة... فقط ذلك الصّراخُ المنبثقُ من مساماتِ جسدي بتزامنٍ مع حاجتي للارتماءِ فوقَ حضنٍ ما، دونما الحاجةِ للشّرحِ والتّبرير. لذلك أحببته، أحببته بقوّةِ ارتماءٍ أكثرَ من عشرين ربيعاً، بمجملِ ما تحملهُ من أيامٍ وأحلامٍ وحمامات زغردت في الأصباحِ، بمجملِ ما تحملُه من قلقٍ وفراقٍ وأشواقٍ أطالت من عمرِ السّمر... فأنا ابنةُ الأساتذة الّتي ربّيَت على الاستقامةِ لتكونَ مضربَ مثل، أنا البتولُ الّتي ما حاذت يوماً عن صراطها قِيدَ رمحٍ.. أو قِيدَ قبلةٍ.. خيفةَ أرماحِ البشرِ وقبلَهم المخادعة ذاتِ الأنياب.

ظهر مسؤول الأمن مجدّداً؛ لكن هذه المرّة أرادَ الحديثَ مع يَسار بالتّحديد لم يعجبه الاجتماع بنا كيفما اتّفق... شيءٌ ما كانَ قد حدث! تذكّرتُ عندها خلوتَه مع يَسار؛ ولكنّني لا أعلمُ ما الحكاية.. ولم ألحَّ في السّؤال" هل أنضج؟
إنّها، عدم الإلحاح من علاماتِ النّضجِ حسبَ ما سمعتُه في حياتي!.

انتهى اليومُ، وظلَّ أيهم مع صديقه بواجب الوفاء.. وعادت برفقتي الآيات الّتي قضت أغلبَ وقتِها في الحديقةِ الملحقةِ بالمكان. إلى يَسار في منزلِها، بعدَ أن تأخّرَت هي ونوّار في تعديل لون شعرها.. اتّفقنا أن نجتمع هناك...

في الطّريق إلى المنزلِ تحدّثنا معاً، عن أشياءَ كثيرةٍ لفتـتـني مثلَ إرادتِها وحُلمِها الّتي أصبحتْ حقاً عليه.. رأيتُ نظراتِ النّاسِ إلينا، أغلبُ مَن مررنا بهم نظروا إلينا نظرةَ إعجاب.. نظراتُهم تشبه على الأقلِّ، تلك النظرةَ الّتي ننظرُ بها إلى وجهٍ مألوفٍ نظنُّ أنّنا قد رأيناه.. لا بأس، إنَّ لمن الممتع جدّاً الحِسُّ هو بالشهرة هكذا..

بدا المساء جميلاً بعبير نسماتِه الباردة... كنّا نمشي في شارعٍ عريضٍ جداً؛ تحتَ ضوءِ بدرٍ اكتملَ البارحةَ... أحياناً نشعرُ بأمانٍ وهدوءٍ يمنحهما الصّمتُ وبعضُ الابتسامِ الرّقيق حتّى إذا كانَ من غريب..، بالمناسبة هذا من طباعِ بَيان الأنيق. حينَها خطر على قلبي سؤالُ الآيات عن بَيان... وعن سببِ رفضها وإبعاده عنها بكلِّ تصميم!. الواضحُ من ردودها، أنّ بَيان قد أعجبها؛ "لكنّ البعض منّا يا جيانا يغريهم النجاحُ أكثر، خلق طمعهم على طموحٍ لا على بشر... لا شكّ بأهمية وجودِ الآخر إنّما بتأخّرٍ عن المرتبة ذاتِ الرّقم واحد." حقّاً لقد بدأتُ أحبّهن؟.

بدا وجهي مستغرباً كأنّه يريدُ المزيدَ من الكلام، "لكنّني لم أفهم، أعجبْته، أعرف ذلك. لماذا رفضتِ نداءه؟." أجابتني باختصار، "للتميّز أثمانٌ من القيراطِ الأوّل يا جيانا، وأحدُ الأثمان الّتي دفعتِها لأجلِ نجاحي هو رفضُ دعواتِ العشقِ، الّتي كانَ إحداها بَيان."

– "الحمد لله أنّه كانَ عندكِ ثمنٌ، ولكن أكلَ النّاجحون يدفعون هكذا أثمان؟."

سألتُها وقد أصبحت على يقينٍ تام بأنّي صغيرتهم...! فأنا لم أشاهد في حياتي أمثلةً كهذه، كنتيجةٍ بديهيّة لاختيارات أمي وأبي لي؛ لم أشاهد أشخاصاً مثل يَسار، أو نوّار، أو آيات، أو حتى أيهم.. وما عرفت وفاءً وطلاقةً وحريّة تفكيرٍ كتلك الّتي سمعتها من الآياتِ أثناءَ حديثِها في شارعِ الحب..

أثناء تلك اللّحظات.. كنتُ مثلَ لجنةِ التّحكيم لمباراة (بوكسينغ) تجمعُ بين أفكاري وظنوني الخاصّة بالكِبر وبين اعترافاتي الدّفينة بالصّغر... محاولةً ضبطَ الأمور

– "بل وأكثر؛ هم يختفونَ خلفَ أسوارٍ غموضهم..، يظهرون وكأنّهم قد ملكوا كنوزَ الحياةِ الدّنيا وما بعدها... لا أحدَ يستطيعُ فهمهم، يتحدّثون بمنطقٍ غريبٍ حتّى تتمنّي لو أنّ أفكارهم لم تُخلق.. الوحدةُ لعبتهم، والألمُ كما الاختفاءُ يلعبُ دورَ الصّديق.. حبالُ الفجيعة تؤلّف ملابسهم؛ يأكلون الجراحَ، كما حشوة خبزٍ سميكٍ مشوي بلذّة...، أولئك اليتامى يا جيانا، يعرقلهم الحبُّ، تذبحهم القيودُ.. ويبقى في رؤوسِهم توالدٌ مستمرٌّ للسّؤال... ماذا بَعد؟."

صمتتْ فجأةً ووجّهت إليّ نظرةً تشبه نظرةَ الإعجابِ الأوّل؛

– "أتحبّينه إلى هذا الحد يا جيانا؟."...

تعثّرتُ بفراشةٍ ترنّحَت أمامي ثمّ وقفتْ على أنفي، كنتُ على مشارفِه، لكنّني لم أقع. صادفَنا أحدُ المارّةِ في ذلك الرّصيفِ العريضِ المليءِ

بالسّياراتِ المركونةِ، طالباً من الآياتِ أخذَ صورة فوتوغرافية معها للذكرى. "الحمد لله." قلتُ في نفسي "سوف يشغلها عني قليلاً؛ ريثما أرتّب كلماتي."

بعد رحيلِ الشابِّ المبتسمِ وهو على فرحٍ كبيرٍ برؤيته لآيات..

– "أحبّه حتماً؛ لقد أحببت قبلَ ذلك شاباً آخر، وهو في ذاكرتي كحبٍّ أول ليسَ يُمحى، لا أستطيعُ نسيانَ إحساسي بأنوثتي للمرّة الأولى.. عندها أحببتُ فقط، ولكن هذه المرّةَ القصّةُ ليست قصّةَ الحبِّ لوحدهِ إنّما هي قصّةُ ما أعيشُه في محيطِ حبّي، السّلام الّذي شعرتُ به، المتّكَئُ والهدوءُ والدّفءُ.. عشتُ حباً خالياً من الاستعراض.. مع شريكٍ لم يحاول استفزازي بتفاصيلِ بطولاتِه مع الأُخرياتِ رغمَ وجودها، لكنّني عرفتُها مصادفةً، ثم التقيتُهنّ أيضاً فأظهرنَ لي محبّةً كبيرة، وكان الصّديقُ صديقاً صدوقاً، كيف لا أحبُّ وقلبي قد انصهر بما رأتهُ عيني من محبّةٍ وفضيلة، إنّهم عائلتي الّتي سبقَ لي وفقدتها."

كأنّما كلماتي أثارت شجنَ الآياتِ ممّا جعلها تتنهّد بصوتٍ واضح..

– "أنا أيضاً قد أحببت سابقاً؛ لكنّه ذهب كهذا الهواء الّذي يجعل من شعري أيقونةً ثمَّ يمضي، عندها تغيّرتُ كلّي، أصبحتُ أرتمي على الأحلامِ لا على الأشخاص، الحمد لله على رحيله، لولاه ما صرت على ما أنا عليه اليوم."
أمسكت يدي؛ "المحبّة جسمُ حياةٍ مشرقة أيّتها الصغيرة."

ومشينا معاً صوب يَسار ونوّار.

****

(١٢)

كانتا على كونتوارِ المطبخِ المُدمَج مع غرفةِ الجلوس، والمصمّمِ بأيدي يَسار وبَيان.. هذان المهندسان يحبّان العملَ في المساحاتِ الضّيقة، والعملُ في تلك المساحاتِ يستفزُّ إبداعاتِ المهندسين. لكن على صعيدهما الشخصي، يعيشان برحابٍ حياتيٍّ واسعٍ كأنّهما من قطعِ الخلودِ المتناثرةِ في الدّنيا. يا له من تناقض!.

على مَشربِ الكؤوسِ، حيثُ قدحُ يَسار من نبيذِها المعتادِ منتصب، فتحتْ صاحبتُه البابَ لنا. ونوّار القديمةُ المتجدّدةُ تشاركها، ضائعةً بين بعضِ أطباقِ الطّعامِ الخفيف، وصلنا أنا والمعروفةُ آيات على صوتِ نوّارَ العصبي..

– "لم يكن خياري وأنت تعلمين ذلك."

انبلق الباب ويَسار تردّ

– "لا نستطيع دائماً الوقوف أمام تيّار القدر."

ثم بدأتُ بسماعِ قصّة زواج نوّار مغصوبةً. نوّار ذاتِ الابتسامة العالقةِ في خاطرِ بَيان وأوراقه وجداره... عبّرت لها يَسار، بأنّ ما حصلَ معها كان متوقعَ الحدوث، لأنّ الانصياعَ لقراراتِ العائلةِ دونَ رغبة، ينتجُ أثماناً كهذه في بعضِ الأحيان.

يبدو هذه المرّة أنّ الرّصاصةَ كانت في القلب؛ لا في الأحشاء.. هناك حيثُ لا يمكنُ انتشالها أبداً. تغيّرَ ضغطُ الدّمِ، وانسيابيّته وأكسجتُه، لدينا

بعضُ النّزفِ، ها هنا تماماً.. وأشياءُ كثيرةٌ بدّلها الجهاز المناعي البشري... ممّا أدّى لتغيير الواردِ الدّموي المغذّي للخلايا والأعضاءِ والأجهزةِ وبالتالي أصابَ التغييرُ أفعالَها وردّات أفعالها، والتّصرفات، وستبقى القادمات على القلب تحت تأثيرها. أنا لستُ طبيبة؛ ولكن هذا ما اتّضح على نوّار، لقد غيّرتها قسوةُ التسيير العائلي.. (أبدو مثقّفة فوق العادة.)

بعد تعبير يَسار سألتُها أنا،

- "كيف استطاعت ابتسامتكِ حفر نفسها في وجدان بَيان العابرِ تلك اللّيلة.. وأنت حزينةٌ هكذا؟."
- "أكثر ما مثواه الوجدان هو الحزن." (قالت نوّار متنهّدةً.)

يبدو ذلك مؤثراً. أثناء تناولنا للطعام رنّ هاتفُ يَسار.. قامت من الطاولة إليه وبدا على وجهها الخوف عندما ركّزت نظرَها إليه، تمتمت متسائلة: "إنّه أيهم؛ ماذا يريد يا ترى؟." ردّت على اتّصاله بلا تردّد، ربما لو كنتُ مكانَها لفكّرت لساعتين قبلَ بدء مكالمةٍ هاتفيّةٍ بهذه المعطيات. بقي انتباهي عندها...

- يَسار: أهلاً أيهم؛ كيف حالك؟.
- أيهم: هنا السيد عادل يريد التحدّث إليك.
- السّيد عادل مسؤول الأمن: مدام يَسار؛ لقد أتيت إلى هنا عدّة مرّات ولم أستطع رؤيتك.
- يَسار: سيد عادل اعذرني لم أكن على علمٍ بقدومك الينا.

- السّيد عادل: لا بأس، أردتُ إخبارك أنّ صاحبَ السيّارة هو صاحبُ الشركة فعلاً.
- يَسار: أشكرك جداً. هل بإمكاننا فعلُ أيّ شيءٍ الآن؟.
- السّيد عادل: لا نستطيعُ التّداخل على أملاكِ شخصٍ لمجرّدِ اتّهامه بتهمة التعرّض للآخرين.
- يَسار: لا بأس سيدي؛ تهمّني تلك المعلومة كان عليّ التأكّد منها. أشكرك على تعاونك معي.
- السيد عادل: هذا واجبي مدام، لقد قمنا بتعميمٍ كاملٍ عنه وعن السيّارة، ونحن ننتظر شفاءِ السيد بَيان كي نأخذ منه أيّ معلوماتٍ إضافية.
- يَسار: أشكرك جداً.
- السّيد عادل: معك السيد أيهم؛ تفضلي.
- أيهم: سأعود إلى بَيان الآن، وأحدّثك لأفهم ما يجري.
- يَسار: حسناً.

عادت لتكمل طعامَها، أخبرتنا أنّها طَلبت من مسؤولِ الأمن طلباً عندما انفردت به وقد جاءها الخبرُ بالنّتيجة، أنهت إفصاحها بتسارعٍ فظيع: "هذه هي القصّة برمّتها".. لأنّ أيهم عاود الاتصال بها مرّة أُخرى. هذه المرّة أجابت بهدوء وطمأنينة تامّة في البداية، لكن بعد ذلك دخلت غرفتها، وبدأت تتكلّم بصوت عالٍ أشبه بالصّراخ قائلة: "كيف حصل ذلك؟." وصمتتْ..

لا أعرف ماهيّة ذلك الحديث الّذي دار بينهما إنّما وجه يَسار أثناء انسحابها إلى الغرفة كان تعبيراً حقيقيّاً كاملاً عمّا تراه العينُ فتقول النفس عنه: (لا يمكن تفسيره.). أصابني الهلع، تذكّرت خبرَ انفصالِ

أبي عن أمي عندما وصلني؛ خفت من خبرٍ ثقيلٍ على قلبي.. فتحتُ بابها وبدأت أسألُها بالإشارة؛ عمّا حصل. وهي أشارتْ أيضاً، أن أنتظر...

في أوّل ثواني مشهدِ الانتظار بقيتُ على وقوفي ثابتةً، في بقعةِ غرفةِ النّوم الّتي أحفظُ سقفَها الملّونَ، وأثاثَها القريبَ من الأرض...، بالتأكيد كان بَيان ينامُ هنا!. هرّت دمعتي الّتي لا أعرفُ كيفَ وُلدت، وسرعان ما التحم ابهام نوّار بتلك الدمعة، محاولةً أخذي منّي لأرتاح بعض الشيء! (حسب تعبيرها.) ريثما تُنهي يَسار مكالمتها فنفهمَ ما جرى... "اهدئي؛ الآن نفهم." قالت نوّار..

أخذتني وأجلستني على المقعدِ في غرفةِ الجلوس، وجلست هي على يده، منادية لآيات كي تحضر كأسَ ماء. استمرّت يَسار بحديثها مع أيهم ونحنُ نسمع بعضَ صرخاتِها مرّةً وتغيب عنّا تمتماتُها مرّة أخرى: "لماذا لم تنتبه يا أيهم، لماذا؟."

وبجملتها : "سنأتي؛ سنأتي إليك لا تتوترّ أكثر، حاول التكلّم مع الطبيب حتى نصل." أنهت حديثها..

خرجت إلينا تنقلُ الخبر: "الأوراقُ يا جيانا." عند سماعي لهذه الكلمة، شهقَ قلبي واستمرَّ على تأهّبٍ، تغلّبت عليه آيات: "أيّ أوراق؟."

ثَبَّتَ صمتي أقدامه على فمي بجواب يَسار المختصر: "أوراقنا الخاصّة." تابعت وهي تصوّب نظراتها إلي... "لقد أصبحت في يد بَيان يا جيانا." يا ربّاه على خبرٍ كهذا والحمد لكَ أنّه ليس بفقد.

ما بين الخوف والاطمئنان أخذ قلبي شهيقَه مجدداً.. "لقد أدخلَتها الممرضةُ بعد طلبٍ الطّبيبِ إعادتَها لنا، كان أيهم مع السّيد عادل خارجَ

الغرفة! حينما عاد وجدها بحوزته. سنذهب إليهما حضّري نفسك بسرعة." قالت يَسار.. "هيّا جيانا. سنذهب معكما يا يَسار." تدخّلت نوّار.

في الغرفة رقم "تسعة" كان بَيان على قيدِ القراءة ومعه أيهم. في ممرّها اجتمعنا اجتماعاً قد تكرّرَ مع وصول د. عمرو الّذي قدّم اعتذاراً مباشراً عن الخطأ الّذي حصل من قبل الممرّضة سالي.. ردت يَسار بلباقةٍ "لا بأس؛ ولكن أتمنّى ألا تكون قد أحبطت مخطّط استرجاع بَيان."

"أظنّها عجّلت منه فحسب." طمأن الطبيب يَسار وقلبي بكلامه هذا..

خرج أيهم من الغرفة على وقع ذهوله، "إنّه لا يتركهم أبداً! كيف حالكم؟.".
طلب د. عمرو من نوّار الدخول، فأخبرته أنها لم تستطع ارتداء فستان زفافها (كما شاء منها سابقاً.) لأنّه لم يعد بحوزتها بعد أن انفصلتْ؛ "الأهّم بالنسبة لي هو تفاصيل وجهك؛ حاولي استعادتها أمامه.".

في جوٍّ يسوده التوتّر، دخلوا جميعهم إلى غرفةِ المراقبة. أما أنا كآخر العنقود. تردّدت خطواتي أمامَ بابها، لذلك عدت عنه لأقفَ على بُعد خطواتٍ من عتبته.. ثم دخلتْ نوّار إلى بَيان المسترسلِ بقراءةِ نفسِه وأوراقه. إنّه يعيشُ على الأوراق كأيّ حبيبةٍ أو قصيدةٍ تُفتن القلب، تقلّبه الذّكرياتُ بين هذه وتلك.

هناك في مدى الممرّ الأبيضِ ذاتهِ الذي دخلته أوّل مرّة راكضةً إلى زوجي.. مشيت أُبحلقُ في المكان ككلٍّ بلا رفيق. أنا وانعكاسي وجحوظُ عينيَّ الناتجُ عن تفكيري الّذي لم يعد باستطاعتي ايقافه..

ابتعدتُ عن الباب تاركة على الأبواب المغلقة التّاليةَ لبابِ غرفةِ المراقبة، آمالي وعيوني على بابِ الغرفة رقم "تسعة" المواربِ...، ثم ارتسمتُ على الجدران المحيطةِ به كنَكسات عمرٍ رُسمتْ على جبين.. ربما، كنت أنا النّكسة لزوجي وأهلي، وفيَّ انتشرت غيرة أنثوية فاضحة؛ لا قوّة لديّ الآن لمكافحتها..

مشيت أشاهد الهواء وأبتسمُ له!. أعدُّ ضحكات أيام مضت، كان للضحك مكانةُ داخلَ حياتي، أيامَ طفولتي وخطوبتي.. حينها كنّا نحنُ على قيد الحياة، وليس العكس؛ أنّ الحياة على قيودنا... وكانُ الأمل يتضرّعُ لجبهاتنا المشرقةِ والطموحةِ.. تغيّرَتِ الأيامُ وغيّرت مَعها كلَّ التفاصيلِ، أصبحنا نلهثُ خلفَ أملٍ بالكادِ نمسكُ بطرفِ ثوبِه لبعضِ الثّواني قبلَ أن يتمزّقَ الثّوبُ وتبقى لنا؛ قطعَتُه الممسوكةُ بين أصابعِنا.. ثم نُعيدُ تكرارَ المرحلةِ... وهكذا..

غادرتُ المكانَ كلّه بلا أيّ عنايةٍ لِما سيصبحُ خلفي بعدَ حين؛ متّجهةً إلى الاستراحة المجاورةِ لمبنى الغرفةِ رقم "تسعة". ذاك المكان القديمُ البسيطُ الممتلئ بصخبِ تعبِ المتعبين وخبوّ أجسادهم... بحذاءِ حديقته، وقفتُ كمجنونةٍ هاربةٍ من مصحّها، أراقبُ الورودَ وأبتسمُ لها؛ تجوّلتْ نظراتي بينها وبينَ السّماء ووجوهُ الواقفين والواقفات غيري.. بينما كانت النّظراتُ القادمة من الغير تبرهن جنوني!. كنتُ فارغةً تماماً من كلِّ شيء، كما تبدو الإجابة (لا شيء.) رغم عمقها وطولِها وحِملها..، عند استخدامِها للردّ على سؤالٍ أتى على حينِ غِرّة قال: (ما بك؟.) حتى

أنّي ما استطعتُ الدّعاءَ كعادتي رغمَ كونِه الوقتَ المعتادَ لدعائي تقريباً. لكنّني أعرفُ أنّ الله يتدخّلُ في الوقتِ المناسب تماماً كما يفعلُ دائماً..

أما عن العُزلة، دعني أخبرك ما أصبحتُ على علم به.. لا دخلَ للعُزلة بوجودِ النّاس أو عدمِ وجودهم... بل هي شعورُك المباغِتُ بالحاجةِ للركض من بين الزَّحامِ أو الهدوء، لا فرق...، تحديداً الآن وليسَ بعدَ دقيقة، كأنّما أنت فريسةٌ خلفَها سيلُ دمعاتٍ جائعةٍ تريدُ أن تَبكِيك لا أن تُبكيَك فقط... ولا دخلَ للغُربة بالسّفر؛ الغربةُ الأصلبُ تُعاشُ في الوطن، حيثما نظنُّ أنّنا سنلتقي مع القمر.. لا دخلَ للعقلِ بالسّعادةِ أيضاً، فأكثرُ ما استطاع العقلُ إفسادَهُ هو السّعادةُ.

أنهيتُ وقوفي بلمسةٍ لزهرةٍ صغيرةٍ من نوعِ "الفاوانيا"، ودخلتُ إلى الاستراحةِ المذكورة، كانت الأضواءُ تشبهُ أضواءَ أقباءٍ مهملة. لكن بعددٍ أكبر.. هنا أيضاً الجدرانُ تتسلّط بلونِها الأبيض، لا أعرفُ من صبغَ كلَّ هذا المكان بالأبيض، لكنّني أعرفُ أنَّ هذا اللّونَ يستخدَمُ كأحدِ فنونِ التّعذيب..! حتى الملابسُ البيضاءُ تحتاجُ معاملةً خاصّة!.
أحضرتُ فنجانَ قهوتي، على أملٍ بأن يصيرَ "فنجانَ قوّتي" أستمدُّ منه بعضَ ما يدفعُني للصمود... جلستُ على الكرسيّ بوضعه العشوائيّ، كما تركَهُ مَن كانَ عليه قبلي... دونَ اهتمامٍ من أحدٍ لوجودي، أليست البلاهة بأن ننتظر اهتمام الغير بنا!؟.

سألتُ نفسي هذا السّؤالَ، ثمّ وضعتُ صدغي على الطّاولةِ مع بعضِ يديَّ بابتسامةٍ بسيطةٍ مقتنعةٍ بأنّني لو كنتُ زهرة تشبه زهرةَ "الفاوانيا" الخاصّة بالمرضى لمررتُ أيضاً في مرحلةٍ كهذه..

رُغمَ أنَّ كلَّ ما تمسكُه الطّبيعةُ يُمكِنُه أن يُزهرَ لأنَّ أولادّها من زهرٍ أو وردٍ أو ثمرٍ أو عشب، يبقَون على حالةٍ من الابتسامِ والتأمّلِ لبعضهم البعض، أو ربّما حالةٍ من غزلٍ مستمرٍّ بلا توقّف، لا نفهمه نحن،

وجميعُهم يعيشون دورةَ حياةٍ كاملةً بلا منغّصات..، وهم قادرون على التّحدي والتجدّدِ باستمرارٍ؛ إن لم نفسد نحنُ - بني البشرُ- حياتَهم وعلاقاتِهم الخاصّة..، لكن بالتأكيد..، لديهم صعوباتُهم.

لا أعرفُ إن كنتُ قد غفوتُ على صوتِ ساعتي المتشابهِ مع دقّاتِ القلبِ أم لا؛ لكنَّني لم أشربْ أيّة رشفةٍ من قهوتي، أو قوّتي..، لا بأس، فالأسماءُ أقلُّ أهميّةً من الشّعور.. غداً، عندَ الله أشربُ قوّتي أثناءَ استحمامي بقهوتي.. وأبوحُ بسريرتي، فعند الله وله، ليس على الإبانةِ حرج. (يا له من إيمان!.)

قبلةٌ على شعري حطّت رحالَها، وصوتُ تحدّثٍ على مَقرُبةٍ شديدةٍ من صيوان أذني.
جعلا قلبي يرتجف، وجسدي يرمَحُ بحركةٍ لا اعتيادية... تحرّكَ رأسي باتّجاه الصّوتِ، ويدي اليسرى باتّجاه فُنجانِ القهوة. تعرّفتُ على الصّوت..، وسكبتُ القهوةَ على شرشفِ الطّاولة.. فنظرَ كلُّ المكانِ إلينا، أنا الزّوجةُ جيانا ويَسار الّتي تجدني دائماً: "أنحضّر لك غرفة العناية المشدّدة عزيزتي جيانا؟." (قالت يسار بصوتها الدّافئ المعتاد)..، لا أعرفُ لماذا يهتمُّ بنا الجميعُ تحديداً عندما نخطئ... فقط أولئك الّذين يخطئون تقعُ عليهم دائرةُ الضّوء!.

سألتها: "أتنجبينني يا أيسري؟." ...، كنتُ على مقدرةٍ من تخيّلِ كلِّ أجوبةِ العالم في تلكَ اللّحظة إلا جوابِها عندما قالت: "أسئلتك توقِظُ في دمي قصّةَ ماضيَّ الحزين..، نعم؛ أُنجبكِ الآن وغداً.. لكن أتكونين أختاً لبَيان؟." فقمتُ لعناقها.. (ما هذا الغباء! كيف أسألُها انجابي!؟.) جعلتني التّراكماتُ سريعةَ البكاء. بكيتْ عندما لامسَت خدّي دمعةُ يَسار.

عندما وُلدتُ ...، لم أكن أعرفُ بأنّي سأعيشُ محتاجةً للحنان على فرضِ أنّ لي من أنجبَني، وأثناءَ ذلك العناقِ لم أكن أعرفُ أيضاً بأنّي سأعيشُ فرحاً لم أختبرهُ في حياتي قط.

أظنّ لأنّني أبكيتها!. على مشهدِ ذلك العناقِ وإحساسي بحنانِ يَسارَ المساير له، طلب منّي "الكاتبُ" توديعكم...، أحدُنا سوفَ يكملُ معكم، على المحبّة، إلى اللّقاء.

جيانا.

***

مرحباً؛ كيف حالكم؟. يشيرُ الوقت الآن إلى ما قبلِ عناقِ جيانا لي. لقد غادرتُ منذُ لحظاتٍ الغرفة رقم "تسعة"، أبحثُ في كلِّ الممرّات والغرفِ عن جيانا، هل سرقها أحدكم؟.

كانت نوّار قد اقتحمت على بَيان غرفتَه.! وكان بَيان قد استطاع اقتحامَ ذاكرته بحثاً فيها عن نوّار، أشكرُ الربَّ أنّه استطاع إيجادها هناك.. نوّارُ الّتي لو كانت معه لتغيّرت دنياه. استطاعَ التعرّفَ عليها وعلى ابتسامتِها عندما رآها مرّة أُخرى...، عبَرَ ذلك الممرَّ المظلمَ الّذي كانَ يجهلُه، بشرارةِ القراءة؛ ومن نوّار انتقلَ إلى الآيات، آياتُ التي رفضتْه وتابعَت حياتَها بثباتٍ كبيرٍ نحوَ حلمها المنشود..

لقد فهم أخيراً شرودنا أمامَه؛ وغرابتنا، وتصرّفاتِنا.. وما جرى لنتالي؛ عندما قالت له "انظر إلى مجد.. إنه لا يبتسم عادةً إلا لي."

بهدوء.. "كلُّ هذا! يا الهي، كل هذا!!."
صرخَ في وجه أيهمَ الّذي ظلّ ممسكاً بكتفه مبتسماً له، "لهذا ارتبكتْ نتالي عندما كانت، فخرجت بسرعة!."

"ماذا أيضاً." وعاد يبحث بين سطورِه عن بعضه! عن أيامٍ عاشَها وعاشَته كاملةً..

بعضُ الدّقائقِ مرَّت هكذا، وهو يقلّبُ الأوراقَ على الأوراق، حتى نظرَ في وجهي وشفتُه ترتجف من أثر اللّوعة.

نعم، أنا يَسار، أو أيسر بَيان!.

"يَسار، كيفَ عرفَت الأستاذةُ جميلةُ بأنّني هنا؟" كانت الإجابة على ثغري لكنّني ما لحقت بنطقها.. تابعَ بَيان بصوتٍ عالٍ؛ "يا ربّاه زوجتي!!. لقد تزوجت أليس كذلك، لقد تزوجت!."

التفتُّ في كلِّ الاتجاهات، نظرتُ في كلِّ الوجوه! حتى رأيت د. عمرو؛ وهو آخر من كان في غرفةِ المراقبَةِ، دخل الغرفةَ رقم "تسعة" كعادته مبتسماً معه سالي وبلسم الهدوء... دقائقُ أُخرى مرّت، هدأ خلالها العزيز بَيان.

قبل مغادرتي، "نعم...، لقد تزوجْتَ وزوجتُك سوفَ تأتي." ثم خرجت أبحثُ عن صغيرتنا جيانا... سألتُ عنها كلَّ من صادفتُه في طريقي.. بعد عدّةِ أشخاصٍ عرفتُ مكانَها، لقد أصبح الجميع هنا يعرفنا.. وجدتُها ورأسُها على الطّاولةِ قد وضعته بمساعدةِ ساعدها الأيمن. وحدث ما حدث.. القهوةُ انسكبت، عينُها بالدمع تغرغرت. عانقتني عناقَ طفلةٍ تعانقُ والدتَها في بهو القادمين من عذاباتِ سفر...، وكأنّها تعانق العُمُرَ الماضي توديعاً، أو تعانق اللّحظاتِ الغائبةَ، الفرحُ والآمالُ والدّعواتُ المرفوعةُ إلى السّماءِ عناقاً أخيراً واجباً لا بديل عنه.

لم أقل لها أيّ شيءٍ مما جئتُ به، فقط أجبتُها عن سؤال كانت قد سألتني إيّاه ثم ضممتُها بحناننا الأنثويّ الفتّاك كابنةٍ حُرِمتُ منها، باذلةً قصارى جهدي بالاحتواء في مرمى أعين الحاضرين جميعهم. في الحقيقةِ جئتُ أفاجئُها ففاجأتني.. أولئك الصِّغارُ يباغتونَنا على الدَّوام...

خرجنا من الاستراحةِ تلك بخطوات مترافقةٍ، وعلى وجهينا ابتساماتٌ تحلّقُ في كلِّ المرامي؛ إنّ ابتساماتنا تغيّرُ الواقعَ بطريقةٍ مرعبة!.
سألتني جيانا عمّا جرى في زيارةِ نوّار.. "لا شيء لكن نريدُك معنا؛ وأريدُ عودَتك لدوركِ أيضاً." أجبتها وأتممت حديثي: "جيانا إن كنت تحبّينه بحقّ، فلا تتخلّي عن مكانك أيا كان المكان!." على هذه الكلماتِ استمرَّ المشيُ، محاولةً بجهدٍ شخصيٍّ استغلالَ نظراتِ جيانا إلى الأرض والمحيط كي أرسلَ رسالةً لأيهمَ أخبره أنّ جيانا معي لكنّها لا تعرفُ شيئاً بعد.. نجحتُ في نهاية الأمر، ووصلتِ الرسالة.

بدأتُ أتخيّلُ بيني وبين نفسي كيفَ ستكونُ ردّةُ فِعلِ جيانا عندَ وصولها إلى الغرفةِ رقم "تسعة" تخيّلتُها مرّةً تسقطُ أرضاً من هولِ المفاجأة، ومرّةً أنّها لا تستطيع استيعاب ما حدث... ياه كم صنعتُ من المشاهد! ثم نظرتُ إليها وأنا أسألُ نفسي حقاً كيفَ ستكونين يا جيانا؟ بينما أنظرُ أنا إليها قالت: "أحبّه؛ كيف لا أحبّه؟!." جوابٌ متأخّر!. حينها أخبرتُها ألّا علاقةَ بوجودِه كزوجٍ في حياتها وحبِّها له، فالحبُّ يولدُ من رحمِ السّماء، بينما البشريّون يولدون من أرحامٍ بشريّةٍ بتوجيه السّماء. "لن يؤذيك الله به، إذا التمسَ حبّاً عظيماً داخلك."

أربكتني بردّها..؛ "لكنّك تأذّيت من الحب، ألم يكن فيك حبٌّ عظيمٌ؟." وضحكتُ ضحكة متأذّيّةٍ حتى أركلَ نفسي الحزينة.

نعم لقد تأذّيتُ يا جيانا؛ لكنّ الحبَّ عندما يكونُ عظيماً ينكبُّ على الأذى أكثرَ من انكبابِه على الخير؛ الجميعُ يحبُّ الحبَّ حلوَ المذاقِ، وقلّةٌ من يبقون على الحبِّ رغم مراره.. "يقاسُ العشقُ بمدى ما يستطيعُ العاشقُ تحمّلَهُ من الأذى." قلتُ لها ونحن بالقرب من الغرفة رقم "تسعة" واستمررْتُ بالمشي أسبقُها بخطوةٍ وضحكتي تكادُ تصلُ بين أذني كلتيهما..

عيناي تنظرُ إلى الأرضِ، ثم البابِ، فذراعه.. استدرتُ أفتحُ باب الغرفةِ بميلان القسمِ العلويِّ من ظهري عليه..، فتحته ووقفتُ أنا لكنّ جيانا لم تقف رغم استغرابِها منّي، تابعت خطواتِها ودخلت، رمقتْ الجميعَ بنظرةٍ وتابعتْ إلى الحمّام الخاصِّ بالغرفة لتخرج منه بعد ثوان حاملة أدوات تساعدها على التنظيف! تحرّكت نوّار لمساعدتها، وآيات أيضاً.. وأنا خالدة في مكاني؛ حتى أنّ يدي بقيَت على ذراع الباب..

أردت سؤالَهم عمّا جرى في غيابي؛ لكنَّها كلماتي.. ما استطاعت الخروج من بابِ فمي. تكونُ الكلماتُ أحياناً أكبرَ من الأفواه. للحظةٍ، ظننت أنّني على رؤيا، أو كنت فيها والآن استيقظَت روحي، صارَ وجهي بشفةٍ علويّةٍ ثابتةٍ وسفليّةٍ متدلّيَةٍ، وحاجبٍ أيمنَ مرفوعٍ وأيسرَ ثابت، وخدّين شاحبين تماماً انقطع عنهما الدم، وعينينِ منبثقتين تحاولان مغادرة الحُجاج؛ أصبحت الدّنيا فيهم فقط دوائرَ مواظبةً على الدوران.

والآن سوف أترك مهمة الختام للكاتب.

يَسار.

****

(١٣)

من أين لك بكلُ هذا الصبر يا ابنتي؟ من زرعَ في جسدك الأبيضِ الممتلئ، مولّداتِ الجَلَدِ بهذه الغزارة..؟ للصغيرات أمثالِكِ، عنفوانٌ عنيفٌ، لا بدّ وأن ينضَحَ من شعرِكِ العسليّ، طالما أنّ قلبَك الأحمرَ يتماجدُ بلونه ولون أزهار نبتت منه ثم ترعرعَت حتى وصلَت إلى عينين بُنيّتين ضجَّ فيهما تدلّههما. كما سيبقى لسانُ حالِ الاستاذة جميلة، الّتي تكونُ أمَّكِ يقولُ: كانت ابنتي فأصبحت ابنتكم. لأنَّ الأمومةَ لمن احتوى لا لمن أنجب.

لقد أحببنا وجودَك معنا، أضفتِ لنا معنىً أكثرَ شهيّةً، وزالت عنّا الأحزانُ بانطوائها. لكنّها الأيّامُ يا جيانا لها عقولُ الصِّبيَةِ وأجسادُ مرضى اليأس.. تتزيّن بالأشجانِ حتّى نحبَّها كذلك تتزيّنُ النّساءُ بأحمرِ الشّفاهِ وكُحل العين... والظّاهرُ ليسَ على الدّوامِ كالمحتوى. إنّما للصّبرِ أجرٌ عظيمٌ عندَ خالقِ الصّبر.. وعِوضٌ تحتّم مجيئه.. كما هو الحبّ..

اركضي الآن أيضاً، بل اركضي الآن أكثر..، ليس كلُّ الجري يأتي عن هلع..، وقفي في الممرّ عند باب الغرفة رقم "تسعة" أو حولَه لتستمتعي باللّحظة ولتستطيعي الاحتفاظَ بالأثرِ تحتَ الجلدِ بينَ الحشى.. تقدّمي خطوةً وتراجعي خطوتين ثمَّ العكس. ثمَّ قفي على كلِّ بِلاطة من أرضِها، وابصمي بصماتِ أيدٍ كاملةً لا أصابعَ فقط على جدرانها. انفجري فرحاً إنْ أردتِ، فالانفجارُ عن فرحٍ ليسَ بكثرةِ انفجاراتِنا عن الألم.. بعدَ كلَّ ذلك اقتحمي أمنيةً تمنّيتِها جداً. كانت أمنيةً وصارت دعوةً ثم أضحت منجزةً.

قامَت جيانا بعملها، بظنّ عقلها؛ أنّها العادةُ الّتي اعتادَت عليها خلال المرحلة. ساعدَ أيهمُ يَسارَ لتدخُلَ وتجلسَ غير مدركةٍ؛ على أحد المقاعد... وأثناءَ تحرّك جيانا مهتمّة للغرفة ..... "لقد اشتقت لكِ يا جيانا."!! تجمّدت جيانا في مكانها لبرهة وكأنّها تمثال ثمّ وبردِّ فعلٍ لا إراديٍّ هزّت رأسها هزّة نفيٍ وأكملَت.. بينما طمأن الصّوت يَسار.

عادَ صوتُ بَيان إلى مسامِعها: "نعم أنتِ.. أنا أعرفكِ..، أتذكّركِ." فوقفتْ لأقلِّ من دقيقةٍ تنظرُ إلى الحاضرين هناك نظراتِ الشّكِ، وتلمسُ عيناها بَيان بجمودٍ لمسةَ أمٍّ احتوت، دونَ أيِّ ردٍّ على الفعل؛ كمَن حدّثَ نفسه إيماءً. في الحقيقة عجزتُ أنا عن وصفِ تلكَ النّظرةِ بالتحديد. ثم ضحكت جيانا، وضحكت معها يَسار... وابتسمت الغرفةُ رقم "تسعة". ثمّةَ ضحكاتٌ نتمنّى وقوفَ الزّمنِ عندها.

تقولُ يَسار عن تلك اللّحظات "ياه. لقد تخيّلتُ كلَّ شيءٍ إلّا ما حدث، توقّعتُ أن يفهم أيهمُ ما أردتُه من الرّسالة لكن ليسَ بهذه البراعة."..

هرعَتْ بضحكتِها ودمعُ عينيها قد انهمرَ دونما بكاء، وجههُا على ضحكٍ وجهْشٍ في آن معاً، سارتْ بخطواتٍ متأرجحةٍ إلى زوجها؛ تلعقُ صبرَها وانتظارها، صادحةً لا مصدّقة: "عدت؟؟ حقاً عدت.. أصبحت تعرفني؟؟." فقام البَيان من سرير نسيانه ممسكاً يديها مقبّلاً جيانا الصغيرة... لكن جيانا الزوجة هذه المرّة. وأيضاً ثمّةَ عِناقات صُمّمت لتؤكل.

- "ماذا أفعلُ فيك الآن؟ أيّ شتم هذا الذي يكفيك؟." تحدثت يَسار لأيهم.. أيهمُ سمعَ كلماتِها وبدأ بنوبةِ ضحكٍ مجنونة.. "لقد أرعبني؛ لا بل كادَ يوقف قلبي عن النّبض." تتمتمُ يَسار.

- أيهم: لم أتوقّع فقدان يَسار لأعصابِها هكذا.
- جيانا: لا أفهم كيف استطاعت إخفاءَ الخبر.

بعضنا يحتملُ حتى ينتهي. وإذا انتهى، فأيُّ حِملٍ جديدٍ جعلَ فيه الفيض. هكذا انتهى دورُ الغرفة رقم "تسعة"، وتُركت من ساكنيها لتنتظرَ أقدارَ السكّان الجدد. كما انتهى دورُ غرفة المراقبةِ بنجاح د. عمرو فيما سعى لأجله سعياً دؤوباً تملؤهُ رسالةٌ إنسانيّة غايةٌ في البراعة والرّوعة، لدرجةِ أنّها تدرَّس، حيث بقي حتى الأنفاس الأخيرة يُترجمُ رسالَته من خلالِ تسجيلِه لحظاتِ استعادةِ جيانا لذاكرةِ زوجِها على شريطِ فيديو، بطلبٍ من أيهم. شريطُ الفيديو هذا سيبقى حتى آخرِ العمرِ ذكرى لا يريد أحدٌ عيشها. لا أعرفُ لماذا نسعى دائماً للاحتفاظِ بكلِّ شيء!. "فرحت لفرحهم!."

إذا رأيت الفرعَ قد أثمر؛ فاسأل السّاقي عن السقيا. لا فرعَ بلا جذور... وليست الجذورُ تعرف ما يمكن أن تكونَه ثمارُ فروعِها غداً أو أبعد. هذه وجهة نظري..

لذلك لن يبقى الغموضُ يسيطرُ على معنى رغيفِ الخبز يا قارئي؛ رغيفُ الخبز الّذي لا يفرّق بين الموائد، لا يعرف لا الغنيَّ ولا الفقير، يبقى رغيفَ خبزٍ بين كلّ الأسنان حتى تلك المصنوعة من ذهب، يبقى رغيفَ خبز أمامَ شعرٍ منسدلٍ أو ضفيرة..

إنّ رغيفَ خبزنا هو المحبّة. هو السّلام والبذل والجهد والتآخي.. هو بالضبط تلك السّقيا الّتي تذهبُ بنا نحو التورّدِ والازدهار... أكرّرُ، رغيفُ خبزنا هو في المقام الأول محبّتنا...

– "عشت وقتاً عصيباً لما أخبرني د. عمرو بأنّي قد أخطأتُ لعدم التزامي بحرفية التعليمات." تقول سالي؛ "حينها ظننت أنّي سأفقد عملي هنا."

جميعنا مررنا أو سنمرُّ بما شعرت به سالي. نظنّ أنّ الحياة قد توقّفت في لحظةِ خطأ.
نعم، تبدو بعضُ الأخطاءِ في المقتل يا سالي؛ وبعضُها الآخرُ يعيدُنا إلى الحياة.. فحياةُ الواحد منّا هي مجموعة من الأخطاء والصّدفِ، تشترك بالتمحورِ حولَ الفرد. عموماً، لست بصددِ تعريف شيءٍ اختلف عليه عظماءُ الدنيا. شكراً لما فعلته سالي.

وأنتِ يا نوّار بوركَت ابتسامتك، حقاً بوركت ابتسامتُك. بورك حلمك يا آيات، بورك نجاحُك الّذي سعيت إليه، ووصلته.. لكن لم يغيّر من روحك أيُّ شيء.

عادَ الجميعُ إلى منزلٍ واحد، بعد أخذ السّيد عادل مسؤول الأمن لأقوال بَيان ومما جاء فيها؛ "لم أرَهُ.. لكنّني أعرف صوته. لقد وضعوا على وجهي شيئاً قماشياً حجبَ عنّي الرّؤيةَ تماماً. ثمّةَ شيءٌ ما جعلهم يصرخُون. آخرُ صوتٍ سمعتُه حينها.. يشبهُ صوتَ أدم؛ لأنّه كثيرُ الصّراخ حتّى إذا تكلّم. خاصّةً ليَسار عندما كنّا معاً في الجامعة. لكن مع تعدّد اللّكمات واستمرارها لم أعد على قدرةٍ للاستيعاب ولا أعرفُ ماذا حدث بعدها."

لقد عادوا ليكملوا الحياةَ معاً. يمنحنا الاستنادُ قوّة. تصفّق اليدُ مع يدٍ أُخرى تمنحُها القيمةَ والقدرة والمتّكأ... تكتبُ الأصابع مع بعضها.. تمضغُ الأسنان مع العظمِ والأنسجة المحيطةِ بها.. حتى القلبُ يحوي بداخلِه أربعَ فجواتٍ وليس فجوةً واحدة... ولا يقومُ الجسدُ على جهازٍ واحدٍ من أجهزته لأنّها على علاقةٍ مكمّلةٍ ومتكاملةٍ مع بعضِها.. غيابُ أحدِها يعني بشكلٍ حتميٍّ حضورَ النقصان..

– يَسار: عندما رأيتُهم ظننتُ أنني حلمتُ بعودة بَيان لا أكثر.

كما أنّه من المستحيلِ خياطةُ جرحٍ بفتحةٍ واحدةٍ على طرف واحد، لا بد من فتحةٍ نظيرةٍ على الطرف النَّظير... خياطةُ الجرح تشبه التلفّظَ بحرف الميم...، بالضبط تضمُّ شفتي الجرحِ إلى بعضِهما سعياً للاندمال.

زارَ آدم دمشق بعدَ انتهاء زواجه بيَسار... وعزلَها عن دورِها ضمنَ الشّركة الهندسيّة الخاصّة به. حينها التقى بالأستاذةِ جميلة في ظلِّ حاجتِه لها؛ كي ترعى مهام يَسار المعزولةِ عن العمل سابقاً. في ذلك الوقت تعرّف على جيانا فأُعجب بها، أو دعوني أقُل بصراحةٍ أكبر، قد أعجبته جيانا. هذا ما دفعه للتمسّك بالأستاذةِ جميلة وإغراقها بالأموال فيما بعد... كانت الأستاذة بالنسبةِ له الطريقَ نحو ابنتها.. وليس نحو العملِ فقط..

أثناء زيارتِه تلك؛ فوجئ بما حصلَ مع يَسار بعد انفصالهما.. فاجأتهُ بعودتِها إلى حياتِها والعمل والأصدقاء.. وعرف أنّها عادت إلى رفقة بَيان؛ بَيان الّذي كانَ على مشارفِ الانتحار آنذاك. بينما خيالاتُه جعلته يعتقد أنّها تعيشُ على فِقدانه!.

استطاعَ السّيد عادل إلقاءَ القبض عليه بالقربِ من حدودِ الهربِ متخفياً، بتهمةِ الاعتداء على بَيان أثناء عودته من إحدى زياراتِه الّتي كثرت بعد إقالته لأستاذَته من العمل أيضاً. وبعد خروج بَيان من الغرفة رقم "تسعة". من خلاله وصلَ إلى بقيّةِ الشبّان الّذين ساعدوه بالاعتداء. كان هذا سهلاً. لكن أثناء التحقيق كَشف ما لا يمكن للعقل تصوّره...

حاول أدم التقرّبَ من يارا الّتي كانت قد انفصلت عن زوجها أيضاً وهي تعمل ضمن الشّركة، فأخبرها بأن يَسار على علاقةٍ وطيدةٍ مع حبيبها بحيثُ أنّه لا يعرفُ عمق علاقتهما. نجح باستغلال قرب يَسار من بَيان.. تزامناً مع دهشته بها.

أن ينتقم منك الصديق؛ دونما أعذار!.

في الزيارة التالية (قبل إلقاء القبض عليه)، كانت الأُستاذة جميلة قد بدأت العملَ معه. حينها عرف أنّ جيانا ارتبطت بيد يَسار لأجلِ بَيان. انعدام قدرته على التقبّلِ والنّسيان دفعه للاعتداء على بَيان بهمجيّته. وهذا ما شعرَت به يَسار عندما تحدّثَت مع الأستاذة جميلة في الغرفة رقم "تسعة" عبرَ ارتباط تغيّراتِ الإدارة بوقت زواج جيانا من بَيان؛ الوقت...! لقد كان حدسُها صحيحاً. لماذا تُعزَل الأستاذة وتتغير توجُّهات الشّركة بعد شهرٍ واحد فقط؟.

يَسار: كنت أظنّ أنّني السّبب فيما حصل مع بَيان. لكن يبدو أنّ أدم قد تجاوزَ زواجنا بسهولة. أشعر بسذاجتي. حين أكّد لي السّيد عادل ملكية آدم الكاملة لتلك الشركة، بدأتُ أشكّك بخلفيّة الاعتداء على بَيان أكثر.

تأكّدَت يَسار من وجودُ لغزٍ آدم في الاعتداء، لكنّها لم تتوقّع أن يصل به الجنون إلى هنا. لأجل جيانا!.

أثناء التّحقيق بحادثةِ الاعتداء مع أدم وأصحابِه، كشفَ السيد عادل عن رسائل متبادلة بين أدم ويارا.. مفادها أنّ الأخيرة نادمةٌ على علاقتِها

بأدم وبالعمل معه. يبدو أنّها أرادت الانتقام من حُبّها ومن صديقته. فكرةُ الانتقام أغرتْها رغم رحِيلها الأول..! لكن بقي كلامُ آدم عنها محطّ تفكير!.

– بَيان: لو أخبرتني يارا بعلاقتها مع أدم؛ لَما فعلتُ ما فعله. لكلٍّ منّا حياته الخاصة، هي التي غادرتني في بادئ الأمر.

سوف تأتيكَ الأيّام بفرحٍ؛ وتمرُّ بمحاذاتك مروراً سريعاً كحافلةِ إسعافٍ تنقلُ مريض قلبٍ الى الطوارئ...
والآن تلك الأيّامُ آنفةُ الذّكرِ عند جيانا، كصورةٍ فوتوغرافية تجمعهما وليس في الدّنيا كلّها ما يستطيع احتواءَ فرحةِ عاشقةٍ بعودة معشوقها.
لكن من عادات الماضي بطريقة ما إهانتنا، كلُّ ما مررنا به وكلُّ من مررنا بهم، الأوراق والامتحانات واللّقاءات والتحليل والتقدير والقدر.
لك أن تتخيّل يا عزيزي أنّ كلَّ الأشياءِ سوفَ تنطوي في مكان ما داخلَ جسدك متحولةً إلى ذكرياتٍ مكدَّسةٍ ليس لك الحقُّ بتذكّرها بل لها الحقُّ بأن تُذَكِّرَك بنفسها فقط عندما تشاء.

"سيبقى على زياراتِ النّسيان له بين الحين والآخر، سوف يظنُّ نفسَه مراراً أنّه قد نسيَ شيئاً. وتلك معاناةٌ شديدةٌ تشبه الهلوسَة." من حديث د. عمرو؛ "نحن نسعى دائماً لاستخراجِ أفضلِ نسخةٍ من ذاكرةِ المريض ولكن لا يمكن ضمانُ ما يحدث بعدها." تابع حديثه المنطقيَّ الموجّه لأصحاب بَيان لكن بحضوره..

بَيان (في لحظة وعي.)؛ "لا بأس؛ لم نختر نحنُ المجيئ إلى الدّنيا بل قامَ بذلك آباؤنا، ولا يمكن لنا اختيار رحيلنا؛ هذا تحدّدُه السماء.".

***

أكمل بَيان الأيام التالية لخروجه من الغرفة رقم "تسعة"، كنهرٍ عاد إلى مجراه بعد هجرانٍ قسريٍّ حدثَ عن جفافٍ أتعبَ النّهرَ والمجرى.. ينسى ولا ينسى. إنَّ المرورَ بالصّعاب يجعلُنا كقطعةِ بلّورٍ مخدوشةٍ فوق تماسُكِها يبقى خَدشها يهدِّدُها دائماً بالانكسار..

– نوّار: إنه من دواعي الشّرفِ ألا تنساني ذاكرةٌ معذّبةٌ بهذه الطريقة، التقيتَها صدفةً أثناء ابتسام.

لم أكن على علمٍ بأنّ الحياة ستبدو في بعضها سخيفةً إلى هذا الحد؛ عندما حلمتُ بأن أكون طبيباً، ووهبتني السماء القدرة على ذلك. بل على العكس، دفعني حلمي للعيش معزولاً بطريقة قاسية حتى صارَ التلعثم أحدَ صفاتي الأساسيّةَ صعبةَ التفادي... وقطعتُ مسافاتٍ طويلةَ على أقدامِ فمي الضّاحكِ؛ ربما ظنّ أولادُ حارتنا بأني على جنون.. وأصبحوا يتبعون خطواتي مصفّقين خلفي! لقد كنتُ على هذيان..

آنذاك؛ كنتُ مثل نقوشِ جدرانِ معبدٍ، ما مرّ أمامي أحدٌ إلّا وضع عليَّ قُبلةً من عينيه.. ثمَّ ضحكَ واقتربَ إليَّ ليكتبَ فوقي شيئاً للذكرى.. مغادراً إيّاي إلى كائنٍ بشريٍّ يحتويه متجاهلاً تغيّره وثباتي! لكنّني لم أكن وحيداً؛ كنت مع نفسي.. إلى الآن معي روائحُ عطرِ العاشقين وشخصيّاتي، دعواتُهم، صورُهم، توصياتُهم، وعتاباتهم.. حتى علّمتني مدرسةُ الحياة، الاعتراف بالفشل، والفشلُ يأتي مثلَ رجوعِ الصّوت بين

الجبالِ لا يمكن إمساكه أو إخفاؤه. سألتُ نفسي مرّة: لماذا علينا مكافحةُ الفشل؟! أو الإمساك به؟

ثمَّ كيفَ يمكنُ للواحدِ منّا أن يكتبَ فشلَهُ ويُمضيَه.. أو أنْ يعترف بأنّ بعضَ الحياةِ قد انتصرَ عليه وبعضُها المتبقي خرجَ بشقّ الأنفس عبرَ نتيجة التّعادل... عشرُ لكماتٍ لعشرِ ندبات.. أيُّ رضىً.. أيُّ قبولٍ هذا الّذي تريدُه منّا الحياةُ كي تستمر؟!. في كلِّ الأحوالِ بفضلِ فشلِنا واللكماتِ والنّدباتِ نبدو مميّزين للغاية.

الأستاذة جميلةُ: جميعاً نفارقُ؛ إنّنا نبذل لأبنائنا كلَّ ما لدينا من العمرِ وفيه؛ نربّيهم على الأصولِ الّتي تعلّمناها وعلى المنطق، حتى يصبحوا عاشقين فينسفَ الحبُّ كلَّ شيءٍ ثمَّ نفارقُهم!.

"أحبّكَ حتى العظم." كتبتْ جيانا على الجدار الأسودِ دونَ ترميمه، تحت ما كتبه بَيان آخر مرّة.. وأكملت يَسار؛ "بكتْكَ تلك الصغيرة حتى ملأَ دمعُها الفرات والنيل."

أصبحتا أقربَ لبعضهما مما سبق. قامت يَسار بافتتاح مكتبٍ لهندسة الدّيكور لتعملَ فيه مع بَيان، وطلبت من أيهم العمل معهما بعدما فقدَ عمله أثناء محنة صديقه... حاولَ أغيد الرجوع إلى نوّار؛ الّتي رفضت بشكلٍ قطعيٍّ رجوعَهما... ولم تنجح كلُّ محاولات التوسّط بينهما.. فُقِد الأمل؛ وعادِ إلى حِداده.. أحياناً يتوجّب علينا البترُ لا العلاج.

وفي متابعة السّيد عادل لأدم، أصبح أدم متهماً بالتخلّص من يارا؛ ثم كُشف عن تورّط شركته الغائبة عن ساحات العمل. بأحداثٍ أكثر

عنجهية. لكنّ طليقَ يارا وأهلها رفضوا إخراج الجثّة للتشريح المرضي!. لا بأسَ من الهرب في بعض الأوقات. أحياناً ينقذ الهروب حياتنا.

– بَيان: يؤلمني إثبات أنّها قد قُتلت!. كأنّني سوف أحمد الله كثيراً على تذبذب ذاكرتي.

– جيانا: لم أتوقّع أبداً كوني ملفتةً إلى الحدِّ الّذي يدفعُ بأحدِهم إلى الاعتداء على الآخرين. إنّ التألّق كالشوكولا بالنسبة لنا.

تابعت ابتسامةُ نوّار قتل البشر واستمرَّ الحلم بدغدغةِ خواطرِ آيات.. متابعةً مسيرها بخطواتٍ ثابتة نحوه.. ربما لن تستطيعَ تحقيقَه بسهولة.. فنقلُ الأحلام إلى الواقع ليس بالأمر اليسير حتماً. إنّما التّكاتف لا يبقي للمستحيل فسحةً يحتلّها..

– آيات: جميعهم شجعوني ويشجعونني مراراً.. حتى صمتُ بَيان أمامَ رفضي القديم هو دفعي باتّجاه حلمي القديم؟

الآن لا يوجدُ رفضٌ يا آيات!؟.

هذا أيضاً ما تفعله مناطقُ أدمغتنا (التكاتف.) على اختلافِ مكانها ووظائفِها. لأنَّ ربطَ الخيوطِ ببعضها البعضِ يُنتجُ عقدةً صعبةَ التّخطّي على حاسّةِ اللّمسِ عندَ الأصابع. فإمّا تقفُ عندَها أو تتجاوزها بلا نسيان...

حاول د. عمرو الاعتمادَ على تلك القاعدةِ البسيطةِ في بداية الأمر. ساعدَه تاريخُ بَيان الطبيُّ والنفسي؛ ووجودُ أحبابه. حتى تكوّنت العُقدة

الّتي جمعت بين أوراقِ بَيان وحضرةِ نوّار ووجود أيهم ويَسار مع صور الجدارِ الأسود الخاص ببَيان وصور زواجِه الموثّق. تلك العقدةُ كانت هي الفيصلَ بتتابعِ ظهورِ تفاصيلها.. حيث شكلّت الدَّافع الّذي جعل دماغَه يستمرُّ بالبحث والتذكّرِ والرّبطِ أكثر.

فقد بَيان الكثير من ذكرياتِه خفيفة الأثر؛ إلّا أنّه تذكّر بعض الأحداث الرئيسية الّتي حصلت معه: كوفاة أبويه ورحيل يارا وعودةِ يَسار.. دونما تمييز بين الذّكريات السعيدةِ أو المؤلمة. هذا ما يفعله دماغُ المريض عادةً. فالدّماغُ يقومُ بجمعِ ما يستطيعُ جمعَه من ذكرياتِ الحدث الواحدِ، كي يقومَ ببناءِ الحدث من جديد.. طبعاً بتدخّلٍ من السّماء..

ومن ثمَّ؛ باستخدامِ مجموعةِ الأحداثِ تلك الّتي وصلَ إليها؛ كقاعدةٍ أساسيّةٍ، يستطيعُ فاقدُ الذّاكرة عبرَ دماغِه المتضرّرِ تعلّمَ مهاراتٍ حياتيةٍ جديدةٍ لكن بصعوبةٍ بالغة. وتستمرُّ الحياةُ برغيفِ خبزنا وتكاتفنا..

– يَسار: أحبّه بالطبع؛ لكنّ هذا الحبُّ لا يمنعني من رؤيته سعيداً. بعد انفصالي القسري عن أدم، وجدتُه في المكانِ الّذي كنّا نتردّدُ إليه قديماً، جمعتنا الخيبةُ هناك في شارع الموت. عندما ناديتُه، ارتبكَ ثم قامَ من جلوسه؛ وسقطت من يده بعضُ حبوبِ الدّواء!. تظاهرتُ بعدمِ رؤيتِها. وكانت تلك بدايةَ العودة.

نال أدم جزاء الاعتداء.. وبقي رحيلُ يارا غامضاً تحتَ ظنِّ القتلِ أو الانتحار؛ لكن يُمال إلى قتلها لأنَّ آدم قد أخبر يَسار يوماً أنّها أرادت

العودة إلى دمشق. بينما كانت جيانا تتقلّب بين الفرحِ على وجه أكبر. والغيرة والوعي..

نتالي اطمأنّت على حبيبها بواسطة يسار؛ التي سعت سعياً نبيلاً لترافق تلك العائلة الصغيرة المكوّنة من بَيان وزوجته. وأيهم عادَ للعيش على أطلال حبيبته السّابقةِ تحتَ اهتمامِ الأصدقاء القدامى والجدد.. أما دَيانا فعادت للتواصل معه لتطمئن (على حسب تعبيرها.) لكنها ارتطمت بقسوة أيهم..

– أيهم: لا أعرف لماذا تواصلت معي مجدداً! لم نجدها عندما كنّا نحتاجُها.

هكذا يعيش الإنسان حياته بين القادمين والرّاحلين.. نصفُه من الحاضر والآخر من الماضي. ليبقى القادمُ بين يدي الله عزّ وجلّ، حتى يأتي. فلا تحزن يا قارئي على ما مرَّ أو ما يمرّ عليك في حياتك... على موتٍ لملمَ بعضَ أطراف أيّامك أو على وداعٍ جمعَك بالبعض أو وحدةٍ أجلست عبراتِك على خصرِ وجنتيك..

أنا أيضاً أشعرُ بالضّيقِ لأنّي أصبحتُ على مشارفِ وداعِ شخصياتي الرّوائيّة الّتي أصبحتَ تعرفها الآن كما أصبحت تعرفُ منّي بعضي. إنّنا نقضي أعماراً كاملةً نبحثُ عن السّعادة ونحاولُ صناعتها.. حتى ندقَّ أبواباً ليس من المفترضِ أن ندقّها.. ونمشي كلَّ يومٍ في شوارعِ تشبهُ شارعَ السّوقِ القديم، شارعَ الموتِ، شارعَ الحياة، شارعَ الحبِّ؛ وشارعَ الحَلويّات... أيضاً ليس من المفترضِ أنْ نمشيَها بحزنٍ كما نفعلُ غالباً!.

ربما أصبحتَ تعلم يا قارئي أنّ سعادتنا تولدُ من التّفاصيل؛ وتتفهّمُ أيضاً أنَّ الويلاتِ في انتظار من يعيش منّا على التّفاصيل. تلكَ قاعدةٌ حياتيّة حلاوتها في تناقُضِها، كذلك مرُّها.. مثلُ الحبِّ؛ والوحدة...

قد أسعدني جداً مروري في شارعِ الحبّ لكنَّ الطريقَ انتهى بي إلى شارعِ الموت.. واستمرَّت خطواتي ظناً مني؛ أنّي ما زلتُ في شارع الحب!. كما كانت وحدتي إحدى مصادرِ سعادتي الّتي لا تنضبُ أبداً لكنّها أيضاً قضت عليّ تماماً..

كتبتُ يوماً: أنّ الحديثَ إلى العابرين لا يَشفي. ثم تمنّيت أن يكون في حياتي أحدُ أولئك العابرين! أحدّثُه في ليلةٍ حمراءِ الميولِ عمّا في داخلي دونَ خجلٍ أو خوفٍ من ظهوري بوجهي الحقيقي. بلا أقنعةٍ ولا تمثيل.

وركضتُ أكثر من مرّة، في شارعِ الموت؛ هارباً منه إلى شارعِ السّوقِ القديم أتبضّعُ بعضَ الذّكريات.. وصولاً إلى شارعِ الحلويات.. ثم سألتُ نفسي؛ لماذا هربت؟.

إن كنتَ تريد مني أن أعرّفَ لك الحبّ فسأخبرك أن ليس للحبّ تعريفٌ حقيقيٌّ واحدٌ.. إنّما هو على تغيّيرٍ مستمرٍّ طالما أنَّ الوقتَ يمضي والقلبَ ينبض.. لكن ورغم تغيُّرِه ذاك أؤكّدُ لك ألّا دخل للحبِّ أبداً في فرضِ حصارٍ كاملٍ على المحبوبِ أو تقييده أو التّدقيقِ عليه... هذا فقط إبداعُ الشّرقِ الخائفِ دائماً. لا يمكنُ للحياة أنْ تقوم كاملةً على شخصٍ واحدٍ حتّى لو كان هو الحبيب.

عدت مجدّداً بعد سؤالي لنفسي إلى شارع الموت، لن أخفيِ عنكِ خوفي، إنّ عيوني كانت تنظرُ إلى الخلفِ وجسدي على استعدادٍ تامٍّ لتنفيذِ طلبِ الهرب، حتّى خطواتي لم تكن مشياً بل كانت هرولةً.. كنتُ خائفاً لكن توجّبَ عليَّ العودة لأقضيَ على خوفي، وأمرَّ باتّجاه منزلي.

أثناءَ هروَلتي في شارعِ الموتِ عرقلني طيفُ يَسار. بدايةً أحسستها ملك الموت، وبقيت على حالي بوضعيةٍ تشبِهُ وضعيّة السّجود إلى حدّ ما. رقصتْ ساقيَّ من الخوف. وتبلّلتْ ملابسي بالعرق. ربما ليس بالعرق فقط!!!. من تلك اللّحظة إلى أنْ فهمت بأنّ يَسار من النّوع البشري تخرّبُ فؤادي. ثمّ طلبَت منّي السّمعَ وأبحرَتْ في الحديث..، الحديثِ عن حياتِها وأحلامِها الّتي كانَ من بينها الإنجابُ. حدّثتني كأنّنا أولادُ أمٍّ واحدة. منذُ ذلك اللّقاء أصبحنا أنا ويَسار أصدقاء...

مع تتالي الأيّامِ وأحداثِ القصّة، عرفتُ أنّ يَسار قامَت حقاً بالإنجاب، إنجاباً يبدو طبيعياً لي؛ لأنني لستُ من المناصرين لحتميّة أنّه للأمّهات فقط. فالإنجاب على ألمه وصعوبته ليس حكراً على الأرحام السليمة. ولأنّني كاتبُ (الأمومة لمن احتوى لا لمن أنجب. تؤخذُ الأبوة على هذا النحو.) فسأكملُ لك؛ القلوبُ تنجبُ يا قارئي، والعيونُ تنجب، والخصورُ كما السّواعد والأكتاف والنهود والتعب. وكلُّ تفصيلٍ صغيرٍ في جسدِ أنثى إذا أُخذ على محمل التّدقيق والاهتمام يمكنه الإنجاب. فكيفَ بالجسد؛ جسد يَسار، والأنثى هي أيضاً يَسار.

حتى أنا؛ أعادت يَسارُ ولادتي.. لأكونَ شاهدَ عيانٍ على القصّة أو كاتبها. فأينما وجّهتُ وجهي الآن، رأيتُ ظلَّ قدّها المهفهفِ.. ويدِها طويلةِ الأصابع منمّقةً متّسعةً لكلِّ كلِّ ما أحتاجُ من احتواء. يَسار هي السّكينة والسند اللذان أشعر أنني بما لا تقوى أبجديّتي على كتابته. فحينَ نلتمس نحنُ معشرَ الرّجالِ امرأةً تصنعُ الحياةَ وتقودُ الجيوش نتوقّفُ مذهولين أمامها.

أحبُّ شعوري عندما تبتسمُ الحياةُ أمامي كأنّما الأنوارُ أو بعضُها قد أُشعلَت خصّيصاً لتضيءَ لي عتمتي...، أحبُّ وقوفي على مشارفِ اللّيل مستقبلاً أيّامي الآتية كما لم تفعل؛ مرتديةً قوسَ قزح..

في عالمِها جسستُ المعاني الحقيقيّةَ لهذه الحياة...، عرفتُ كم تبدو حيواتنا نحنُ العاديّون ناقصةً، وكم آذتنا غفلتُنا الّتي كبرنا عليها. كما نضجت في عقلي فكرةُ أن تكونَ الأنثى إله**!**. إنّها تملكُ كلَّ مقوّماتِ الألوهيّةِ.. من وجهةِ نظري أنا؛ وحتماً من وجهة نظر بَيان وأيهم، وربّما جيانا. يبدو أنّني سأقع في عشقها أيضاً**!**.

فهي تميل للشبه بأفروديتي؛ أفروديت إلهة الشعور والحنان؛ كما الجنس. ربّة الجمال التي تهبُ البشريّين جمالَهم وجمالَ أجسادِهم؛ بالإضافة للقدرة على سبي العقولِ كأسطورة. تُرى كيفَ كانت مشاعرُ أدونيس (الأسطورة الفينيقيّة.) عندما التقى بأفروديت؟.
يكونُ أدونيس أحدَ العاشقين لأفروديت.

تجلّتْ في عيوني صورة إيزيس (إلهة الأمومة لدى المصريين القدماء.) التي قامت بوضع ابنها من زوجها (الملك الأسطوري المذبوح.) أوزوريس بعد ذبحِه على يدِ أخيه ست. وهو أخوها**!**.

حيثُ تقولُ الأسطورةُ الفرعونيّة القائمةُ على النّزاع بينَ الخيرِ والشّر؛ أنّه وبعد فجيعة ذبح أوزوريس من أخيه، قامت إيزيس بحزنها وتعويذاتها السحرية أنذاك لتجمع أشلاء الأخ والزوج أوزوريس غاضبةً من تركه لها..**!** بمساعدة أختها الإلهة نيفتيس بعد تقطيع الإله ست لجثّة أخيه الإله أوزوريس في محاولته الثانية، انتقاماً لشيء ما لا يبدو واضحاً للعيان؛ وطمعاً في اغتصابِ العرش. كذلك استخدمت الإلهة إيزيس تلك التّعويذات بحماية ابنها فيما بعد من شرّ عمّه الإله ست.

ويقال عن النيل أنّه يعادل دمع إيزيس الّتي بكته آنذاك على أخيها أوزوريس.

نجحت إيزيس باستعادةِ روحِ أوزوريس وأنفاسه ليُبعث إلى الحياةِ مجدداً ثم جامعتْه لتضع منه ابنهما الإله حورس بتحفيزها الجنسي له. وبذلك ضمنت وجود وريثٍ شرعيٍّ له ينازِع وينتقمُ من الإله ست وتكفّلت إيزيس بحماية ورعاية حورس الطفل حتى أصبح منافساً لِعمّه. أصبحت إيزيس فيما بعد الإله الأم في القصص الأهرامية القديمة وارتبط اسمها بسُمعةِ مساعَدةِ الأموات وإعادتهم إلى الحياة. متحلّية بطبيعتها الجميلةِ والعطوفة. كما كوفئ أوزوريس بوهبه الحياة الأبديّة والألوهية على العالم الثاني، عالم الأموات. تُفضي الأسطورة إلى نجاح حورس الإله بمنافسة عمّه وانتصاره عليه في نهاية الأمر.

تماشياً مع تفاصيل قصّص الأساطير ودلالاتها وتركيبها المعقّد؛ أثناءَ بوح يَسار بقصّتِها وبجلوسنا معاً على رصيفِ شارع الموت؛ صرفني طيف إلهة الأمومة إيزيس بتواجده في روحِ يَسار.. لا أعرفُ كيفَ قطعَ كلَّ هذه الأزمان وصولاً إلى يَسار لكنّي لا أستطيعُ أيضاً نُكران أو نسيانَ إحساسي الرَّفيع فيه حتى كدت أتحسّسُه بيدي، كما كنتُ أشاهدُ في وجهها حُسنَ أفروديت، أمّا عقليَ الباطن قامَ بالتقاطِ بَيان كصورةٍ صغيرةٍ مبسّطةٍ عن الإله الأسطورةِ أوزوريس. وبفطرةٍ بشريّة بحتة، حسدته. حينها طلبت من يَسار الإذن لأختفي بعض الوقت، مبرّراً بأنّي سأذهب لتغيير جلدي..! وبعد تحرّكي سألتها؛ أأجد ثوب بَيان لديك؟. إنّ وجهها أحلى من أفروديت.

بقيتُ أردّدُ بصوتِ همسي؛ كيفَ يمكنُ لبشريٍّ مثلي إيجادُ من هم مثلُ يَسار وجيانا؟ أو مَن هم مثلُ إلهة الأمومةِ إيزيس واختها الإلهة نيفتيس. أو أفروديت الحقيقيّة...

في تاريخُ الألوهةِ القديمةِ؛ تتساوى أفروديتي اليونانيّةِ (المتواجدةُ عندَ العرب باسمِ عشتار...) وإيزيس الفرعونيّة وكذلك فينوس الرومانية وغيرهنّ؛ الموصوفاتُ بمنجباتِ الحياة.

وعند بَيان؛ تتواجد يَسار. وعندي توجد أنت، يا قارئي. ماذا إذا أخبرتك أنّ في حياتك أسطورةَ تمثّلُ الحبَّ؟ ووضعتُ نقطةَ آخرَ السّطر بعد: إن لم تكن؛ فسوف تولد..، وسوف تجدُها وستعيشُها حتماً.

كنت أنظرُ في الأحداقِ، في النّاس والأحجارِ والآفاق. في كلِّ ما استطعتُ الوصولَ إليه بعينيَّ. وقفتُ أيضاً مع الواقفين في أرتالِ الانتظارِ.. يا لهُ من عمرٍ حزينٍ قضى عليه وقوفٌ كهذا. شعرت فعلاً بأنّه؛ قلبي علينا!. من هناك جئت أطرحُ عليكَ السّؤالَ؛ ماذا إذا أخبرتُك أنَّ في حياتِك أسطورةً تمثّلُ الحبَّ بألوهيةٍ حقيقيّةٍ وملموسةٍ!؟.

لا أحدّثُك من محضِ خيالٍ تراءى لي. أحياناً نعيشُ مع أساطيرنا دونَ علمٍ بأنَّهم كذلك، التقينا أو نلتقي معهم، نكلّمهم، نعانقهم، نحبّهم، نفقدهم، المشكلةُ ليست في عدمِ وجودِهم بل في معرفتِنا. ولا بأسَ ببعضِ الحذرِ من التَّعظيم.

قارئي العزيز. اشرب فنجان قوّتِك دائماً، إحدى الرّشفاتِ ترتشِفُها مع أسطورتك. ثم كُنها. كن أنت أيضاً رشفةَ قوّةٍ وأسطورةً في حياة الغيرِ لنصنعَ معاً رغيفَ خبزٍ.

فليس كلُّ وداعٍ قاتلاً، مهما تجلّل بألم.. لسنا ننجحُ دائماً وكما أنّ فشلَنا مهما تنوّع لن يكونَ النّهاية. أما الضّجرُ، رغمَ ثقله يمضي.. قِس على ذلك..

الجميعُ في الصّفحاتِ الماضيةِ جلسَ على أطلالِه وأطلالِ حكاياتهِ.. هذا ما لعبَ دورَ اللّمسِ. أقصدُ بصماتِ الوجعِ على الروح...، انتبه لـ أنّهم جلسوا على تلك الأطلالِ أثناء عيشِهم لمراحلِ حياتهم الجديدة؛ أي أنّ حياتهم لم تتوقف، و لن تتوقف.

***

بعد عام، من استعادة بَيان لذاكرته.

- جيانا: يَسار أرجوك لم أعد أحتمل.
- يَسار: سوف يأخذونك من هنا الآن.
- جيانا: أين بَيان؟ أرجوك لا تتركيني وحدي.
- يَسار: أخبرته بأنّنا هنا؛ إنّه قادمٌ بالتأكيد.
- جيانا: لا تتركونني وحدي.

في الممرّ الأبيضِ بقيتْ يَسارُ تنتظرُ؛ حتّى خرجَ صديق الـ د. عمرو، الطّبيبُ الأخصّائيُّ بالتّوليد والأمراض النّسائيّةِ من غرفةِ العمليّات يخبرُها بنجاحِ ولادةِ "مدام جيانا." مباركاً لها قدوم الطفلة. فقامت بالاتصال إلى بَيان لتزفّ له الخبر..

- يَسار: أين أنت؟ أوصلت إلينا؟.
- بَيان: لماذا؟ أين أنتم؟.
- يَسار: ألم أخبرك منذ ساعتين أنّ جيانا سوف تلد يا بَيان؟.
- بَيان: لا لم يخبرني أحدٌ بذلك!.
- يَسار: بَيان، لا تمازحني أرجوك!.
- بَيان: المعذرة يا أيسري يبدو أنّني نسيت!.
- يَسار: ماذا أفعل بمعذرتك. أين أيهم؟. (قالت دامعة العينين.)
- بَيان: هنا.
- يَسار: أعطنيه.
- أيهم: ماذا هنالك يَسار؟.
- يَسار: لقد وضعتْ جيانا منذُ قليل، أرجوكَ أحضر بَيان بسرعة قبلَ انتهاء تخديرها.
- أيهم: سنأتي بسرعة؛ أخبريني أين مكانك؟.

بعد وصول بَيان وأيهم.

من بداية الممرّ الأبيضِ على الأرضِ المرمريّةِ البيضاء ركضَ بَيان بلهفةٍ بحثاً عن يَسار؛ بجوارِه حاملُ الورد أيهم. ومن ملامستها لنافذته في نهاية ذلك الممر استدارت يَسار.

لتأخذ بَيان بصدرها الولّادِ الحنون.. وغدقُ مقلتيها بألمِ أمومةٍ حُرمت من أمومتها بمشيئةِ السماء. والتصقَ بَيان، ليسمعَ خبرَ زفافِ ابنته الأوّل.. الّتي أصبحت على قيد الحياة.

- يَسار: لقد أصبحت أباً، أيّها الشقي.

– بَيان: أشعر بالخوف.
– يَسار: لم أمت بَعد.

وبكى بَيان بصمت... كذلك تـندّى الوردُ كعيني حامله. ثمَّ دخلوا ثلاثتُهم إلى جيانا الصّغيرة الّتي لم تعد صغيرة بل صارت جيانا الأمَّ، وهي في تحديقٍ مستمرٍ لطفلتها حاملةً إيّاها على مرفقيها ومعهم الوردُ وعِقدُ الألماس. "سوف نسمّيها جميلة." قال بَيان.

– جيانا: ضع على يَسار الصغيرة قبلتك الأولى؛ ثم أعطها للأمِّ يَسار.

سيبقى الحبُّ عمادَ الحياةِ كلّها؛ كالصلوات في الأديان. وما حبُّ بعضنا البعضِ كبشريّين إلّا صورةٌ صغيرةٌ أو أحدُ الممرّاتِ الضّيقةِ في قصرٍ واسع جداً، علقنا فيه أثناء مرورنا.

وأنا مازلت حتى يومي هذا أحاولُ تدوير جلدي واستبدالَه بجلد جديد.. لعلّي أصادف أفروديت أو إيزيس أو حتى نيفتيس.

في الحياة؛ سوف تلتقي وتفارق..
ثم تتعلّم كيف تلتقي وكيف تفارق..
ثم تتعلّم كيف ولماذا ومتى تلتقي وتفارق..
وتنتهي القصّة بدرس أخير يعلّمك كيف ولماذا ومتى تبقى أو تغادر...

وسيبقى البعضُ يصفّقُ للتّجربةِ، والبعضُ الآخرُ يشتِمُها...
سيبقى البعضُ يصفّقُ للتّجربةِ، والبعضُ الآخرُ يشتِمُها.

****

قارئي العزيز.. شكراً لوصولك إلى هنا..

كل المحبّة..

على أن نلتقي في القادمات.. إلى لقاء.

علي مكيه .. أيار ٢٠٢١

صدر للكاتب:

- أوّل أوكسيد الحب / ٢٠١٩
- أحببتكِ في دمشق / ٢٠٢١